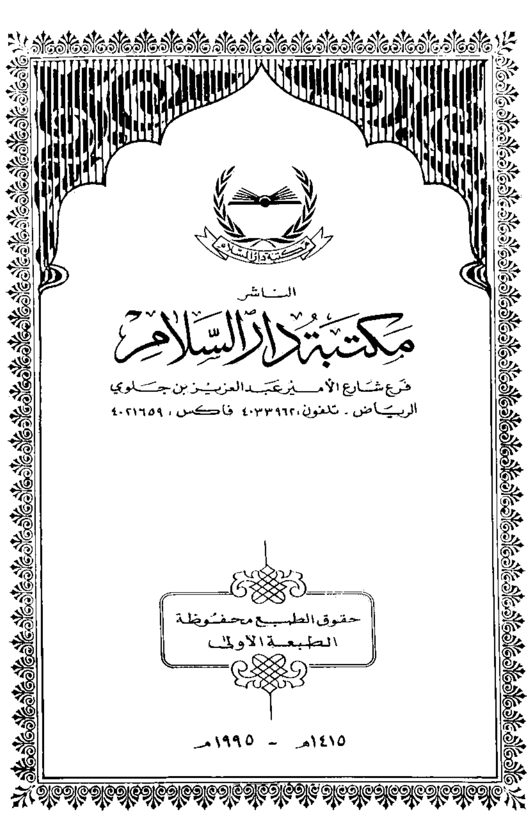

العلاقات الاجتماعية
في القرآن
تأليف
فضيلة الشيخ
عبد الله الحمد الجلالي
دار السلام
الرياض

العلاقات الاجتماعية في القرآن

تأليف
فضيلة الشيخ
عبد الله الحمد الجلالي



الناشر
مكتبة دار السلام
فرع شارع الأمير عبد العزيز بن جلوي
الرياض - تلفون ٤٠٣٣٩٦٢، فاكس ٤٠٢١٦٥٩

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

مقدمة البحث

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين وعليه نتوكل ولا حول ولا قوة إلا بالله وحسبنا الله ونعم الوكيل. . وبعد. .

مقدمة البحث

لقد يسر الله سبحانه وتعالى لي أن أتصل بجامعة بنجاب لاهور باكستان، وأتعرف على أستاذ كريم أعجبتني أريحته وكرمه، هو الدكتور ظهور أحمد أظهر رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة، وألح عليّ أن أكمل الدراسات العليا الدكتوراه، وشجعني كثيراً على هذا الأمر، فكانت فرصة ثمينة لي مما دفعني إلى بدء المشوار في إكمال الطريق، ومما زادني شرفاً أن صرت أحد منسوبي جامعة البنجاب، التي تحتضنها الدولة الإسلامية ـ باكستان ـ التي أحبها وأحن إليها دائماً وأكثر الترداد عليها، ويكفيها فخراً أنها أول دولة احتضنت الجهاد في سبيل الله (الجهاد الأفغاني)، وأنها بلد العلم والجامعات الإسلامية، إضافة إلى أنها تعتبر أكبر تجمع إسلامي على مستوى عالي في هذا العالم يفتخر بها الإسلام، وبالرغم من مشاغلي الكثيرة فقد قررت في هذا اليوم المبارك الموافق ٢٠/١/١٤١٢ هـ البدء في هذا البحث، الذي أعتبره ملخصاً لما يدور في ذهني من موضوع مهم جدًّا وهو العلاقات الاجتماعية في القرآن. علماً أن هذا البحث يحتاج إلى أن يقسم إلى عشرات الرسائل، لأهميته من ناحية ومن ناحية أخرى لحاجة الناس إليه، في عصر

نجد أن الحضارات الملفقة قد شتتت شمل الأمة الإسلامية ومزقتها كل ممزق، فقد تأثرت الأمة الإسلامية بالحضارات التي اختلطت بها وتأثر المسلمون بالمجاورة والمخالطة، فتأثرت تلك العلاقات الكريمة وضعفت العاطفة الإسلامية والروح المعنوية، لذا صار لزاماً على أي باحث في هذا المجال أن يعطي البحث حقه ليميز الخبيث من الطيب، وليسترجع التعاليم الإسلامية من تلك الأخلاط الرديئة، لتعرف الناشئة الجديدة حقيقة هذا الدين، الذي جاء لتربية المسلم تربية راقية، تتناسب مع العواطف الكريمة، إلا أن طول البحث مع ضعف الهمة وكثرة المشاغل حالت دون استيفاء هذا البحث وإعطائه ما يستحق من اهتمام، ولعل الأخ القاريء لهذا البحث يعذرني لهذه الأسباب القهرية، حينما يلاحظ ضغطاً شديداً لهذا البحث وعدم تقصي له وكثرة المواضيع والعناصر في بحث محدود الصفحات والجهد، وقد حاولت أن أركز على بعض العناصر أكثر من بعض لأهميتها الاجتماعية، مثل علاقات الأسرة، والعلاقات بين الزوجين، والعلاقات بين المسلم والمسلم، لما ألاحظ على هذه الثلاث من تفكك، ففي زحمة المصالح تفككت الأسرة الإسلامية، وفي غيبة الإسلام وفي غمرة الأنانية وحب الذات والتخلخل الأسري ضاعت بعض الحقوق الزوجية، وصار الأمر مرتبكاً بين الإفراط والتفريط، بين من يبالغ في حقوق المرأة، ويتهم الإسلام بتضييعها، وبين من يهين المرأة ولا يقيم لها وزناً. أما حقوق المسلمين فقد أهدرت على أيدي القوميين الخونة، الذين يكرهون الإسلام وتعاليمه، حتى صار النصراني العربي أحب إليهم من المسلم الباكستاني والأندونيسي، وترتب على هذه التفرقة ضياع حقوق كثير من المسلمين، وصارت الروابط والصلات غير مرتبطة بالدين إلا ما شاء ربك، وقامت على هذه الكرة الأرضية حواجز سياسية واجتماعية وجغرافية،الدين غير مسئول عنها، حتى لقد اهتمت الأمة العربية بناءاً على هذا التفرقة بقضايا عربية تافهة شغلت الساحة ونسيت مشاكل الأمـــة الإالإسلامية الكبيرة، حتى نسيت الولايات

الإسلامية داخل روسيا الشيوعية، والتي يسكنها أكثر من سبعين مليون مسلم، وضاع المسلم وبلاده داخل الصين الشيوعية، والذين يبلغ عددهم مائة مليون مسلم، ونسيت قضايا كثيرة وصار الهراء وراء أمور تافهة وقضايا أصغر بكثير من تلك، كل ذلك حدث يوم انفصل العالم الإسلامي عن بعضه، ووضعت حدود وحواجز ما أنزل الله بها من سلطان، ولعل ما يسمى بالقومية العربية بصفة خاصة له أكبر الأثر في هذا الأمر ثم تلتها قوميات أخرى سارت على منهجها المنحرف فكانت لها آثار خطيرة على الأمة الإسلامية ولا عجب أن ينفذ العدو الحاقد من هذه الهوة، وذلك كله حينما غفلت الأمة الإسلامية عن دينها القويم ومنهجها الأصيل القرآن العظيم، الذي يقول فيه سبحانه: ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ ويقول الرسول ﷺ: «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى» ولكن الأمر تنفيذ لمخطط العدو الحاقد:فرق تسد، فقد انزعج الكفرة من الدولة الإسلامية التي تمتد من الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً لها حاكم واحد وعلم واحد يسير المسلم في هذه الدولة لا تستوقفه حدود ولا دائرة جوازات، جنسيته الإسلام وعلمه التوحيد ونسبه مسلم، إذا قيل له من أنت قال أنا مسلم باني حضارة العالم.

وقد قسمت البحث إلى مقدمة وخمسة أبواب وخاتمة.

١ ــ مقدمة البحث ثم مقدمة في فضل القرآن الكريم، ثم مقدمة في فضل اللغة العربية وأثرها في نشر الإسلام.

وبعد ذلك قسمت البحث إلى خمسة أبواب وكل باب يحتوي فصولاً.

١ ــ **الباب الأول**: في صلة ذوي القربى، وفيه خمسة فصول:

أ ــ الفصل الأول: في علاقات الآباء بالأبناء.

ب ــ الفصل الثاني: في حقوق ذوي الأرحام من الصلة والإحسان.

ج ـ الفصل الثالث: خطر العقوق والقطيعة.

د ـ الفصل الرابع: في حكمة توزيع المواريث حسب القرآن.

هـ ـ الفصل الخامس: في الغرامات التي يتحملها الأقارب حسب القرآن.

٢ ـ الباب الثاني: في العلاقات الزوجية، وفيها ستة فصول.

أ ـ الفصل الأول: مكانة الزواج في الإسلام.

ب ـ الفصل الثاني: تفضيل الذكور على الإناث.

ج ـ الفصل الثالث: عشرة النساء وحقوقهن.

د ـ الفصل الرابع: الإصلاح بين الزوجين وعلاج مشاكلهما.

هـ ـ الفصل الخامس: إنهاء العلاقات الزوجية بالطلاق أو الخلع أو الفسخ.

و ـ الفصل السادس في شبهة تعدد الزوجات والطلاق.

٣ ـ الباث الثالث: العلاقات بين الأحرار والأرقاء، وفيه أربعة فصول.

أ ـ الفصل الأول: موقف الإسلام من الرق.

ب ـ الفصل الثاني: موارد ومصادر الرق وحرص الإسلام على تحرير الأرقاء.

ج ـ الفصل الثا لث: في حقوق الأرقاء ووجوب الإحسان إليهم.

د ـ الفصل الرابع: التفرقة العنصرية وموقف الإسلام منها.

٤ ـ الباب الرابع: في العلاقات بين المسلمين، وفيه ستة فصول.

أ ـ الفصل الأول: حقوق المسلم على المسلم.

ب ـ الفصل الثاني: علاج المشاكل التي تفرق بين المسلمين.

ج ـ الفصل الثالث: العبادات مصدر أخوة بين المسلمين.

د ـ الفصل الرابع: أثر المعاملات في تقوية وشائج الأخوة.

هـ ـ الفصل الخامس: أثر سلوك المسلم في تقوية هذه الروابط.

و ـ الفصل السادس: في العلاقات المالية بين المسلمين.

٥ ـ **الباب الخامس**: العلاقات الإنسانية، وفيه أربعة فصول.

أ ـ الفصل الأول: حقوق الإنسان في الإسلام.

ب ـ الفصل الثاني: العلاقة الفردية بين المسلم والكافر.

ج ـ الفصل الثالث: العلاقات الدولية بين المسلمين والكفار والجهاد في سبيل الله.

د ـ الفصل الرابع: تنظيم السلم والحرب بين المسلمين والكفار.

وبالرغم من طول هذا البحث فقد توخيت فيه الاختصار حتى لا يخرج عن إطار البحوث العلمية ولربما يغلب على بعضه الطابع الأدبي الإنشائي لأهمية ذلك في مثل هذه العناصر المتعددة ولربما يختفي الأسلوب العلمي لهذا السبب ولا يفوتني أن أشكر لأخي الكريم وأستاذي الدكتور ظهور أحمد أظهر رئيس القسم والمشرف على هذه الرسالة فقد بذل جهداً أشكره عليه ويجزيه الله عليه الجزاء العظيم فقد شجعني وشد من أزري وتحمل في سبيل ذلك الكثير كما أشكر لجامعة البنجاب ولكل من له يد في خروج هذا البحث إلى حيز الوجود وأعتذر عن الرجوع إلى كل المراجع المدونة فقد جعلت جزءاً منها فقط لتصحيح بعض ما وضعته وإن لم أنقل منها شيئاً، كما أعتذر من التقصير في حق هذا البحث الهام وحسبي أن عملي هذا محاولة في أول

طريق طويلة لربما يتبعني فيها باحثون كثيرون وإن أحسنت فمن الله وإن أخطأت فمني ومن الشيطان والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

مقدمة في فضل القرآن الكريم:

القرآن الكريم هو كلام الله المنزل على رسوله ﷺ منجماً على ثلاث وعشرين سنة، منه المكي ومنه المدني نزل به جبريل على قلب محمد ﷺ.

وحينما خلق الله البشرية على الفطرة وأسكن أباهم الجنة اقتضت حكمته أن يكون فريق في الجنة وفريق في السعير فتسلط إبليس على هذه البشرية بعدما أخرج أباهم من الجنة وتوعدهم بأن يأتيهم من ﴿ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ﴾[1] ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾[2] إذاً اقتضت حكمته سبحانه أن يرسل المرسلين إلى هذه البشرية ليهدوهم إلى طريق السعادة، وآتاهم من الآيات ما على مثله يؤمن البشر من الآيات الكونية والشرعية وكانت كل آية تناسب ما يمتاز به العصر.

فمثلاً عصر موسى ﷺ يمتاز بالسحر بين الناس فأعطاه آية تشبه السحر من العصا واليد وفلق البحر وغير ذلك كما أنزل عليه التوراة. أما عصر عيسى ﷺ فقد اشتهر بالتقدم الطبي فكانت آيته يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله إضافة إلى الإنجيل الكتاب السماوي ولما اكتملت العقلية البشرية في عصر محمد ﷺ ولما اشتهروا به من الفصاحة كان نزول القرآن على قلب محمد ﷺ فكان عنوان الفصاحة والبلاغة فكان الآية الخالدة لهذا العالم. ولم يكن القرآن آية كونية حيث الخلود لتطّلع عليه الأمم إلى يوم القيامة وكانت مطالب قريش آيات كونية ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن

---

(١) سورة الأعراف.

(٢) سورة البقرة.

رَبِّهِۦ﴾[1] ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾[2] هذه مطالبهم آيات كونية تشبه آيات بني إسرائيل فمنعهم الله سبحانه لأن الآيات الكونية يتبعها العذاب مباشرة لقوله سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾[3] ثم أخبر سبحانه أن نزول القرآن كاف لأنه أعظم آية: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾[4].

التحدي بالقرآن الكريم:

ولما كان القرآن بلسان عربي مبين تحدى الله به أرباب الفصاحة والبلاغة وكان القوم بلغاء فصحاء فبدؤا يعارضون القرآن ويزعمون أنهم يستطيعون الإتيان بمثله تحداهم الله تعالى على أربع مراحل.

١ ـ **المرحلة الأولى**: التحدي بالقرآن كاملاً فقال سبحانه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾[5].

٢ ـ **المرحلة الثانية**: الإتيان بعشر سور يقول سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾[6].

٣ ـ **المرحلة الثالثة**: تحداهم بسورة ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ﴾[7].

---

(١) سورة العنكبوت.
(٢) سورة الإسراء.
(٣) سورة الإسراء.
(٤) سورة العنكبوت.
(٥) سورة الإسراء.
(٦) سورة هود.
(٧) سورة يونس.

٤ ــ المرحلة الرابعة: تحداهم بأقل من سورة ولو بحديث ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ ﴾[1].

وانتهى الأمر بعجز القوم عن معارضة القرآن واتهموه بأنه سحر أو شعر.

القرآن منهج حياة متكامل:

لقد أنزل الله سبحانه القرآن الكريم تبياناً لكل شيء ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾[2] فهو مصدر حياة متكاملة لا ينفصل فيها جزء عن جزء أبداً ولا تقبل التفرقة بين جانب من جوانب الحياة، منهج سياسة فقد أمر باختيار الحاكم الصالح وذلك عن طريق أهل الحل والعقد ووضع له منهج الشورى ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾[3] ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾[4] وعليه أن يحكم الناس بالعدل لا فرق بين أحد منهم أبدا ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[5] وحرم عليه الشطط والجور ﴿ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾[6] وهذا الخليفة أو الحاكم محاسب بين يدي الله تعالى وأمام الخلق فإن عدل فهو في ظل عرش الرحمن يوم القيامة (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: ١ ــ إمام عادل)[7] ومن العدل ألا يولي عليهم غير الأكفاء الصالحين بل يختار الأمثل الأتقى (من ولي أمر المسلمين فولى عليهم ذا قربة محاباة فعليه لعنة الله والملائكة والناس

---

(١) سورة الطور.
(٢) سورة الأنعام.
(٣) سورة آل عمران.
(٤) سورة الشورى.
(٥) سورة ص.
(٦) سورة الجن.
(٧) البخاري كتاب الزكاة.

أجمعين)[1] وعليه أن يرفق بهم في حكمه لهم (اللهم من ولي أمر أمتي فرفق بهم فارفق به ومن شق عليهم فاشقق عليه)[2] كما عليه أن ينصف من نفسه أيضًا فلا يرى حقًّا له يمتاز به على غيره.

القرآن منهج حكم:

فقد نزل القرآن ليحكم بين الناس بالقسط فالحكم به هو الصواب والعدول عنه خطأ وجور قال ﷺ (من حكم به عدل)[3] والحكم بغيره كفر واضح بنص القرآن ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٤٤﴾[4] فالإعراض عن حكمه كفر مخرج من الملة، لا سيما إذا اعتقد أن غيره خير منه، وإن حكم الطواغيت والقوانين البشرية أعدل وأرفق للخلق وأصلح لأحوال الأمة، كما أن الإعراض عن حكمه ظلم للشعوب، لأن خالقها هو أعلم بما يصلحها ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٤٥﴾[5] كما أنه فسق وخروج عن الطاعة ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤٧﴾[6] والذين أعرضوا عن حكم الله يعتبرون حكم الله تعالى تخلفاً ورجعية لا يصلح للقرون المتطورة كما يقولون فهم يتهمون الله بالحيف فيقول عنهم ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾[7] وبالرغم من كل ذلك فهم ظلمة ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٥٠﴾[8] والعجيب في الأمر أن الذين أعرضوا عن شرعه سبحانه اتهموا هذا التشريع

---

(١) أحمد م/١.

(٢) رواه مسلم.

(٣) الترمذي كتاب فضائل القرآن باب ١٤ في إسناده مجهول.

(٤) سورة المائدة.

(٥) سورة المائدة.

(٦) سورة المائدة.

(٧) سورة النور.

(٨) سورة النور.

بالقسوة والوحشية فقتل القاتل عندهم تخلف وقطع يد السارق قسوة والحدود غير مقبولة عندهم لكنهم لمصالحهم يقتلون الأبرياء بالآلاف بل بالملايين كما فعلت أمريكا في نهاية الحرب العالمية الثانية مع اليابان وكما فعلت روسيا في حرب الأفغان بل ويعتبرون ذلك تقدماً في عالم اختلط فيه الأمر، أما الحدود فيعتبرونها في غاية التخلف والرجعية، كيف تقطع يد السارق، وكيف يرجم الزاني، إلى غير ذلك، هذا بالرغم من انتشار الجرائم الفظيعة التي تلزم الأمة بتطبيق حدود الله تعالى ولا يكبح جماح النفس البشرية المنحرفة إلا هذه الحدود الربانية في القرآن الذي ﴿ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[1] هم يريدون انتشار الفواحش واختلاط الأنساب والله يريد السعادة لهذه الأمة، وبدافع العطف على المجرم كما يزعمون ينقدون الحدود وينسون مصلحة الأمة، أما القصاص فهو مصدر الأمن الحقيقي للأمة لا يحقن الدماء ولا يستقر الأمن إلا بإقامته، لذلك يعتبره الله سبحانه حياة فيقول: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾[2] أي حياة سعيدة أمن واستقرار وبقاء. وهم يقولون إن قتل القاتل تخلف لأنه يضيف إلى المقتول مقتولاً آخر ونحن نقول لهم لا بل قتل القاتل يعني منعه من القتل فلا يقدم إذا علم أنه سوف يقتل كما أنه يحقن الدماء بين الناس ويؤمن الخائف فالفوضى التي تحدث عندما لا يقام القصاص تعني إراقة الدماء بلا قيد ولا شرط حينما ينتقم أولياء المقتول من القاتل كما كان يحدث في الجاهلية، أما حينما تتولى الدولة الإسلامية إقامة القصاص فإن الأمر ينتهي عند هذا الحد فيكون حكم الله هو الذي أنهى هذه الجريمة ولذلك نهى الله سبحانه عن الإسراف في القتل ﴿ فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾[3].

---

(١) سورة هود.

(٢) سورة البقرة.

(٣) سورة الإسراء.

القرآن منهج اقتصاد:

ولقد اهتم القرآن الكريم بهذا الجانب سواء في كسب الأموال أم كيفية تنميتها أم في طرق الصرف، أما كسب الأموال فقد أسهبت الآيات الكريمة في بيان طرق الكسب المباحة والمحرمة، ووضعت بينهما حواجز وحدوداً واضحة ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾(١) فقد حرم الله أن يأكل الناس أموالهم بينهم بالباطل، وأحل طرقاً كثيرة للتعامل تكفي عن المحرمة لو اكتفى بها الناس، فقد حرم الربا واعتبره من أعظم الذنوب فهو حرب لله ورسوله ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾(٢) كما توعد آكل الربا بالخلود في النار ﴿ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾(٣) ذلك لأن الربا امتصاص لدم الفقراء بلا حق ولا تعب. كما حرم الاحتكار للسلع والأطعمة والبيع على البيع والشراء على الشراء، والغش والظلم والرشوة، وغيرها وكلها تتنافى مع مصالح العباد. كما أمر الإسلام بالمحافظة على هذا المال فاعتبره ماله سبحانه ﴿ مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾(٤) كما اعتبر أموال السفهاء من الأطفال والقاصرين مالاً لجميع الناس فقال: ﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾(٥) مع أنها أموال السفهاء في الحقيقة وذلك لحث الناس على المحافظة على الأموال العامة، كما اعتبر مال الدولة مالاً للجميع لا يجوز التعدي عليه ويسمى الغلول حقيقة، أما بالنسبة لصرف هذا المال فقد جعل فيه واجبات وأركاناً ونوافل وحدد طرق الصرف وأمر بالاعتدال في كل هذه الأمور فشرع الزكاة وهي ركن من أركان الإسلام لا يكمل الدين بدونها

---

(١) سورة البقرة.
(٢) سورة البقرة.
(٣) سورة البقرة.
(٤) سورة النور.
(٥) سورة النساء.

وتعتبر كفالة ضرورية للفقير مع أنها نسبة بسيطة من أموال الأغنياء، وهدد مانعي الزكاة بالنار فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾[1] واعتبر هذا الحق أمراً إلزاميًّا ﴿حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿٢٥﴾﴾[2] ومن هنا تختلف الشيوعية عن الإسلام ففي الشيوعية تؤخذ الأموال لا للفقراء وإنما للسلطة الحاكمة أما الإسلام فتؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم، كما شرع الإسلام النفقات الواجبة ضماناً لأفراد الأسرة والقرابة، فقد أمر الله سبحانه صاحب القوامة بالنفقة على زوجته وأهله وذويه بقدر استطاعته ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾[3] كما شرع من الكفارات ما يغني الفقراء مثل كفارة القتل إطعام ستين مسكيناً وكذلك كفارة الظهار والفطر بجماع في رمضان، وكذلك كفارة اليمين إطعام عشرة مساكين ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾[4] وهكذا فإن كل هذه الأوامر تكفل ضمان الفقير بجوار الغني ونجد من خلال ذلك أن الإسلام يقضي على الفقر حينما يطبق في مجتمع من المجتمعات، كما كان ذلك في عهد عمر بن عبد العزيز حينما أرسل يحيى بن سعيد لأفريقيا لجمع الزكاة فجمع مالاً كثيراً ولم يجد فقراء يستهلكون هذا المال وكتب إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز وقال إن الإسلام قد أغنى الناس فماذا يفعل بهذا المال فقال اشتر عبيداً به وأعتقهم. وما يحصل الآن من خلل في أنظمة الاقتصاد وفقر ومسغبة فذلك بسبب تجرد

---

(١) سورة التوبة.
(٢) سورة المعارج.
(٣) سورة الطلاق.
(٤) سورة المائدة.

الحياة من الأنظمة الربانية. وأخيراً فقد رسم القرآن لصرف المال طريقاً وسطاً بين الإسراف والتقتير في قوله سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾[1] فالإسراف هو المبالغة في إنفاق المال والتقتير هو البخل ومنع الواجبات.

القرآن منهج أخلاق وفضيلة:

لا نجد نظاماً استطاع أن يقرر قواعد الأخلاق ويحارب الفواحش ويضع نظاماً للأسرة كالقرآن حيث اعتبر الزنا أخطر شيء في حياة البشر تضيع فيه الأنساب ولا يعرف فيه الأب أبناءه وفيه تنتشر الأمراض الخطيرة فقد حرم الزنا ووضع في طريقه حواجز شديدة تكفل السلامة منه فحرم الحديث عن الفاحشة ووضع لها حدًّا يقارب حد الزنا وهو ثمانون جلدة كما حرم النظر من الرجل والمرأة ﴿ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ ﴿ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾[2] وحرم الاختلاط بين الجنسين ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾[3] وأمر بالزواج ليكون حصناً عن الفاحشة ﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ﴾[4] وعلى هذا يكون القرآن قد رسم حياة كريمة تكافح الفاحشة وترسم طريقاً للفضيلة نظيفاً نقيًّا بعيداً عن المغريات والمؤثرات التي تفسد الدين والخلق لتكوين أمة عريقة ذات نسب عريق نظيف.

القرآن منهج سلوك للمسلم:

فقد رسم أفضل طريق لخير سلوك يضمن الحياة السعيدة لكل أفراد

---

(١) سورة الفرقان.
(٢) سورة النور.
(٣) سورة النور.
(٤) سورة النور.

المجتمع فحرم ما فيه ضرر وما يفسد ذات البين ويفرق القلوب ويباعدها فحرم لبس الذهب والحرير وأمر بالتواضع وخفض الجناح ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾[1] كما ساوى بين الناس لا فرق بين طبقة وأخرى إلا بالتقوى ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[2] كما أنه منهج إيثار للغير على النفس ابتغاء مرضاة الله ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[3] كما جاء بمبدأ التعاون بين الناس، على البر والتقوى ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾[4].

وبعد هذه الجولة الطويلة في شمول القرآن الكريم لحياة البشر تدرك الخطر الكبير في حياة الناس اليوم، بمقدار بعدها عن منهج الله سبحانه وبمقدار ما تبتعد هي عن هذا المنهج يكون نصيبها من التخلف والتأخر ثم تصور معي يا أخي ما أصاب الأمة اليوم على أيدي العلمانيين الذين يعتبرون القرآن منهج عبادة فقط لا صلة له بحياة الناس التنظيمية بحيث يحصرون هذا الدين العظيم في زاوية من زوايا الحياة ولا يسمحون له بتجاوزها أبداً، فالدين عندهم عبادة محصورة بالمسجد مع أن الله تعالى يقول: ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[5] فتصور يا أخي بُعد القوم عن منهج الله ووقوعهم تحت وطأة العلمانية الذليلة الدنيئة والله المستعان على ما يصفون.

وبعد:

فلن يصلح هذه الأمة إلا ما أصلح أولها وما صلح أولها إلا بالسير على

---

(١) سورة الإسراء.
(٢) سورة الحجرات.
(٣) سورة الحشر.
(٤) سورة المائدة.
(٥) سورة البقرة.

منهج كتاب ربها ويأبى الله إلا أن يختلط الحابل بالنابل حتى تعود إلى كتاب ربها وخالقها تلاوة وتفهماً وتطبيقاً في كل صغيرة وكبيرة من أمرها فقد تكفل الله بالسعادة في الدنيا والآخرة لمن سار على طريق القرآن ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[1] كما توعد المعرض عنه بالمعيشة الضنك في الدنيا وأن يحشر يوم القيامة أعمى بسبب إعراضه عن هذا المنهج العظيم، كما أخبر سبحانه أن هذا القرآن يهدي لأقوم حياة وأفضل طريق ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[2] فالسعادة لا تدرك إلا في ظلال القرآن. السعادة الحقيقة ليس المتاع فحسب الذي يتمتع به الآن الكفار أكثر من المؤمنين بل حتى البهائم إنها سعادة الإيمان ولذته ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾[3]. وبعد ألم يأن لهذا العالم أن يتراجع؟

وأخيراً نقول ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[4] ألم يفكر هذا العالم بالعودة إلى القرآن بعد هذه النقلة البعيدة عن كتاب الله فيعود من منتصف الطريق إلى ربه يحكم كتابه في كل صغيرة وكبيرة ولا يبغي به بدلاً ولا يرغب عنه فقد أصلح الله به أمه طيلة المدة التي عاشها العالم الإسلامي منذ بعثة الرسول ﷺ إلى يومنا هذا وبمقدار بعد الأمة عن منهجها الأصيل يكون نصيبها من التخلف والرجعية، لقد آن الأوان، ألم يأن لحكام العالم الإسلامي أن يجعلوه دستور حياتهم العامة والخاصة ويقودوا الشعوب بشرع الله فإنها لا تقاد إلا بذلك وكم تتمرد هذه الشعوب ويعجز القادة عن ضبط الأمور بسبب هذا الإعراض الذريع عن القرآن وحينما يعود القادة إلى شرع الله سبحانه تستجيب لهم الشعوب طواعية لحكم الله أما

---

(١) سورة طه.
(٢) سورة الإسراء.
(٣) سورة النحل.
(٤) سورة الحديد.

حكمهم بقوة الحديد والنار والطغيان والكبرياء فغير ممكن أبداً، ولو كانت قوة الحديد والنار تطوع الأمم لما عجزت روسيا عن أفغانستان فقد سلطت عليها إنتاجها وأسلحتها فلم تكسب شيئاً من دينها، لأن قوة الإيمان أقوى من قوة الحديد والنار، وأما حكم الشعوب بالترف والفساد والأفلام وترضيتهم بهذه الأمور فغير ممكن لأن الأمم ذات فطرة سليمة موجودة في الداخل وسوف يستيقظ هذا الإنسان في ساعة من ليل أو نهار رافضاً كل المغريات والملهيات، إذاً هذه الأمة لا تنقاد إلا بالدين، ولا تخضع إلا لقائد رباني يقودها بشرع الله سبحانه فتستجيب له طوعاً وخضوعاً وطاعة لله سبحانه وتعالى.

القرآن الكريم وأثره في نشر اللغة العربية:

نحن لا نشك في فضل اللغة العربية وأهميتها في انتشار الإسلام فهي لغة القرآن الكريم كما قال سبحانه ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾[١] ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾[٢] فلقد اختار الله سبحانه العرب من بين شعوب العالم ليكون القرآن بلغتهم وهذا في الحقيقة شرف عظيم لهم ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾[٣] ونزول القرآن بلغة العرب يعني أهمية هذه الأمة وعظم مسئوليتها في نشر الإسلام في أصقاع العالم كما أنها لغة الرسول ﷺ حيث إن سنة الله تعالى في خلقه ألا يبعث رسولاً إلا بلسان قومه ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾[٤] أما آثار اللغة العربية في نشر الإسلام فذلك واضح حيث إن القرآن باللغة العربية ولا يمكن لأحد أن يطلع على أسرار هذا الدين إلا من خلال اللغة العربية حيث إن للغة العربية قواعد لا تؤخذ من لغة أخرى كالاستعارة

---

(١) سورة الشعراء.

(٢) سورة يوسف.

(٣) سورة الزخرف.

(٤) سورة إبراهيم.

والمجاز والكناية وغير ذلك ولذلك يستحيل ترجمة القرآن ترجمة حرفية وكل التراجم الموجودة والممكنة تراجم معنوية فقط لاستحالة الترجمة اللفظية لأنها سوف تحيل الكلمات عن معانيها خصوصاً الكلمات ذات المجاز والكناية، والقرآن حينئذ يكون له الفضل الأكبر في نشر اللغة العربية لذلك نجد أن الشعوب المتمسكة بإسلامها تحافظ على اللغة العربية بمقدار حبها للإسلام ونجد في هذه الشعوب رجالاً نذروا حياتهم لنشر اللغة العربية في هذه المناطق كدولة باكستان المسلمة التي يعتز سكانها بتعلم اللغة العربية ويعتبرونها مفتاح العلوم الإسلامية وهي حقيقة كذلك فلا يمكن استغلال كنوز الإسلام وفهم تعاليمه حقيقة إلا من خلال هذه اللغة الواسعة. وفي اعتقادي وتقديري أن دولة باكستان تسير إلى حياة أفضل في ظل هذه اللغة الكريمة لا سيما وأن جامعاتها تحتضن أقساماً خاصة تهتم بهذه اللغة وفي مقدمتها جامعة البنجاب التي أعتز بالانتساب إليها ففيها قسم كبير للتخصص بلغة القرآن ولا أنسى أخي وأستاذي الدكتور ظهور أحمد أظهر حفظه الله رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة الذي نذر حياته كلها لهذا الأمر كتابة ومحاضرات يطالب فيها الشعب الباكستاني الكريم بمزيد من هذا الاتجاه المبارك، والعجيب أن هذه الجهود وهي في دولة غير عربية تقابلها دعايات أخرى مضادة في بلاد العرب، تحط من شأن اللغة العربية فهناك دعوة إلى العامية ودعوة إلى الشعر الحر كما يقولون وهناك تعلق بحضارات بعيدة عن الإسلام واللغة من أبناء جلدتنا ومن يتكلمون بلغتنا والإسلام براء منهم ومن تصرفاتهم الهوجاء فهم يخربون بيوتهم بأيديهم وما يدريك ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾[1] وبالرغم من هذه الحملة الشعواء على الإسلام من خلال محاربة لغة الضاد، فالإسلام دين الله سبحانه لن يضره حقد الحاقدين ولا تربص المتربصين فقد مرت به مراحل أقسى بكثير

---

(١) سورة الأنعام.

من هذه المرحلة العصيبة وما تأثر الإسلام، فقد تكفل الله بحمايته، وحماية لغته، فقد حاول الاستعمار طمس اللغة العربية في الجزائر لمدة مائة وثلاثين سنة ثم خرج الاستعمار والجزائريون لم تتأثر لغتهم بل هم من أكثر شعوب العالم تمسكاً بها وحرصاً عليها ويكفي ما نسمع من أخبارهم، إذاً نحن ننتظر اليوم الذي تشرق فيه شمس اللغة العربية إن شاء الله في كل أرجاء المعمورة تبعاً لانتشار القرآن وحينئذٍ تنقلب المعايير فيأتي شباب الشرق والغرب إلى بلاد المسلمين يتعلمون اللغة العربية بدل هذا الضعف الذريع في شخصية الأمة الإسلامية الذي لا يعتبر الرجل مثقفاً حتى يعرف الرطانة الأجنبية ليأمن مكرهم كما يقول لكنه واقع حقيقة في مكرهم، لكن ذلك يحتاج إلى جهد لإظهار مجد الإسلام وما تؤديه اللغة العربية من دور فعال في سبيل حماية البشرية من أفكار منحرفة، وشباب الأمة العربية هم أول مسئول عن هذا الجانب المهم حينما يعرفون الناس في العالم حاجتهم إلى لغة القرآن الكريم بدل أن يشعروا الأمم بضعفهم أمام رطانة الأجانب الكفار التي صارت اليوم إجبارية لكل فرد من أفراد هذا العالم، إن ضعف الشخصية الإسلامية هو الذي جعل اللغة العربية مغمورة مطمورة في أرضها كما صارت لغة العرب أنفسهم معرضة للحن والتكسير مخلخلة التركيب والله المستعان. ولنا أمل وطيد في الله ثم في هذه الصحوة الإسلامية المباركة التي سوف ينتشر الإسلام على يدها إن شاء الله ومن ثم تنتشر لغته معه، لأن هذا العالم لا يمكن أن يفهم هذا الدين إلا بلغته وبلسان قومه.

* * *

الباب الأول

- علاقة الآباء بالأبناء والعكس
- حقوق ذوي الأرحام.
- خطر العقوق والقطيعة
- المواريث وتوزيعها حسب القرابة
- الغرامات التي يتحملها الأقارب بسبب القرابة

الباب الأول

في صلة الرحم
وفيه خمسة فصول

مقدمة:

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان مدنيًّا بالطبع والفرد جزء لا يتجزأ من الأسرة والأسرة جزء من المجتمع لا ينفصل الفرد بفطرته البشرية عن أصوله وفروعه وبمقدارها يكون له نصيب! تزيد هذه العاطفة في ذهن الإنسان وبمقدار بعده عن هذا الأصل تضعف العاطفة حتى إنك لتلاحظ تغلب بعض العواطف الحيوانية على عاطفة الإنسان حينما تسيطر عليه المادية المطلقة. فمثلاً في بعض المجتمعات الغربية التي انغمست في الرزيلة وتمزقت فيها الأسرة لا تكاد تجد أي عاطفة بين الأب والابن أو البنت وهذا يتميز في أمور: أهمها تكليف الولد وحتى البنت بنفقته الخاصة على نفسه في بيت أبيه وأمه حينما يبلغ السن القانون ثماني عشرة سنة، حتى أن البنت في هذا السن تلزم بالخروج من البيت لتختار لها سكناً خاصًّا، وهذا كثيراً ما يكون على حساب شرفها وكرامتها، حينما تعجز عن الحصول على النفقة بطريقة شريفة، أو حينما تسكن بعيداً عن أهلها.

أمر آخر يلاحظ ضعف هذه العاطفة الفطرية حينما يتم اللقاء بين أفراد الأسرة بعد غيبة طويلة بين الأب والابن، بل حتى بين الأم والابن أو البنت،

بالرغم من شدة هذه العاطفة بين النساء، حيث يلاحظ برود عاطفي في المقابلة ولا تجد شيئاً من الحرارة العاطفية عند هذا اللقاء، فلا يعدو إشارة باليد أو هزًّا للرأس، وقد حدثني أحد رجال الثقافة الأوربيين (إنجليزي الجنسية) اعتنق الإسلام، وهو أستاذ بجامعة لندن، فسألته ما الذي دفعك إلى الإسلام، فذكر لي قصة تأثره حينما عاش مدة من الزمن بالكويت مع أسرة مسلمة كان للعاطفة الإسلامية الأثر الوحيد في استقامته ـ بعد توفيق الله سبحانه ـ يقول كنت أبحث عن موقع هذه العاطفة التي أحن إليها ولم أجدها في حياتي، حتى سكنت بالكويت فرأيت الأبناء في كل صباح يقبلون رؤوس آبائهم وأمهاتهم، فوجدت ضالتي. فكنت ألتقي بأمي وأبي بعد غيبة طويلة تستغرق سنوات ألتقي بهم في المقهى ولا تزيد تحيتنا عن الإشارة باليد أو الرأس بسرعة خاطفة، هذا بعد الغيبة الطويلة.

أسباب ضعف هذه العاطفة عند غير المسلمين:

لعل من أهم أسباب ضعفها أمور أهمها:

١ ــ ضعف الرابطة الزوجية، فهي لا تقوم غالباً على الميثاق الغليظ الذي ذكره الله سبحانه. أما اللقاء بدافع شهوة جنسية ربما ينتهي بعد سنوات بالعقد بقدر ما تسير الأمور.

٢ ــ الرابطة في تلك العلاقات الزوجية جنسية بحتة، لا تمت إلى المودة والرحمة بصلة، أما في الإسلام فالعلاقة ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[1]، وهذا يؤثر على الناشئة.

٣ ــ الطفل قد لا تعرفه أمه بعد الوضع، فهو غالباً آخر عهدها به حتى يكبر ويصلب عوده، فالحاضنه تستلم هذا الطفل منذ ساعة الولادة، ثم ينتقل إلى رياض الأطفال، أو إلى الملاجىء، ولربما لا يمس هذا الطفل حضن

(١) سورة الروم.

والدته ولا يذوق حليبها الدافىء الحلو، ولذلك كادت أن تنجح الشيوعية من هذا الجانب حينما عزلت الأطفال عن آبائهم ليكونوا أبناءاً للدولة فقط، والرجل والمرأة وسيلة تفريخ فقط لاحظ لهما في الأطفال إلا تلك الشهوة حينما فرغت من الرجل للمرأة.

٤ ــ إضافة إلى عظمة هذا الدين حينما نمّى هذه العاطفة وأولاها العناية التامة، ثم حولها إلى بر وصلة واجبة الرعاية بين المسلمين، وأمر بحفظها ردًّا للجميل، وتمشياً مع الفطرة البشرية التي فطر الله الناس عليها، فجاءت وفق حكمة ربانية تختلف تماماً عن أي منهج آخر، لذلك لا تعجب يا أخي حينما ترى في المذهب الهندوكي تفضيل البقرة على الأم، كما هو مذهب نهرو وقومه حينما يقارن لك بين البقرة والأم يعتبر البقرة أقرب من الأم.

إذاً الإسلام يهتم بالأسرة اهتماماً بالغاً، ويفرض صلة الرحم ويعتبر حق الوالدين بعد حقه سبحانه مباشرة ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾[1] ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾[2]، إذاً محبة الوالدين والعشيرة أمر واجب مقدس موافق للفطرة البشرية التي لا يستطيع البشر التخلي عنها، إلا أنها تضعف وتقوى مع ضعف الإيمان وقوته.

---

(١) سورة لقمان.

(٢) سورة الإسراء.

الفصل الأول

علاقة الآباء بالأبناء والعكس

تقوم هذه العلاقة على أقوى رابطة بعد حقه سبحانه مباشرة، وهي كما تقوم على العاطفة تقوم أيضاً على الواجب الكبير، فبر الوالدين من أوجب الواجبات على المسلم، فلا يقدم بعد حق الله أحداً على والديه أبداً، وإذا لم يرع هذه الصلة الوثيقة فقد يقيض الله له أولاداً يعقونه، كما جاء في الأثر (بروا آباءكم تبركم أبناؤكم)[١] وهذا مشاهد في حياة الأجيال لذلك تقدم على الجهاد الفرض (حينما استأذن رجل الرسول ﷺ في الجهاد فقال: «أحي والداك» قال نعم قال: «ففيهما فجاهد»[٢] وأكبر الكبائر كما في حديث بكرة في الصحيحين (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً الإشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور)[٣] وهذا يرجع إلى الأصل ورد الجميل، فالأب والأم هما السبب في وجود هذا الإنسان على هذه الحياة، فعلى الابن أن يرعى هذا الأمر رعاية كاملة وأن يحسن إليهما وهذا هو البر.

الأبوان الكافران:

ولما كانت الأبوة تجاه البنوة رابطة متينة فقد حفظها القرآن الكريم،

---

(١) الطبراني في الأوسط. ضعفه الألباني.

(٢) متفق عليه. البخاري/ ك الجهاد باب الجهاد بإذن الأبوين. مسلم/ في البر والصلة.

(٣) في الصحيحين: البخاري/ ك شهادات باب ما قيل في شهادة الزور. مسلم/ في الأيمان باب الكبائر وأكبرها.

حتى لو كان الأبوان كافرين، حتى لو طالبا هذا الولد بالكفر بالله إلا أنه لا يوافقهما على هذا الأمر، لذلك يقول سبحانه: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[1] وقصة سعد بن أبي وقاص مشهورة حينما رفضت أمه أن يسلم سعد وصار يتودد إليها حينما أضربت عن الطعام بسبب إسلامه، ثم تغلب إيمانه على فطرته البشرية فقال يا أماه إن شئتي كلي وإن شئتي فلا تأكلي والله لو كانت لك مائة نفس خرجت كل واحدة بعد الأخرى ما تركت ديني، فأكلت وأنزل الله سبحانه أول سورة العنكبوت ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾[2] إلى آخر الآيات ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾[3]، لذا نرى كيف توفق بين حق الله وحق الوالدين حينما يتعارضان فيتقدم حقه سبحانه، وقد أمر الرسول ﷺ المرأة أن تصل أمها وهي راغبة ـ أي كافرة ـ لكن حينما يتمرد الأب أو الأم على دين الله تعالى فإن الابن لا يعترف بهذه الصلة، لذا رأينا في تاريخ الإسلام من يحاول قتل أبيه حينما يحارب الإسلام، كما كان من عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، فقد طلب عبد الله الأول من رسول الله أن يأذن له بقتل أبيه لما آذى الثاني الرسول ﷺ وقال لإن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، أمسك بأبيه وقال والله لا تدخل المدينة حتى تقول إنك أنت الأذل ورسول الله ﷺ الأعز، ومن هنا يتبين لنا أن هذه الرابطة تخضع للدين وتبقى إذا فقد في حدود محدودة، أما حينما يكون الوالدان مسلمين فالحق يعظم كثيراً، فقد أمر رسول الله ﷺ

---

(١) سورة لقمان.

(٢) سورة العنكبوت.

(٣) سورة العنكبوت.

بطاعة الوالدين وإن أمر الولد أن يخرج من أهله وماله، كما أن الأب يملك مال ولده فالابن وماله لأبيه، لذلك لم يذكر الله عز وجل بيت الولد حينما ذكر الأكل من بيوت الأقارب في قوله ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ . . الآية﴾[1] لم يذكر بيوت الأبناء لأنها ملك للآباء.

* * *

(١) سورة النور.

الفصل الثاني

حقوق ذوي الأرحام

الرحم هو الوعاء الذي ينشأ فيه الطفل في بطن أمه، وَسمِّي ذوو الأرحام بهذا الاسم لأنهم يبدأون من رحم واحدة ويتفرقون منها، وذوو الأرحام هم الأقارب بهذا المعنى العام، يقول الله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾[1] هذا من الناحية اللغوية والشرعية.

أما من الناحية الاصطلاحية الفرضية فهم الأقارب غير ذوي الأنساب وغير العصبة، والمقصود هنا المعنى العام أي سائر الأقارب، وهو بهذا المعنى العام يدخل فيه الوالدان.

صلة الرحم واجبة، بحيث يقدم المسلم المحبة والولاء والإحسان والصلة لأقاربه وذوي رحمه، كما يلتزم بالنفقة لذوي رحمه حسب هذه القرابة والميراث، يقول سبحانه ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾[2] وقد لعن الله تعالى من يقطع رحمه ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾[3] ومعنى القطيعة إفساد العلاقة معهم والتنكر لهم وإساءة المعاملة والبخل عليهم، وذوو

---

(١) سورة الأنفال.

(٢) سورة البقرة.

(٣) سورة محمد ﷺ.

وهذه الصلة يلتزم بها المسلم مع أقاربه القاطعين للرحم، والمسلم يصل من وصله ومن قطعه، بل يتأكد مع الثاني وهذا هو الصلة الحقيقية لأنها لا تكون إلا عند القطيعة، أما صلة من يصل فيسمى مكافأة كما جاء في الحديث: (ليس الواصل بالمكافيء ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها)[1]. (جاء رجل فقال يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني وأحسن إليهم ويسيئون إلي فقال ﷺ «إن كانوا كما قلت فكأنما تسفهم المل ولا يزال معك من الله حفيظ ما دمت على ذلك[2] و «الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله»[3]، والرحم مشتقة من اسم الرحمٰن سبحانه، وقد قرن الله سبحانه تقواها بتقواه سبحانه ومعنى تقواها عدم قطيعتها ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾[4]، أي واتقوا الأرحام فلا تقطعوها وهذا ما دلت عليه قراءة النصب (الأرحامَ)، خلافاً لقراءة الجر (والأرحامِ) فيكون معطوفاً على ضمير الجلالة به والأرحام حيث كانوا يقولون في الجاهلية أسألك بالله والرحم.

* * *

---

(١) البخاري: ك الأدب باب ليس الواصل بالمكافيء.

(٢) رواه مسلم.

(٣) متفق عليه.

(٤) سورة النساء.

الفصل الثالث

خطر العقوق والقطيعة

لقد حرم الله هذين الأمرين ففي الحديث (لا يدخل الجنة عاق)[1] وهذا من أعظم الوعيد، لأن حرمان الجنة يعني تعظيم هذا الذنب، لأن الجنة في الأصل لا تحرم إلا على الكافر والمشرك، ولأن النفوس فطرت على حب من أحسن إليها وليس هناك إحسان من هؤلاء الناس أعظم من إحسان الوالد إلى ولده، فقد كان سبباً في وجوده وقد بذلا جهداً كبيراً في تربيته وسعادته والنفقة عليه، يسهران الليل كله من أجل راحته وعلاجه، فإذا قابل هذا الإحسان بإساءة كان ظالماً لنفسه ولوالديه، غير مؤدي لهذا الحق العظيم وغير مكافيء لهما، والله تعالى يقول: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾[2] والقطيعة إضافة إلى أنها إثم عظيم عند الله سبحانه هي أيضاً ضعف في الفطرة البشرية والطبيعة السليمة، فإن النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها، فالعقوق والقطيعة فساد في الفطرة. وحتى الحيوان غير المكلف يشعر بهذه الرابطة الفطرية فضلاً عن الإنسان العاقل ذو الدين والعقل والتفكير. أما القطيعة ـ تضييع حق الرحم من أنواع الأقارب مثل الأخوة والأعمام وأبنائهم وبقية الأقارب والعشيرة، فهؤلاء كلهم لهم حق واجب

---

(١) النسائي. وصححه الألباني ولفظه (لا يدخل الجنة منان ولا عاق و لا مدمن خمر).

(٢) سورة الرحمن.

الرعاية والحفظ لا يجوز التفريط به ما لم يتنافَ مع أمر من أوامر الله سبحانه، مثل هجر أصحاب المعاصي والبدع والكفرة المخالفين، لذلك نجد أن هذا الحق يلغي وإن بقى أصل القرابة نسباً فقط، لذلك نجد أن الله سبحانه ينفي أهلية ابن نوح الكافر لنوح ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾[1] لذا نجد أن هذا الدين يبعد الأقارب ويقرب الأباعد وفقاً لهذا المنهج، فيقرب بلالاً وصهيباً وسلمان الفارسي بالرغم من بعدهم من رسول الله ﷺ ويبعد الأقارب من أهله وذويه، فقد جاء القرآن يسب أبا لهب ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ ﴾[2] ويثني على صهيب الرومي فيتنزل فيه ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾[3] كما أن صلة الرحم لا تكون على حساب الغير من الجور والظلم للآخرين، فقد أمر سبحانه بالعدل بين الناس ولا يجوز الجور مع الأباعد لمصلحة الأقارب ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾[4] كما لا حق للقرابة في سبيل الدفاع عن المجرم فلا يجوز إيواء المحدث فقد لعن رسول الله ﷺ (من آوى محدثاً)[5] ويقول الله سبحانه في الدفاع عن المجرم بسبب قرابة أو غيرها ﴿ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ۝ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[6] فلربما تأخذ الحمية قوماً يدافعون عن مجرم تربطهم به قرابة بدافع المحبة وهذا عين الظلم، وربما يلصقون التهمة بغير المجرم كما فعل

---

(١) سورة هود.
(٢) سورة تبت.
(٣) سورة البقرة الآية ٢٠٧.
(٤) سورة الأنعام.
(٥) في الصحيحين.
(٦) سورة النساء.

آل أبيرق في الدفاع عن قريبهم وهذا يكثر حينما يضعف الإيمان، فحق القرابة واجب عظيم لكنه لا يكون على حساب الدين وحقوق الآخرين، ولا على حساب العدل بين الناس ولا على حساب الإحداث وإيواء المحدثين، فمن آوى محدثاً فعليه اللعنة ولو كان من أقاربه وإن من حقوق القرابة إسداء النصيحة لهم وتوجيههم وتخويفهم بالله سبحانه وتعالى فقد أمر الله رسوله ﷺ بإنذار عشيرته قبل غيرهم فقال سبحانه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[1] والرسول ﷺ أول ما بلغ بلغ عشيرته ثم قال لهم لا أغني عنكم من الله شيئاً وإذا تولى أمراً من أمور المسلمين فلا يجوز له أن يبرهم بولاية دون كفاءة منهم، فإذا كان في المسلمين خير منهم فقد خان هذه الأمانة الملقاة على عاتقه، وجاء الحديث بالوعيد على من ولي ذا قرابة محاباة وفيهم من هو خير منه لا يقبل الله تعالى منه صرفاً ولا عدلاً. انظر يا أخي إلى حياة الناس اليوم وهي على طرفي النقيض من الإفراط والتفريط والإسلام دين وسط بين هذين الطرفين وليس مسئولا عن أخطاء الناس وتصرفاتهم.

* * *

---

(١) سورة الشعراء الآية ٢١٤.

الفصل الرابع
المواريث وتوزيعها حسب القرابة

حكمة الله سبحانه وتعالى واضحة في تشريعه وقسمته، وتلاحظ هذه الحكمة جلية في قسمة المواريث الموافقة لحكمة ربانية عظيمة، يقول الله تعالى عنها: ﴿ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[1] وقد اعترض أعداء الإسلام على هذه القسمة الربانية الحكيمة، كيف يفرق الإسلام بين الذكر والأنثى ليعطي الذكر مثل حظ الأنثيين جهلاً من بعضهم وغفلة عن الحكمة وجرأة على الإسلام وحقداً عليه، وكم تعاني الأمة الإسلامية من هذا النوع من المارقين من أبناء الجلدة الذين يضايقهم الإسلام في تشريعه الحكيم، لذلك نهجت القوانين الوضعية منهجاً بعيداً عن المنهج الرباني في توزيع المواريث، فساوت بين الذكر والأنثى متناسية الفوارق البعيدة والتبعات المالية التي يتحملها الذكور دون الإناث، مثل العقل والديات ومهور الزواج والنفقات التي يقوم بها الذكر دون الأنثى، والمرأة لا تطالب بشيء من ذلك أبداً بحيث يلتزم الزوج والأب الوارث بالنفقة عليها إجباريًّا، وهي لا تلتزم بشيء من ذلك فلو عملنا حساباً لما يأخذه أخ وأخت ورثا أباهما فأخذ الأخ ثلثي الميراث وأخذت هي الثلث لرأينا فارقاً في الأصل، لكن لو حسبنا ما صرفه الأخ بعد ذلك من مهر زواج وديات تلزم العصبة ونفقات

---

(١) سورة الذاريات.

في مدة وجيزة لرأينا أن ذلك يستهلك كل ما حصل عليه، وهكذا في بقية الورثة الزوج مع الزوجة، الأب مع الأم، لأن هذه القاعدة تسير مع جل الورثة وليست خاصة بالأبناء وحدهم، والعجيب أن هذه القوانين لربما تلغي حق الولد حينما يبلغ سناً معينة، مثل سن ثماني عشرة علماً أن هذه هي السن الحساسة من حاجة الأبناء إلى المال من زواج ونفقة، وبناءاً على ذلك فتعتبر قسمة المال بعد الموت هي الحكمة العظيمة، ولا تصلح الحياة إلا بها وإذا كان يرجح فيها جانب الأبناء على غيرهم فذلك يعني تسلسل هذا المال صاغراً عن كابر بنظام رتيب يكفل سعادة الأجيال وانتظام سير هذا المال بحيث ينتقل تلقائيًّا إلى الذرية مباشرة، إن كانت هناك فروع وحينما تفقد الأصول والفروع تكون الكلالة وهي الميت ضعيف النسب، من الكل بمعنى الضعف فينتقل إلى الحواشي يقول الله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ... الآية﴾[1].

* * *

---

(١) سورة النساء.

الفصل الخامس

الغرامات التي يتحملها الأقارب بسبب القرابة وهي العقل والديات

وسميت عقلاً لأن أقارب الجاني يطالبون الذين بهذه الحمالة المادية الكبيرة وهي الدية، سوف يهتمون بقريبهم فيعقلونه، أي يكونون له كالعقال بحيث يراقبون تصرفاته حتى لا يجني عليهم مرة أخرى فيحملهم حمالة ثقيلة.

أو من عقل الإبل حيث إنها أصل الدية، وأقارب الجاني يعقلون الإبل بفناء أولياء المجني عليه دية لهذه الجناية، والعصبة الذكور يتحملون هذه الغرامة وهي دية القتل الخطأ وشبه العمد، والخطأ أن يريد فعل شيء مباح فيؤدي إلى قتل إنسان معصوم الدم، وشبه العمد أن يقصد معصوماً بما لا يقتل غالباً مثل العصا، وهذه الدية الخطأ يتحملها العصبة الذكور دون الإناث كذلك شبه العمد يتحملها العصبة الذكور دون الإناث، والقسامة أن يوجد مقتول في بلد ما ويكون قاتله مجهولاً، وحل هذه المشكلة أن يكلف العصبة من البلد المتهمة من عصبة المتهم بخمسين يميناً بأن قريبهم هذا لم يقم بجريمة القتل، وتوزع هذه الأيمان حسب قرابتهم وميراثهم من المتهم، يضاف إلى ذلك النفقات اللازمة من الوارث إلى المورث، وهو المراد بقوله سبحانه ﴿ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾[1] حيث يلتزم كل من يرث هذا

---

(١) سورة البقرة.

المعسر أن ينفق عليه حسب الميراث الذي يستحقه منه بعد الموت، كما يضاف أيضاً ما يلزم به الأدب والإحسان من الأقارب لبعضهم، وهذا قد لا يكون واجباً لكنه من حق القرابة وصلة الرحم والإحسان بشيء من المال.

الباب الثاني

- مكانة الزواج في الإسلام
- في تفضيل الذكور على الإناث
- عشرة النساء
- الإصلاح بين الزوجين وحل المشاكل الزوجية
- إنهاء العلاقات الزوجية
- تعدد الزوجات

الباب الثاني

العلاقات الزوجية

وفيه ستة فصول

مقدمة:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾[2] جرت حكمة الله سبحانه وتعالى لعمارة هذه الحياة وفق منهج رباني كريم طاهر أن يخلق الذكر والأنثى لعمارة هذه الحياة ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[3] فكانت سنة الزواج حتمية في عمارة الحياة وصيانة الجنس البشري من الضياع، وحمايته من الفساد غير المنضبط، بحيث يضيع الإنسان وتنتشر الأمراض التي تفني البشرية بسبب الزنا وعدم توزيع الشهوة توزيعاً محترماً، كما هي الحياة البهيمية في العالم المنحرف عن منهج الله سبحانه، هو ذلك المجتمع الحيواني التائه في مهاوي الوجود الذي ينحرف درجة فتهوي قوانينه وراءه درجتين وهكذا، وهذه هي سنة القوانين البشرية البعيدة عن منهج الله سبحانه، تتخلف وتدنو من الهمجية بمقدار بعدها عن دين الله تعالى.

---

(١) سورة الروم.

(٢) سورة الأعراف.

(٣) سورة البقرة.

أما الإسلام: فهو دين فطري يواكب حاجة الإنسان وميوله وعواطفه البشرية ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ ﴾[1] لذلك شرع عز وجل الزواج، وصار سنة من سنن المرسلين فمن رغب عنه فليس من رسوله ﷺ وحرم الإسلام التبتل وترك الزواج، كما في الحديث (عن الثلاثة الذين سألوا إحدى زوجاته ﷺ عن عمله في السر فقال أحدهم أنا لا أتزوج النساء. . . الحديث)[2] فلما علم بذلك الرسول ﷺ قال: «وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»، وكذلك المرسلون صلى الله عليهم وسلم كان الزواج منهجهم ويرفضون التبتل حتى لو كان ذلك انقطاعاً للعبادة والتنسك، فكيف بمن يرغب عنه تهرباً عن تحمل المسئولية ليقول العشق خير من الزواج، كما هي الجملة السائدة عند المارقين (إذا كان اللبن يباع فلماذا أشتري بقرة). وهؤلاء هم الذي أفسدوا على الناس حياتهم ونشروا الأمراض الخطيرة، من الزهري والسيلان والإيدز والهيربس إلى غير ذلك، تحقيقاً لخبر الرسول ﷺ: «لم تظهر الفاحشة في قوم قط إلا فشا فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم»[3] وهذه الأوجاع الآن تسابق الشمس على مطالعها بالرغم من التقدم الطبي والعقاقير والخدمات الصحية المتطورة. أما الزواج حقيقة فهو صمام الأمان لأخلاق الأمة، جعله الله تعالى عشًّا طاهر النمو، هذا الإنسان الكريم الذي كرمه وحمله في البر والبحر ورزقه من الطيبات وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً، ومنه يختلف الإنسان عن الحيوان الذي لا يرتبط بنسب ولا أب ولا أم ولا نظام، كما تختلف الحياة في ظل الإسلام عن الأنظمة الشيوعية الفاسدة، التي تعتبر المرأة جهاز تفريخ ينتج الأطفال ليكونوا أبناء الدولة خلافاً للفطرة البشرية، وقد سقط هذا النظام وكفى الله المؤمنين القتال. لكن

---

(١) سورة آل عمران.

(٢) في الصحيحين: البخاري ومسلم وكلاهما في كتاب النكاح.

(٣) ابن ماجه: كتاب الفتن باب العقوبات.

ما زال في الساحة متحللون ومارقون وأصحاب شهوات في قلوبهم مرض، يبحثون عن الفرصة التي يصطادون بها المرأة في الماء العكر، وما زالت تلك الرواسب من بقايا الشيوعية الفرويدية[1] تتحكم في أذهانهم المنحرفة، فهم يريدون التخلص من قيود الزواج ويكتفون بالمتعة التي لا يرتبطون من خلالها بزوجة معينة، ولا بأسرة تحتاج إلى رعاية ولا أولاد يحتاجون إلى نفقة إلزامية تكلفهم جهداً وتعباً، فهم يريدون تفريغ الطاقة الشهوانية ولو على حساب الدين والكرامة وحق المرأة المسكينة، والعجيب أن هذه التصرفات تصاحبها ضجة كبرى حقوق المرأة وحرية المرأة، قاتلهم الله أن يؤفكون.

* * *

---

(١) نسبة إلى فرويد الذي يفسر كل شيء بالجنس.

الفصل الأول
مكانة الزواج في الإسلام

يعتبر الزواج هو الحصن المنيع لحماية المجتمع المسلم والفرد المسلم من السقوط في هاوية الدمار لذلك نجد أن الله سبحانه وتعالى يسمي المتزوج محصناً من الحصانة لأن المتزوج كأنه دخل في حصن منيع يمنعه من الهلاك وكراكب الحصان في المعركة يحتمي به من القتل يقول الله تعالى عن المرأة المتزوجة ﴿ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾[1] أي المتزوجات ويقول الرسول ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج»[2] كما نلاحظ في سورة النور التي عالجت مشكلة الأخلاق والفساد الخلقي بعدة عوامل وسدت كل الطرق التي توصل إلى الفاحشة سواء في إقامة الحدود ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ﴾[3]، أو في حد القذف الذي يعتبر تيسيراً للفاحشة حينما يكثر الحديث عنها بلا رادع لها ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً ﴾[4]. أو بالنسبة لحماية البيوت وحرية المأوى ومنع الاختلاط في قوله سبحانه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ

(١) سورة النساء.
(٢) في الصحيحين.
(٣) سورة النور.
(٤) سورة النور.

﴿تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[1]. أو بالنسبة لتحريم النظر الحرام في قوله سبحانه ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾، ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ﴾[2] أو في تحريم التبرج وإبداء الزينة في قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾[3]، وبعد هذا الاحتياط الكبير وسد الطرق كلها يأتي دور الحصانة والزواج ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾[4]. هذه هي حقيقة الزواج في الإسلام قطع لدابر الفاحشة واستهلاك للطاقة البشرية التي ركب الله عليها الإنسان، فالإسلام يعترف بها ولا يتجاهلها ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ لكنه يوجهها الوجهة السليمة ويصرفها المصرف اللائق بها، حماية للمجتمع من الفساد والانهيار والأمراض، وعمارة لهذه الحياة، وبقاء للبشرية لحكمة العبادة والاستخلاف في الأرض.

والزواج في الإسلام يعني التقاء فردين من أفراد المجتمع للتعاون على تكاليف الحياة وأعبائها والتضامن على تأسيس الأسرة الكريمة ذات الأفراد الصالحين بحيث تربيهم الأيدي الحانية المخلصة وفق المنهج الذي جاء به المرسلون من عند الله سبحانه، وحماية الفطرة التي فطر الله الناس عليها ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾[5] كما أن هذه الرابطة تقوم أيضاً على التعاون الجسدي والمالي للنفقة على الأسرة بالرغم من أن الزوج هو المطالب بهذه النفقة والبحث عن الرزق الحلال ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[6] فالبحث عن العيش هو في الأصل واجب الرجل،

---

(١) سورة النور.
(٢) سورة النور.
(٣) سورة النور.
(٤) سورة النور.
(٥) سورة الروم.
(٦) سورة النساء.

لذلك نجد أن الله سبحانه حينما حذر آدم وحواء من الأكل من الشجرة في الجنة أخبر أن الأكل سوف يسبب خروجهما من الجنة ثم شقاء آدم وحده في طلب العيش، فحذف الألف ألف التثنية من تشقى قال سبحانه: ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ ﴾[1]. والزواج في الإسلام يعني التقارب بين أسرتين متباعدتين تلتقيان على مائدة الزواج، فتكون رابطة وثيقة بين هاتين الأسرتين فيكون تلاحماً بين أفراد المجتمع المتماسك كما أن فيه ضماناً لأسرة فقيرة أو أرملة أو يتيمة حينما تعيش في ظل ذلك الزوج.

* * *

(١) سورة طه.

الفصل الثاني

في تفضيل الذكور على الإناث

بين الله سبحانه حكمته في نشر البشرية على الأرض حيث تكون العبادة ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1] ووجود البشرية على الأرض وانتشار ذرية آدم يبدأ من خلق الذكر والأنثى بل كل المخلوقات تنشأ من هذا المنشأ بما في ذلك بنو آدم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾[2] وهذا هو البداية الأولى لبني آدم على الأرض. وقد بين الله سبحانه فضله على الأبوين بما يهبه من الذرية على مراحل متباينة متفاضلة:

١ ـ ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا ﴾. وهذه أقل مرتبة.

٢ ـ ﴿ وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾. وهذه هي الثانية أعلى منها.

٣ ـ ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ﴾. وهي أعلى المراتب بالنسبة لرغبة الناس حيث يتنوع النسل إلى ذكور وإناث.

أما ما يقابل هذه المراحل الثلاث فهو العقم ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾[3]. ومن هذا ندرك فضل الذكر على الأنثى والتنويع أفضل الأنواع

(١) سورة الذاريات.

(٢) سورة النساء.

(٣) سورة الشورى.

لأنه يناسب كل الأذواق والرغبات والمصالح، وليس ذلك دليلاً على نقص الأنثى أو مراعاة عادات الجاهلية الذين يكرهون البنات ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾[1]، كما أخبر سبحانه أن بين الرجل والمرأة درجة عالية يقول سبحانه: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[2] أي عالية ويقول: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾[3]، وهذا يدل على فارق بعيد بينهما سواء كان ذلك من كلام الله تعالى أو من كلام امرأة عمران فقد أقره الله سبحانه. أما مسئولية الذكر الرجل فهي كبيرة جدًّا فوق مسئولية الأنثى وهي مسئولية القوامة التي هي تشريف وتكريم من جانب ومسئولية عظيمة من جانب آخر يجب أن يتحملها الرجل دون المرأة يلتزم بها الزوج تجاه زوجته والأب تجاه أولاده وهكذا سائر الرجال بالنسبة للنساء. أشار الله سبحانه إلى مسئولية الرجل بصفة عامة والزوج بصفة خاصة في سورة طه ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾[4] فقد أثبت الخروج لهما جميعاً (يخرجنكما) أما الشقاء وذلك لطلب العيش فقد ألزم به الرجل (فتشقى) حيث حذف ألف التثنية من تشقى ولو كان العمل يطالب به الاثنان لقال فتشقيا للاثنين، وهذا التفضيل لا يعني ميل أحد الأبوين إلى صنف الذكور دون الإناث بل يجب العدل بين الأولاد الذكور والإناث كما أمر الرسول ﷺ بذلك، كما أن الإسلام يساوي بين الذكر والأنثى في أداء الحقوق، فلا بد أن يأخذ كل منهما حقه كاملاً دون ظلم أو شطط، فلا يفضل الذكر ليظلم الأنثى أو يهضم حقًّا من حقوقها فهم سواء في الحقوق لا يظلم أحدهما على حساب الآخر، وكذلك في جزاء الآخرة ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن

---

(١) سورة الشورى.
(٢) سورة البقرة.
(٣) سورة آل عمران.
(٤) سورة طه.

بَعْضٍ﴾[1] ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾[2]، فالحياة الطيبة للجنسين مكفولة بشرط العمل الصالح، فالعمل الصالح لا يضيع لأحد منهما إذا توفرت شروط قبول العمل.

فتنة المساواة:

لقد عجت حياة الناس اليوم بهذه الظاهرة ظاهرة المساواة والمطالبة بها، لماذا يهضمون المرأة حقها ما سر هذا التفضيل؛ لماذا لا نعطيها إلا نصف ميراث الرجل؛ لماذا شهادتها نصف شهادة الرجل؛ لماذا يتسلط الرجال على النساء كل هذا التسلط؛أين الحرية؛أين الحقوق؛لماذا الظلم للنساء؛هذه أسئلة تتكرر على ألسنة المارقين ومن في قلوبهم مرض، والحقيقة أن هذه الأمور التي يتشبث بها هؤلاء الجهلة ليست من حقوقها، فالذي شرع هذه الحقوق هو الله سبحانه وهو الذي يعلم من خلق وما يصلحهم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾[3]. أما ميراث الذكر وزيادته على ميراث الأنثى فلأجل ما يتحمله الرجال دون الإناث من تكاليف النفقة والديات وغيرها، وقد مر ذكره مفصلاً، أما شهادة المرأة فإنها على النصف من شهادة الرجل ولربما لا تقبل في بعض الأحيان، كالجنايات والحدود لضعف شخصيتها أمام الأمور الشديدة، بحيث لا تطيق رؤيتها كالجنايات والحدود، والسر في ذلك والله أعلم تكريم المرأة بحيث لا تطالب دائماً بالمثول أمام المحاكم والقضاة، كما أن هناك سرًّا آخر من وراء ذلك وهو مالدى المرأة من عواطف قد تتغلب على العقل فيؤدي إلى ضياع الشهادة وفوات الحقوق على الناس، كما أنها معرضة للنسيان وهو ما أشار إليه الله

---

(١) سورة آل عمران.

(٢) سورة النحل.

(٣) سورة الملك.

سبحانه ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾[1] والمراد بالضلال هنا النسيان فهي معرضة للنسيان لمشاغلها الكثيرة، أما حقوقها المزعومة فلا يمكن أن يعطيها دين أو نظام أفضل مما أعطاها دين الله سبحانه، أليست محرومة من الميراث قبل الإسلام حتى أنزل سبحانه ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾[2]، هل هناك احترام للمرأة واحتفاظ بحقوقها أعظم من هذا، مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً لقد كانت لا ترث قبل هذه الآية، بل كانت هي تورث فإذا مات الزوج يتسابق أبناؤه من غيرها فأيهم ألقى عليها رداءه فهو أحق بها يملكها ويتصرف فيها حيث يشاء، ماذا بقي بعد ذلك؟ لم يبق إلا ما يسمى بحرية المرأة وأي حرية يقصدها هؤلاء المفسدون في الأرض؟ أعتقد أنها الانفلات التام من كل القيود والضوابط، تخرج متى تشاء ولأي مكان شاءت لا تخضع لنظام الأسرة المسلمة والزوج المسلم والبيت الغيور، لا يسيطر عليها دين ولا نظام ولا قانون، إذاً هي عبودية وليست حرية لأن ذلك على حساب الدين والخلق والفضيلة، بل على حساب مصلحة المرأة والمجتمع، وهذه مرفوضة رفضاً باتاً إن حرية مثل هذه تعتبر عبودية للشهوة والجنس ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾[3] فالعبودية صفة بشرية لا مناص منها فإما أن تكون لله أو لأمر آخر، والباحثون عن الحرية للمرأة في حياة التفلت عن أوامر الله وقيود هذا الدين التي تعتبر ضوابط للنفس البشرية حتى لا تنحدر عن مستواها الرفيع الذي اختاره الله تعالى. هم يقصدون بالحرية فساد المرأة لأن ذلك يعجبهم وهو هدفهم الخسيس، لكنهم لا يستطيعون التصريح بذلك اللهم إلا في بلاد وصلت في انحدارها إلى أسفل

---

(١) سورة البقرة.

(٢) سورة النساء.

(٣) سورة الجاثية.

سافلين، إذاً تفضيل الذكر على الأنثى هو حكم عام لا يتدخل في الحقوق ولا يهضم المرأة شيئاً من حقوقها، كما أنه لا يلغي عمل الأنثى ويهدره في الدنيا والآخرة، وهذا التفضيل فطري يدركه الناس كلهم حينما يرزق بذكر أو أنثى لا سيما وأن الذكر هو عضد الرجل اليمنى مدى الحياة، أما الأنثى فيكون ارتباطها بأسرة أخرى هي وأولادها حينما تبلغ سن الزواج، فتقوى علاقاتها بتلك الأسرة ويبقى فقط لأبويها وذوي أرحامها صلة الرحم والعاطفة الفطرية، وعلى هذا لا يؤدي هذا التفضيل إلى ظلم أو شطط ففي باب العطايا والهدايا هما يستويان دون شطط حتى قال بعض العلماء إن العطية في الحياة لا تكون كالميراث للذكر مثل حظ الأنثيين بل الذكر الأنثى سواء، أما قسمة المواريث فترجع إلى مصالح أخرى تناسب هذا التفضيل، وعلى كل فهذه قسمة الحكيم الخبير ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ ﴾[1]، جاءت هذه الفقرة في الآية بعد تحريم تمني البعض ما فضل الله به البعض الآخر، وهذا التمني يدل على التفضيل لأن التمني يدل على وجود فوارق واضحة.

* * *

(١) سورة النساء.

الفصل الثالث

في عشرة النساء

يقول سبحانه عن هذا الأمر ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾[1]. العلاقة الزوجية تعتبر في نظر الإسلام من أقوى العلاقات الأسرية التي اهتم بها الإسلام إن لم تكن في الدرجة الأولى بعد حق الوالدين، لذلك يقول ﷺ (لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها)[2]، ولكن السجود لا يكون إلا لله سبحانه إلا أن هذا الحديث يدل على تعظيم حق الزوج وقوة العلاقة بين الزوجين، فهي علاقة متينة تبدأ من حسن الاختيار والصدق في اللهجة ثم الصدق في التعامل، وذلك كله أيضاً يرجع إلى الميثاق الغليظ الذي تأخذه المرأة على زوجها في قوله سبحانه ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾[3] وهو عقد النكاح لقوة رابطته، كما أن هذا الدين وضع قيوداً وثيقة بين الزوجين واحتياطات كاملة قبل الدخول، حتى تكون العشرة حسنة بحيث يدخل كل منهما مع الآخر على بصيرة مثل:

١ ــ **النظر إلى المخطوبة**: وهذا أمر حث عليه الشرع الكريم (انظر

---

(١) سورة النساء.

(٢) الترمذي وأحمد والحاكم: انظر صحيح الجامع.

(٣) سورة النساء.

إليها)[1] حتى عده بعض العلماء واجباً، وأقل ما يقال عنه النفل لما يترتب عليه من الرضى، أما الزواج الذي لم تسبق له رؤية فهو معرض للتخلخل، لأن من أهداف الزواج التمتع بجمال المرأة، وشكل الرجل أيضا وهو سبب الوئام والمجتمعات الآن على طرفي النقيض فبعضها لا يعترف بهذه الرؤية أبداً ويعتبر ذلك من باب صيانة المحارم، وهذا خطأ يسبب فساد العشرة الزوجية في بعض الأحيان من أول وهلة ولربما في ساعة الزواج، حينما يفاجأ بأقل مما يتصور من جمالها وحسنها، أما الطرف الآخر فقد أسرف كثيراً في هذا الجانب فينظر إليها ويخلو بها ولربما يسافر بها ولربما يتمتع بها قبل الخطبة، ولإجابة تمتعاً حراماً وهذا أيضاً يسبب نفرة سريعة وسوء عشرة، لأنه ارتبط بها حراماً قبل الميثاق الغليظ وتشاهد آثاره السيئة في بعض المجتمعات لا سيما إذا وصل الأمر إلى معصية الله تعالى، أما النظر الشرعي فقد حدده العلماء لما يخرج غالباً بدون خلوة، حينما يغلب عنده أنه سوف يستجاب له بعد أن يعزم على الزواج بهذه المرأة، ولا يكون ذلك من باب التمتع بهذا النظر بل من باب البحث عن الزوجة التي تتميز بشروطه التي حددها لنفسه من جمال ورشاقة جسم وطلاقة وجه إلى غير ذلك. أما التمتع بها قبل العقد بحال من الأحوال فلا يجوز، حتى لا يجوز له أن يتمتع بكلامها الزائد على قدر الحاجة وفي حدود الشرع القويم، كما لا يجوز له تكرار النظر إلا إذا كان ذلك لزيادة الاحتياط والتأكد من صلاحيتها، كما يجوز له النظر إلى صورتها إذا كان هذا النظر لا يخدم هذا الأمر ونفضل النظر للصورة قبل الرؤية حتى لا تكون الرؤية المباشرة سبباً لإهانتها أو تحطيم شخصيتها عند عدم الرغبة، إن كانت لها صورة موجودة.

٢ ــ الرضاء والرغبة في الزواج: فلا يدخل أحدهما مع الآخر مكرهاً

---

(١) الترمذي كتاب النكاح باب ما جاء في النظر إلى المخطوبة. والنسائي وابن ماجه كتاب النكاح.

بل بدافع الرضاء الكامل والرغبة الأكيدة، فلا يجوز إكراه الرجل على امرأة معينة كما لا تكره هي على زوج، ولذلك يقول ﷺ: «لا تنكح البكر حتى تستأذن ولا الثيب حتى تستأمر»[1] والفرق بين الاستئذان والاستئمار أن الأول يكفي فيه السكوت حتى تستحي البكر، أما الثاني فيحتاج إلى الأمر منها والموافقة الكاملة الصريحة بالزواج، ويكفي دليلاً (أن فتاة أكرهها أبوها على زوج واشتكت إلى رسول الله ﷺ فخيرها بين البقاء والفسخ فاختارت البقاء وقالت تريد أن تعلم الناس بحكم الشرع في هذا)[2] أما الذين يكرهون مولياتهم على أزواج لا يرغبن فيهم فهم خاطئون، لا سيما إذا كانوا غير صالحين أو أصحاب جرائم وفساد، وكثيراً ما يندمون فيجب حسن الاختيار، وذلك لا يعني أن للمرأة أن ترفض الزواج أصلاً فهذا لا يمكن بحال لأن الزواج هو سر عمارة الحياة ولا تقوم إلا بالتزاوج، فلا يقبل منها حينما ترفض أصل الزواج إلا في ظروف خاصة، كما لا يقبل منها أن تختار الفاسق من الرجال، لأن ذلك سوف يضر بمستقبلها ومستقبل الأسرة والمجتمع وينجب أولاداً فسقة في الغالب يكونون مصيبة على الأسرة كلها، ولكل من أفراد الأسرة حق المعارضة.

٣ ــ اختيار الزوج واختيار الزوجة: أعطى الله سبحانه وتعالى كلا من الزوجين اختيار الآخر حسب ميوله، لكنه خاضع لأنظمة وشروط هي جزء من الدين كما أنها هي التي تكفل المصلحة للزوجين، أما النظرة السطحية وحدها فلا تكفي لاختيار الزوجين فقد تهتم بجانب وتلغي جانباً مهمًّا، فلا بد من الاهتمام بكل الاعتبارات في هذا الجانب وتفضيل ما يكفل المصلحة للزوجين حتى تكون الحياة الزوجية مستقرة هادئة، يقول الرسول ﷺ:

---

(١) في الصحيحين: البخاري كتاب النكاح. باب لا ينكح الأب. مسلم: كتاب النكاح باب استئذان الثيب.

(٢) أحمد وأبو داود وابن ماجه والدارقطني.. المحرر لابن عبد الهادي م ٢ ص ٥٤٥.

«تنكح المرأة لأربع لمالها وجمالها وحسبها ودينها فاظفر بذات الدين تربت يداك»[١] فهذا الحديث بين أهداف الناس كلهم حسب رغباتهم فهناك من يريد مال المرأة إن كانت صاحبة مال وهناك من يريد الجمال إن كانت ولا ينظر إلى غيره، وهناك من يهتم بالأصل والحسب والأسرة ولا يهتم بغيرها، وهناك من يعتبر الدين هو صمام العلاقة الزوجية والهدف الرئيس للزواج، والأخير هو العقل والمنطق حيث إن الأمور الثلاثة قد تكون سبباً لطغيان المرأة وغرورها واعتزازها بنفسها، فيكون سبباً للخلاف والفرقة والترفع أما الرابع الدين فهو الأصل لأن ذات الدين يمنعها دينها من أذى الزوج والترفع عليه والتطاول، كما أنه سبب حماية الفراش من الفساد وبقاء العشرة الزوجية متينة ثابتة، فالدين هو السياج المنيع الذي يجعل الزوجة تحتفظ بحق الزوج وتراقب فيه الله سبحانه وتعالى معه بإخلاص ورحمة، وإذا فقد الدين فسدت العلاقات الزوجية وارتبكت وحصل الفراق غالباً وإن بقي فعلى مضض، لذلك حذر الرسول ﷺ من خضراء الدمن وهي المرأة الجميلة تنبت منبت السوء، وكم من الناس أهمل جانب الدين واهتم بجوانب أخرى أهمها الجمال الجسدي فضل الطريق وعاش حياة الجحيم بسبب سوء اختياره، فرأينا في عالمنا الحاضر شباباً أعرضوا عن الزواج بالصالحات المسلمات العفيفات الطاهرات ورغبوا في كافرات منحرفات كن سبب شقائهم وضلالهم في الدنيا والآخرة، أما الذرية فلا تسأل عما أنجبن من شباب بعيد عن الفطرة السليمة فصاروا وصمة عار لا في حق آبائهم فقط بل في حق المجتمع كله، علماً بأن الله سبحانه وتعالى منع زواج المسلم بالمشركة فقال: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾[٢]. أما الزواج باليهودية والنصرانية فهو مباح إذا كانت

---

(١) متفق عليه: البخاري كتاب النكاح، مسلم كتاب الرضاع باب استحباب نكاح ذات الدين.

(٢) سورة البقرة.

محصنة أي عفيفة غير زانية في قوله سبحانه: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[1] أي العفيفات من اليهوديات والنصرانيات وهذا وإن كان مباحاً إلا أنه خلاف الأفضل، فالمسلمة خير واليهودية والنصرانية مباحة، أما المسلمة المنحرفة الضالة فالزواج بها مخاطرة بالفراش وتعريض له للفساد، أم المشركة فلا يجوز الزواج بها بحال من الأحوال بنص القرآن ولكن اليهودية والنصرانية وإن كانتا مشركتين في الحقيقة لكنهما أهل كتاب.

هذا بالنسبة للزوجة يختارها الزوج لهذه الحيثيات والأهداف، أما الزوج فعلى المرأة أيضاً أن تختار الأصلح التقي يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾[2] والعبد هنا الرقيق أي الرجل الرقيق الموحد خير من الحر المشرك ولو أعجبنا نسب الحر فالأنساب لا تقاس بالدين، كما أمر الرسول ﷺ المرأة وولي أمرها باختيار صاحب الدين والخلق إذا خطب المرأة ولو لم تتوفر الشروط الأخرى (إذا خطب منكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض)[3] فقد أخبر ﷺ أن اختيار غير الصالح يسبب الفتنة والفساد وهذا هو ما يحدث اليوم، تنخدع أسرة برجل صاحب جاه ومركز ولربما صاحب مال ونسب وتغفل صفاته الدينية والخلقية، ثم يظهر الخلل في العشرة الزوجية حينما يظهر أن الزوج لا يصلي أو يشرب الخمر أو يتعاطى المخدرات، نسأل الله العافية، ثم تظهر هذه الجرائم في سلوكه الخاص مع زوجته، ثم يبدأالتفكير في طريق الخلاص من هذا الزوج الفاسق ولربما تعزف عنه هذه الزوجة الصالحة المسلمة لأنها لا توافقه على فساده ويبحث عن الفاحشة ويعطل تلك المرأة المحصنة، فيتفلت يميناً وشمالاًوتكون المرأة

---

(١) سورة النساء.

(٢) سورة البقرة.

(٣) الترمذي والبيهقي وحسنه الألباني في الإرواء رقم ١٨٦٨.

هي الضحية الأولى والأخيرة. وكم تفاجأ بمثل هذه الأمور من مكالمات هاتفية تقول إحداهن زوجي يتعاطى المخدرات والثانية تقول زوجي لا يصلي، وهكذا تسأل هذه النساء الصالحات عن طريق الخلاص بعد فوات الأوان، بعدما صار الأمر بيد هذا الفاسق الذي سوف يذيقها العذاب الأليم في الدنيا ولربما يكون سبباً لشقائها في الأخرة، حينما يفسد من أخلاقها ما أصلحه أبواها الصالحان وهذا أمر خطير يجب الانتباه له في أول فرصة. إذاً لا بد في سبيل العشرة الحسنة من حسن الاختيار، ويجب أن يقدم جانب الدين على أي أمر آخر وإلا فالزواج سبيل لشقاء طويل مرير. إذاً فلا بد من التأكد من صلاحية الزوج والتحري في هذا الأمر العظيم حتى لا تضطر إلى البحث عن طريق الخلاص والإحراج.

العشرة الزوجية:

وبناءً على ما تقدم وبعد التأكد من صحة المسار والدخول على بصيرة وبعد حسن اختيار وتراض بينهما نتوقع سير الأمور بطريقة سليمة، وحينئذ تكون العشرة الزوجية جيدة وصحيحة بعد كل هذه الاحتياطات والتحريات في سبيل الإلفة والمحبة، لذلك نجد أن الله سبحانه وتعالى أمر بحسن العشرة فقال: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[1] وهي تعني إكرامها وأداء حقوقها وبذل النفقة الواجبة حسب الوسع والطاقة ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝﴾[2] والعشرة بالمعروف تعني احترام المرأة، فلا يسب ولا يعنف بلا سبب ولا يشتم ولا يسب أباً ولا أمًّا ولا يؤذيها بغير موجب لذلك. تعني العشرة الزوجية أن يعطيها حقها من المبيت يؤنسها بحديثه ويسليها بعواطفه لا يضرب ولا يستدبرها في النوم إلا في حال التأديب الذي ذكره الله سبحانه

---

(١) سورة النساء الآية ١٩.

(٢) سورة الطلاق: الآية ٧.

﴿ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ ﴾[1] والعشرة تتطلب ألا يكلفها من العمل مالاً تطيق ولا يكلفها الشطط من أمرها وأن يرحمها فهي إنسان ضعيف نصرها البكاء، خلقت من ضلع أعوج فإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها، ولربما يكرهها لبعض الصفات كألا تكون جميلة ولديها نقص في عقلها أو تصرفاتها أوعدم خفة في حركاتها أو ما أشبه ذلك، فلربما ينسي كل صفاتها الحسنة لهذا السبب فيؤدي إلى فراقها، لكن تعاليم القرآن تأمره أن ينظر إليها من جوانب متعددة لا من جانب واحد فينظر إلى الإيجابيات بجوار السلبيات وحينئذ يعرف فضلها، يقول سبحانه: ﴿ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾ ﴾[2].

ولربما لا يظهر هذا الخير بارزاً في مظاهر المرأة فيدركه الزوج، لكنه يظهر بعد حين من صفات حسنة أو ولد صالح تنجبه يكون سبب الوئام. ويقول الرسول ﷺ: «لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي منها خلقاً آخر»[3] وهذا هو أفضل طريق للاحتفاظ بالمرأة التي تفقد جانباً من جوانب المغريات البارزة للزوج، وما يدريك يا أخي حينما لا تكون زوجتك جميلة لعلها تحتوي على أولاد صالحين سوف تنجبهم لك، والتسرع في الفراق بناءاً على فقد مقوم من المقومات الزوجية تعجل وتهور، يؤدي إلى تسيب في الحياة الاجتماعية، وكثرة المطلقات، وضياع الأولاد، وتشتت الأسرة. كما أنه يؤدي إلى تفكك المجتمع، وتنافر أسره حينما يؤدي هذا التسرع إلى الطلاق. إن العشرة الزوجية تتطلب العقل السديد وحصافة الرأي بعد خشية الله سبحانه من الزوجة.

ولما كان الإسلام دين الفطرة السليمة فإنه يتبع الزوجين حتى على

---

(١) سورة النساء: الآية ٣٤.

(٢) سورة النساء: الآية ١٩.

(٣) مسلم كتاب الرضاع حديث ٦٣ أحمد ج/ ٢ ص ٣٢٩.

فراش النوم ولم يغفل جانباً من الجوانب، حتى إنه ليحفظ حقهما في الشهوة الجنسية، فإن كانت المرأة ذات عيب يمنع التمتع بها كالرتق وغيره فإنه يحمي حق الزوج في هذا الجانب، وكذلك في المقابل إن كان الزوج عنيناً أو خصيًا أو فاقد الشهوة أو إحداهما خنثى أو عقيماً فلا بد حينئذ من رد الحق إلى صاحبه، ويفرق بينهما بناءاً على طلب الآخر، لأن من أهم أهداف الزواج المتعة الجنسية بين الزوجين فهو حق من حقوقهما، وإذا تعطلت أسبابها فلا بد من النظر. إن العشرة الزوجية تتطلب من كل منهما أن يقدم المحبة والولاء والطاعة في حدود طاعة الله سبحانه، أما معصيته سبحانه فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، أما إذا كانت هذه الطاعة معصية لله كأن تطلب منه إحضار محرم للبيت كالأفلام المحرمة أو هو يطلب منها شيئاً من ذلك فلا. كما أن هذه العشرة متبادلة فليست حقًّا للزوجة فقط بل حق أيضاً للزوج وهو الأصل لذلك يقول سبحانه: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾[1] ويجب على الزوجين التسابق والتنافس على الصفات الحسنة وخيرهما السابق إليها، وعلى هذا فهو من استباق الخيرات ولربما يبتلى الزوج بزوجة صالحة لكنها شرسة الأخلاق وكذلك العكس حينما تبتلى هي والسبيل هو التحمل والصبر والانتظار وسوف يأتي الفرج من عند الله سبحانه ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2] فكم من صبر وتحمل كانت عاقبة حميدة حينما عادت الأمور إلى خير ما يرام بعد أن تراجع صاحبه إلى الحق والطريق المستقيم، وكم من إنسان تسرع في الأمر وهدم بيته وأسرته وشرد أولاده فعض أصابع الندم ولات ساعة ندم.

الحقوق الزوجية:

وإذا كانت العشرة الحسنة أمراً مطلوباً من الزوج والزوجة فإن هذه

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢٨.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٥٦.

العشرة تتطلب حقوقاً يلتزم الزوجان بالمحافظة عليها، استجابة لأمر الله سبحانه وتنظيماً للحياة البشرية لتبقى سليمة بعيدة عن القلق والفوضى والاضطرابات والعقد النفسية، ولتكون النتيجة إنجاب الأولاد الصالحين الذين يبرون آباءهم ويؤدون حق الله سبحانه، بل لتكون النتيجة قبل ذلك حياة سعيدة هادئة مطمئنة بعيدة عن القلق والاضرابات، مبنية على المودة والرحمة وإن فقدت المودة فلن تفقد الرحمة وإن فقد الاثنين فيجب أن يقدم العلاج من قبل العقلاء المصلحين.

واجبات الزوج:

ولما كان الزوج له القوامة على الأسرة كلها فيجب أن تكون هذه القوامة موافقة للأوامر الشرعية والتكافل الاجتماعي، مع مراعاة الإصلاح وينبني على ذلك أمران مهمان:

١ ـ **حسن التربية**: فالأب هو المطالب أولاً بتربية أبنائه، بحيث يأمرهم بتقوى الله سبحانه ويحذرهم من مغبة المعصية منذ سن الطفولة، كما أمر الرسول ﷺ: «مروا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع»[1] وفي الحديث: «كلكم راع ومسئول عن رعيته الرجل راعي ومسئول عن رعيته»[2] والأم هي الساعد الأيمن للأب المربي بحيث تتعاون معه في سبيل الخير ولا تقف حجر عثرة في طريقه وتتستر على أولادها وتخفي جريمتهم، حينما يقوم بدوره الهام في متابعة أولاده وتربيتهم وتأديبهم والأب هو المسئول أيضاً بين يدي الله يوم القيامة عن هذه الذرية ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾[3]، وهذه التربية سوف يجني الأب والأم ثمارها في الدنيا والآخرة بالبر والصلة وجزاءهما في حياة البرزخ

---

(١) أحمد وأبو داود والحاكم صحيح الجامع ص ٢٠٣ط الكتب الإسلامي.
(٢) البخاري كتاب؟ باب ١٠.
(٣) سورة التحريم.

(إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به من بعده أو ولد صالح يدعو له)[1] وفي الآخرة ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ ﴾[2] أما إهمال الذرية فنهايته العقوق والقطيعة والحساب في الآخرة كما يشاهد أن طائفة من الرجال يجلبون لبيوتهم كل حرام وسبب فتنة مما يؤدي إلى انحراف هذه البيوت عن الطريقة المثلى ويكفي ذلك التصرف المنحرف الذي تفاجأ به المرأة الصالحة المصونة في أول ليلة وهي ليلة الزفاف بحيث لا تصبح إحداهن إلا في دولة أوربية كافرة تنزع فيها الحجاب والحياء عن طائفة كثيرة من الرجال.

٢ ـ السعي لطلب الرزق الحلال: فقد أمر الله سبحانه الرجال بالسعي على أهليهم وأولادهم ومن تلزمهم نفقته، وهذا إجباري يلزم الزوج حتى لو كانت الزوجة عنده تستطيع أن تنفق على نفسها، لكنها لا تنفق من مالها إلا إذا رغبت حتى قال الفقهاء إن الزوج إذا أعسر وطلبت الزوجة فسخ النكاح حينما يعجز عن النفقة فإنه يجبر على فسخ النكاح بناءاً على طلبها، فتصور يا أخي هذا الحق. والزوج العاطل الكسول الذي يبقى في بيته أو يتسكع في الأسواق ويقتل الوقت فيما لا فائدة فيه لتبقى أسرته عالة على المجتمع تتكفف الناس وتعيش على الصدقات زوج لم يحسن العشرة وسوف يحاسب عن هذا الضياع. كما أن الزوج الذي يكسب المال الحرام من الربا والغش ليطعم أسرته ـ وهذا لا شك له أثر في سلوكه المنحرف ـ رجل لم يحسن العشرة ولم يؤد حق الزوجية وتربية الأولاد على المال الحرام بسبب انحرافات في سلوكهم تظهر علاماته في تصرفاتهم الهوجاء، وهذا شيء نشاهده في دنيا الناس، كما أن هذا الكسب الحرام ينبت جسداً للنار فيجب

---

(١) في الصحيحين.

(٢) سورة الرعد.

البحث عن الكسب الطيب الحلال ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾[1]، ومن هنا نادي الرجال إلى العمل الكريم المباح النظيف، وجلب القوت الطاهر إلى البيت الطاهر النظيف من المحرمات، حتى ينشأ داخل هذا البيت أسرة طاهرة وأولاد صالحون يكونون لبنة في هذا المجتمع، لا عالة على هذه الحياة الإنسانية، إن شباب الأمة الإسلامية مطالبون في بناء هذه الحياة واستغلال خيراتها فقد جعل الله لهم الأرض ذلولاً ليمشوا في مناكبها وليأكلوا من رزق الله سبحانه وما أكثره في هذه الحياة إن الأمم الحية هي التي تكافح من أجل الاستغناء عن غيرها وعما في أيدي الغير وتسخر شبابها للعمل حتى تستغني عن استيراد الأيدي العاملة من خارج حدودها، وإلا فسوف تكون معرضة للضياع، وبعد فإننا نأسف كثيراً ونحن نرى هذه البطالة الرهيبة من شباب الأمة الكريمة، ويخدمها شذاذ العالم الذين سوف يأخذون الثمن من أخلاق الأمة والله المستعان.

واجب الزوجة في حياتها الاجتماعية:

١ ــ أن تكون مصدر خير للبيت المسلم، وعشًّا طاهراً يتربى فيه الأبناء الصالحون، لا سيما وأنها هي التي تبدأ في أحضانها حياة الطفل السعيد وتتولى التربية قبل الأب، فعليها أن تربي الأطفال وفق منهج صحيح بحيث يعرفون حق الله عليهم ثم حق الأب الحاني، يربي أجسامهم وفق منهج صحي سليم ترضعهم الأم من ثديها الدافيء إن أمكن ثم تربيهم وفق الفطرة السليمة، تعرفهم بربهم منذ الطفولة، وبحقها وبحق الأب ووجوب احترامهما، ثم بحق القرابة، والطريقة السليمة للتعامل بين الناس.

٢ ــ صيانة فراش الزوج وحماية بيته، بحيث لا توطيء فراشه ولا

---

(١) سورة البقرة.

تدخل بيته من لا يرضاه وأن تصون زينتها عن غير المحارم، فلا تبدي شيئاً من ذلك لغير من ذكره الله سبحانه في سورة النور ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ . . . الآية﴾[1]، وأن تغض بصرها عما حرم الله سبحانه ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾[2]، ولا تختلط بالرجال ولا تزاحمهم، وأن تقر في بيتها فهو حصنها المنيع، وأن تحفظ غيبة زوجها حفظاً كاملاً فلا تتبرج ولا تتحدث مع من لا يحب ولا تلبس ما يكره خصوصاً مما حرمه الله سبحانه، كما أن عليها أن تتجمل له وتستقبله بصورة يحبها ورائحة جميلة يهواها وبوجه طليق ومحيا بسام يرغبه فيها.

٣ ـ وإذا كان الزوج هو المطالب بالبحث عن الرزق فإنها مطالبة ببقائها في منزلها، لتقوم هي بالأدوار المناطة في عنقها من التربية وتنظيم البيت والعناية بحقوقه ورعاية ماله رعاية تحفظه من الضياع والهلاك، لا تنفق منه إلا بقدر الحاجة ولا تكلفه من النفقة ما لا يطيق.

٤ ـ حفظ أسرار زوجها، فقد يُسر لزوجته بدافع الصلة المتينة بينهما أكثر مما يُسر لأبيه وأمه وأبنائه، حيث جعلها الله سبحانه له سكناً يسكن إليها حينما تحل به مصيبة أو يخيفه أمر، فهي مطالبة بحفظ هذا السر بينهما ولا يجوز لها بحال أن تكشف هذا السر حتى مع أقرب الناس إليه.

٥ ـ حسن المقابلة، بحيث تستقبله بوجه طليق تخفف عنه عناء الناس وتستوعب ما في نفسه من قلق يشعر به وتمتص غضبه الناتج عن سوء معاملة صديق أو عدو، وهذا هو حقيقة السكن الذي ذكره الله سبحانه ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[3] ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا

---

(١) سورة النور.

(٢) سورة النور.

(٣) سورة الأعراف.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[1]، فإذا فسد هذا السكن فإلى أين يلجأ هذا الرجل وإلى من يفيض بأسراره، ولربما يؤدي كشف هذا السر إلى هلاكه.

٦ ـ توفير ماله والاقتصاد في النفقة، وتقبل القليل والعفو عن الكثير خلاف ما عليه كثير من نساء هذا العصر اللواتي يرهقن أزواجهن بالنفقة ويسرفن في هذا الأمر، حتى صار كثير من الرجال لا يتسع محصولهم لمتطلبات هذه النساء منافسة في اقتناء أغلى الموضات والألبسة وموديلاتها المتجددة في كل يوم. لكن المرأة التي تخاف الله سبحانه تحاسب نفسها وترحم زوجها وتقتصد في نفقاتها، فلا تلبس إلا ما تسمح به ظروف الرجل موافقة بذلك اللباس الحلال ولا تتابع هذه الموضات الضالة المنحرفة ضاربة بتعاليم دينها عرض الحائط.

٧ ـ إكرام أبويه، ومساعدة الزوج ليقوم بهذا الأمر تجاه والديه وتشجيعه إذا أدى هذا الواجب ونصحه إذا قصر بهذا الأمر، وإكرام بقية أهله وعشيرته، فإن ما تقدمه هذه المرأة لهذا الزوج سوف يكون السبب لمحبته لها، وبمقدار ما تقصر هي في حق أهله سوف يكون ذلك سبباً للنفور منها وكراهيتها. كما أن تحسين العلاقة مع أقاربه سبب حياتها بجوار هذا الزوج آمنة من الأذى الذي لربما يصيبها بسبب إفساد هذه العلاقة.

٨ ـ الطاعة للزوج: وهي جزء مهم من طاعة الله سبحانه، فقد أمر الله سبحانه بطاعة الزوج فهو من أولي الأمر قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[2]. وقال عن الزوجة «أيما امرأة باتت وزوجها عليها غاضب لعنتها الملائكة حتى تصبح»[3]. وقال ﷺ: «إذا دعا

---

(١) سورة الروم.

(٢) سورة النساء.

(٣) متفق عليه: المحرر لابن عبد الهادي م/ ٢ حديث ١٠٤٧.

الرجل امرأته فلتجبه وإن كانت على التنور»[1]، وهذه الطاعة تتقدم كل الطاعات بعد طاعة الله سبحانه، فإذا تعارضت مع حقوق الوالدين تقدمت طاعة الزوج. ومن أهم هذه الأمور أن تبحث دائماً عن رضاه وجلب محبته إليها وجلب محبة أولاده له، لتكسب قلبه وعواطفه ثم تكسب حياة زوجية حميدة، فمهما كانت الزوجة على مستوى من الجمال الجسمي فهي بحاجة إلى الجمال الخلقي وحسن المعاملة ورقة الجانب، كما أن عليها أن تكسب ثقته بها من الناحية المالية، بحيث لا تصبح لصًّا تخيفه داخل البيت فلا تأخذ من ماله الخاص خفية، فلا تأخذ منه إلا بإذنه وعلمه ورضاه، بحيث تكسب ثقته من هذا الجانب الكريم فيطمئن على ما في جيبه وصندوقه من مال تحت رعايتها.

<u>وعلى كل</u> فهذه الحقوق دين في عنق الزوجين يلتزمان بها جميعاً ولا تقوم الحياة الزوجية بدونها ولا تستقر حياتهما إلا عند رعايتها رعاية كاملة. وما يشاهده الناس اليوم من فوضى داخل البيوت وخارجها وفساد في حياة الناس واضطراب في الحياة الزوجية كل ذلك يرجع إلى عدم رعاية هذه الحقوق مما كان السبب في تخلخل حياة الناس اليوم مما رفع نسبة الطلاق في بعض البلاد، وسبب أرامل كثيرات وأيمات لا تحصى حينما لا يكون الزوج حكيماً يتقبل أخطاء زوجته بصدر رحب. وهذا وإن لم يؤد إلى الطلاق فقد يؤدي إلى القلق والاضطراب داخل البيت، وإذا لم يكن هناك سكن هادىء داخل البيت فأين يكون السكن المطمئن. ويلاحظ في هذه الأيام كثرة الخلاف داخل البيوت الزوجية ولعل أكبر أسبابها عدم الالتزام الأكيد بهذه الحيثيات المهمة. كما أن من أسبابها عدم وفاء أحد الزوجين بما التزم به من شروط عند العقد وشروط العقد لازمة الوفاء بل هي أهم الشروط بالوفاء، حيث أخبر الرسول ﷺ أن الوفاء بها هو الوفاء الحقيقي بشرط

---

(١) النسائي والترمذي. صحيح الجامع حديث ٥٤٨.

مطابقتها للشرع الحكيم، ولربما يدخل الخداع في مثل هذه الأمور فيؤدي إلى خلاف بينهما. والحياة الزوجية إذا لم تبن على المحبة والإلفة فلا يمكن أن تستمر طويلاً فهي تختلف عن كل العلاقات الأخرى التي لربما تقوم على شيء من المجاملة كالصداقة ونحوها، أما إذا كانت متعة محددة بينهما فلن تطول. لذلك حرم الإسلام كل زواج لا يقوم على قواعد ومفاهيم واضحة متينة، كزواج المتعة الذي تحدد مدته ويلتزم الطرفان بهذه المدة إضافة إلى أنه إهانة للمرأة التي كرمها الله سبحانه، هو أيضاً ارتباط أحدهما بالآخر ليس وثيقاً لأنه غير زواج مبني على هذه القاعدة من المودة والرحمة. وكذلك الزواج المؤقت الذي لا تحدد فيه المدة لكن أحد الزوجين لا ينوي الاستمرار الطويل، بل ليقضي من صاحبه حاجة مؤقتة ثم تنتهي هذه العلاقة بعد مدة وجيزة حينما تنتهي هذه الحاجة. والأول ـ زواج المتعة ـ لا خلاف بين علماء المسلمين الذين يعتد برأيهم في تحريمه، أما الثاني ـ الزوج المؤقت بالنية ـ فطائفة من العلماء يحرمونه لأنه إضرار بالزوجة.

* * *

الفصل الرابع

الإصلاح بين الزوجين وحل المشاكل الزوجية

لقد أمر الله سبحانه بالإصلاح بين الناس، واعتبره من أفضل الأعمال التي تقرب إلى الله سبحانه ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾[1]. كما أمر بالإصلاح بين الزوجين بصفة خاصة ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾[2]. وأخطر أنواع الفساد هو الفساد في العلاقات الزوجية والسعي في إصلاحها هو من أفضل الأعمال التي تقرب إلى الله تعالى، لأن فسادها يعني الطلاق وتشتيت الأسرة وضياع الأطفال، وكثرة المطلقات خطر عظيم تبتلى به الأمم، ولربما يسبب فساداً أخلاقيًّا لا سيما في هذا العصر الذي كثرت فيه النساء، حتى لا تجد من يفكر بالزواج بمطلقة محتسباً الأجر من الله تعالى إذاً كثرة المطلقات في المجتمع يدل على خلل اجتماعي ولربما يحدث فساداً أخلاقيًّا خطيراً، وحينما لا يراعي أحد الزوجين واجباته السابقة أو على الأقل لا يتحمل أحدهما خطأ الآخر ويتقبله محتسباً ويريد درجة الكمال من صاحبه قد توجد الخلافات الزوجية وقد تنمو في بعض الأجواء الكآبة وقد تنميها ظروف حرجة، فتتوتر العلاقات وحينئذٍ يأتي دور العقلاء على مراحل متتالية:

---

(١) سورة النساء.

(٢) سورة النساء.

المرحلة الأولى:

التسامح: بحيث ينظر كل واحد منهما إلى إيجابيات الآخر، فالزوج حينما يبتلي بزوجة دميمة ينظر إلى خلقها مثلاً فيمسكها أو ينظر إلى أولاده منها حينما تكون سليطة اللسان وهكذا وهذا هو معنى قول الرسول ﷺ: «لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي منها خلقاً آخر»[1]. كما أشار الله سبحانه إليه في قوله: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[2]. إذاً المعايير الحقيقية عند الله سبحانه وليست عند البشر والبشر نظرتهم قاصرة عن إدراك حقائق الأمور والذين يفاجئون بصفة في المرأة لا تعجبهم قد يتسرعون دون استشارة أو استخارة يتسرعون بالطلاق فتفوتهم مصالح جيدة احتوتها هذه المرأة لم يعثروا عليها بعد ثم تبرز هذه الصفات حينما يتزوج أحدهما بأخرى فيندم.

المرحلة الثانية:

مرحلة التأديب والتربية مع شيء من التعنيف وهي التي أشار الله إليها في قوله: ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾[3]. ومن خلال هذه الآية ندرك أن هذه المرحلة تحتوي على ثلاث مراحل أيضاً:

أ ــ الوعظ ومعناه التخويف بالله بحيث يذكرها بواجبها تجاه نفسه وماله في الحقوق الواجبة التي يلزمها رعايتها ويذكرها بالجنة والنار وغضب الله تعالى على الزوجة حينما تغضب زوجها ويذكرها بمصير هذا الإنسان والعقاب والثواب.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سورة النساء.

(٣) سورة النساء.

ب ــ الهجر في المضجع، بحيث يستدبرها إذا نام وهذه مرحلة ثانية تدل على الغضب، بحيث يشعرها بحقه وتشعر هي بخطئها تجاهه، فتطلب منه العفو والصفح والإحسان.

ج ــ واضربوهن وهي آخر مرحلة في مراحل العلاج بالنسبة للزوج، والمراد بالضرب هنا الضرب غير المبرح الذي يقصد به التأديب لا الإيذاء، وهذا الضرب وإن كان يؤذيها إلا أنه لمصلحتها فهو خير لها من الطلاق الذي تهدم به مستقبلها، وهو كضرب الأستاذ لتلميذه والأب لولده ضرباً مقترناً بالرحمة والشفقة لا المقترن بالقسوة والفظاظة كما يعتقد بعض الناس.

المرحلة الثالثة:

مرحلة التدخل الخارجي من قبل الحكمين ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾[1]، ومعنى هذا أن يتفق على رجلين عاقلين أحدهما يمثل جانب الزوج والآخر يمثل جانب الزوجة يجتمعان فيقدران الحكم النهائي، فإذا رأيا الإصلاح ممكناً فهو الأفضل وعليهما الجمع بينهما، وإذا لم يمكن الإصلاح ورأيا الفراق فلهما ذلك، ويعتبر حكماً نافذاً ويطلقان دون رضى الزوج، وهذا هو الطلاق الإجباري الذي يحصل بدون رضى الزوج لمصلحة المرأة حينما يتعنت الزوج ولا يتعاون لمصلحة الحياة الزوجية.

المرحلة الرابعة:

حل الحياة الزوجية بالطلاق حينما يعجز المصلحون ويعييهم العلاج الإصلاحي وتفسد الحياة الزوجية وتصير جحيماً لا يطاق، فالفراق حينئذ خير من الحياة المنغصة المتردية، لأنه سوف يفسح المجال لزوجة جديدة له

---

(١) سورة النساء.

وزوج جديد لها هي. لذا يقول سبحانه: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾[1] وحينئذ يكون الطلاق هو المصلحة والحكمة البالغة. إذ الطلاق عند الحاجة والضرورة هو أفضل طريق للزوجين حيث يبحث كل واحد منهما عن المكان المناسب له وفي هذه الحياة مراغم كثيرة وسعة وفضل الله واسع للزوجين وقد وعد الله عز وجل بالفرج ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾[2] ﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾[3] ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾[4] ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[5] ﴿ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾[6] . هذه هي نتائج الطلاق الذي يعتبره أعداء الإسلام مأخذاً على الدين، كيف يبيح الطلاق ويهدم الأسرة ويشتت الذرية ويعطي هذه الحرية فقط للزوج دون الزوجة، أين حقوق المرأة لماذا هذا الاستبداد للرجل دون المرأة، ولقد حل الإسلام هذه المشكلة التي يعاني الكفرة التعب منها، حتى أنهم ليتخلصون من زوجاتهم بالقتل أو الجفاء والتعليق الطويل الأمد حينما يرغب عنها، فلا هي بالزوجة ولا هي بالمطلقة. أما الإسلام فقد شرع الطلاق لتخليص الزوجين من هذا البلاء مع ما وعد الله تعالى به كلًّا منهما من الفرج والمخرج والسعة وتيسير طريق الزواج أمامهما، بل الاحتفاظ بحقهما جميعاً فأمامهما فرصة العدة التي تمتد من ثلاثة أشهر إلى تسعة أشهر وهي مدة الحمل غالباً، وهذه مدة خيار للزوج دون رضى الزوجة لأنه صاحب الحق، كما أن أمامهما فرصة مشتركة بينهما وهي لربما تنتهي العدة فيعود أحدهما إلى الآخر برضى

---

(١) سورة النساء.
(٢) سورة الطلاق.
(٣) سورة الطلاق.
(٤) سورة الطلاق.
(٥) سورة الطلاق.
(٦) سورة الطلاق.

الطرفين بعقد جديد ما لم تكن الطلقة الثالثة فلا بد أن تنكح زوجاً غيره ويذوق كل منهما عسيلة الآخر ويفارق الثاني دون نية التحليل.

* * *

الفصل الخامس

إنهاء العلاقات الزوجية

كما اهتم الإسلام في بداية الحياة الزوجية على أساس مكين، كذلك هو قرر طريق الفراق وإنهاء العلاقات الزوجية بطريقة منظمة تنتهي بسلام ومحبة، يكون آخرها ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾[1]، فلا يكون سبباً للقطيعة والعداوة بين الناس، وهذا خلاف ما يتصوره بعض من يجهل هذا الدين بحيث يعتبر الفراق سبباً لفساد الحياة بين جماعة الزوجة والزوج.

نظرة الإسلام إلى الطلاق:

هو في الحقيقة أبغض الحلال إلى الله ولا يلجأ إليه المسلم إلا عند الضرورة الملحة إذا فإن فيه خلاصاً من مشاكل متعددة أهمها تعليق المرأة وهضم حقوقها وإهدار كرامتها، وقد انتقد أعداء الإسلام الدين حينما أباح الطلاق وأعطاه الزوج يتحكم في مصير المرأة كما يقولون ويهضمها حقها، فما ذنب هذه المرأة حتى لقد طالبت المرأة في بعض الدول الإسلامية بجعل الطلاق بيد المرأة وبعضهم لا يوقعه إلا عن طريق السلطة لعرقلة الطلاق، ولو عاش الزوجان في جحيم لا يطاق. لأنهم يفقدون المنهج الذي يخلصهم من هذه المشاكل العويصة.

---

(١) سورة البقرة.

الطلاق رحمة بالمرأة:

نعم هو رحمة بها حيث هو السبيل لتخليصها من زوج فاسق أو كاره يؤذيها ويتسلط عليها، ولولا الطلاق لكان القتل حينما يريد التخلص من زوجته التي يكرهها أو يتهمها بتهم هي بريئة منها، وهذا هو طريق الخلاص بالنسبة للبلاد التي لا تسمح قوانينها بالطلاق، وما زال العقلاء يطالبون بالطلاق تلافياً لهذه المشاكل المتكررة. كما أن الطلاق يعطي المرأة فرصة حياة سعيدة في ظل زوج آخر حينما تتعقد حياتها مع الأول المنصرف عنها الذي جعلها معلقة لا هي زوجة ولا مطلقة. لذلك نلاحظ أن الطلاق قد يحصل بالفسخ إجباراً على الزوج في حالات معينة حينما يرفض الطلاق، مثل حالة عجزه عن النفقة وحالة تعليق المرأة. ورفضه الطلاق مع عدم قدرته على أداء حقوقها المادية أو المعنوية أو الجسمية، وقد يقع عن طريق الخلع على مال يتفق عليه الطرفان، سواء كان مساوياً للمهر أو زائداً عليه أو ناقصاً عنه، وقد يقع الطلاق بطريقة عادية لا مقدمات لها لكنه حق للزوج لا يناقش عليه باعتباره هو مقدم المهر، وقد أعطاه الله تعالى هذا الحق لما يتميز به من رجاحة عقل غالباً، لذا لا يقع الطلاق من المجنون.

* * *

الفصل السادس

تعدد الزوجات

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ ﴾[١].

مقدمة:

اقتضت حكمة الباري سبحانه أن يزيد عدد الإناث على عدد الذكور، فهي سنة قديمة في كل مخلوقات الله سبحانه خصوصاً في آخر الزمان فقد ورد (أنه يكون في آخر الزمان لخمسين امرأة القيم الواحد يلذن به من قلة الرجال)[٢] وعلم الله نافذ في هذه المخلوقات، من أجل ذلك أعطى للزوج أربع نسوة وهو الحد الأعلى للرجل، حيث يراعي في ذلك وضع النساء أو ما يصيبهن من أمراض وأعذار إضافة إلى حاجة الرجال الملحة وما يصابون به من شبق غير طبيعي قد يكون سبباً لفساد كبير، إضافة إلى أن استهلاك هذه الطاقة البشرية النسوية أمر مطلوب لا يكون إلا عن طريق التعدد ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾[٣]. وعلى هذا نستطيع أن نلخص مصلحة التعدد وأهدافها في ما يأتي:

---

(١) سورة النساء.

(٢) البخاري بنحوه. كتاب العلم باب رفع العلم.

(٣) سورة الأحزاب.

١ ــ استهلاك الطاقة البشرية من هذا العدد الهائل من النساء وإغناء كل واحدة منهن ولو بنصف زوج أو ربعه أو ثلثه.

٢ ــ محاربة العنوسة المتوقعة، لا سيما في فترات الكساد والبوار أو عزوف الشباب عن الزواج، كما هو مشاهد في عالمنا اليوم الذي تهرب كثير منهم عن الزواج وتبعاته.

٣ ــ مراعاة ظروف النساء، فلهن من العوائق والأعذار ما يعطلهن ويمنع التمتع بهن، مثل النفاس والحمل والدورة الشهرية وغير ذلك مما يعطل حق الرجل.

٤ ــ مراعاة ظروف الرجال، خصوصاً أصحاب الشبق والذين لا تكفيهم زوجة واحدة مما قد يسبب لهم فتنة في دينهم.

٥ ــ تكثير النسل وزيادة عدد المسلمين على غيرهم وتكثير سوادهم، فإن الرسول ﷺ أمر بذلك وقال: «إني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة»[1]. وكثرة الزوجات يكثر النسل، لأن الزوجات مهما زاد العدد في عصمة رجل واحد فإنه يعطي كل واحدة منهن نصيباً من الذرية لأن باستطاعة الرجل الواحد الإنجاب من عدة نساء لكن المرأة لا تنجب أكثر من ولد واحد من عدة أزواج لو كان ذلك مباحاً.

التعدد لمصلحة المرأة:

والملاحظ في قضية التعدد، يرى الحكمة جلية، وأنها لمصلحة المرأة، وأن الفائدة ترجع إلى أكثر من الرجل لأسباب أهمها:

١ ــ أن حياة المرأة بجوار ضرة أخرى خير لها من مشقة العنوسة المؤلمة، وهذا يؤدي إلى حرمانها من إشباع رغبتها الجنسية التي هي فطرة

(١) أحمد وابن حبان.

بشرية، كما يؤدي إلى حرمانها من إشباع عواطفها البشرية من الأولاد والذرية.

٢ ـ حياة المرأة ولو كانت الثانية أو الثالثة في ظل زوج عادل يقوم بالنفقة عليها خير لها من أن تكون عالة على أبيها أو أحد أقاربها، بحيث يشعرونها بالمنة والاحتقار.

٣ ـ بالنسبة للزوجة السابقة، لن تصاب بضرة إلا في حالة ضعف الرغبة الاجتماعية من زوجها، وهذا الضعف قد يؤدي إلى الطلاق، وهذا هو أكره ما تكرهه المرأة، أو إلى التعليق، وهذا مكروه أيضاً، وأقل ما يحدث من جراء ذلك هو العزوف عنها حينما يتعلق بأخرى يهواها ولم يحصل عليها، فتكون تلك الزوجة هي ضحية كل هذه التوقعات، لأن ميل القلب أمر فطري يسيطر على أقوى الرجال فكيف بالرجل العادي صاحب العواطف البشرية.

٤ ـ إضافة إلى التعاون المتوقع بين الطرفين حينما تتحسن العلاقة بينهن، سواء في أمر البيت أو حاجيات الرجل الأخرى، والحياة كلها مبنية على التعاون على البر والتقوى.

٥ ـ يضاف إلى ما سبق، أن زوجة ثانية لن تقبل هذا التعدد إلا في ظروف تفرض عليها، فهي حينما تحقق رغبتها في زوج تنفرد به فلن تختار الآخر إذ هي غير مجبرة على زوج معين.

٦ ـ المرأة المسلمة لا تكون أنانية أبداً فهي تبحث عن مصلحة أختها المسلمة وذلك يعني ألا تمانع في مشاركة أخرى في الإسلام في عصمة رجل عادل.

٧ ـ أهم مطالب المرأة هو العدل من الرجل، فإذا توفر العدل من الرجل فلا تمانع المرأة بذلك والعدل مشروط في التعدد.

٨ ـ التعدد تشريع إلهي كريم، قرره من يعلم مصلحة البشر، فاستجابة

المرأة لهذا الحكم الذي لا خيرة فيه طاعة لله سبحانه وتكسب فيه الأجر من الله تعالى. إذاً استجابة المرأة لهذا الحكم عبادة يجب أن تحتسبه من الله، وحينما يكون الزوج عبئاً ثقيلاً على الزوجة فإن الثانية سوف تخفف عنها جزءاً من هذا العبء.

التعدد هو السنة:

الأدلة الشرعية كلها تدل على سنية التعدد، وأنه أفضل من الإفراد، خلافاً لمن زعم العكس ـ أي أنه رخصة ـ وفي اعتقادي أن الأمر سنة وليس برخصة فحسب بل هو الأصل والأفضل.

أدلة السنية:

١ ــ قدم الله سبحانه التعدد على الإفراد في الآية السابقة ﴿ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ فأخر الوحدة والأصل أن ما تقدم هو الأولى.

٢ ــ جعل الله تعالى الواحدة في حال الخوف، وما أبيح في حال الخوف كان ضده أفضل في حالة عدم الخوف فقال سبحانه: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً ﴾[1].

٣ ــ أباح الله سبحانه شيئاً من الميل في سبيل مصلحة التعدد، فقال سبحانه: ﴿ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾[2]. وأصل الميل محرم لكن تسومح فيه لمصلحة التعدد، وهذا طبعاً هو ميل القلب أما الميل المتعمد فلا يجوز.

٤ ــ التعدد هو الذي فعله الرسول ﷺ وهو لا يفعل إلا الأفضل، فقد عدد الرسول ﷺ الزوجات إلى تسع زوجات وهي خاصة به ﷺ ولا يجوز لغيره أكثر من أربع.

---

(١) سورة النساء.
(٢) سورة النساء.

٥ ـ هو الذي يخدم مصلحة الأمة، لما فيه من إعفاف الفرج وتكثير عدد المسلمين.

إنكاره ردة عن الإسلام:

ينكر بعض المنتسبين للإسلام فكرة التعدد، ويعتبرونها جناية على المرأة وإهداراً لكرامتها، وهذه ردة عن الإسلام لأنه مخالف لصريح القرآن واعتداء على حكم الله سبحانه، حيث لم يخالف في هذا التشريع أحد من علماء المسلمين وإنكاره كفر وردة، علماً أنهم لا يتصورون حكمة التشريع، كما لا نغفل أقواماً من الدعاة يشعرون بضعف الشخصية أمام الكفار فيشككون في التعدد ويتفلسفون في الدفاع عن هذه القضية. أما أعداء الإسلام من الكفار الحاقدون على الإسلام فليس موقفهم غريباً معنا، فقد طعنوا في ديننا بسبب التعدد، واعتبروه تخلفاً وفيه هضم لحرية المرأة وحقوقها، ولعل ما أصاب أبناء جلدتنا من فكرة الطعن في الدين سرت بطريق العدوى إلى هؤلاء الببغاوات الجاهلين الذين يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي الكافرين، فقد أثرت هذه الدعايات بأنصاف المثقفين وأشباه المسلمين حتى وضعوا الإسلام في قفص الاتهام في نظرهم، وصار هذا التشريع في نظرهم وصمة عار يبحثون دائماً عن طريق الخلاص منه.

خطر محاربة التعدد:

وإذا كان هذا التعدد سنة من سنن رسول الله ﷺ بل هو سنة من سنن المرسلين جميعاً عليهم الصلاة والسلام كما كان في عهد داود ﷺ كما ذكره المفسرون في قصة الملكين ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾[1].
وكما في الحديث الصحيح عنه ﷺ: «إن سليمان بن داود قال لأطوفن الليلة

---

(١) سورة ص.

على تسعين امرأة تلد كل واحدة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله»[1]، إذاً كان التعدد بهذا المستوى فلماذا يعترض عليه أعداء الإسلام، لولا خبث في طويتهم الفاسدة المتأثرة بآراء وأفكار الكفار. لذلك نلاحظ بعض الدول الكافرة مثل ألمانيا التي تحرم قوانينها التعدد تلح مطالبة بتغيير هذا النظام الجائر، حيث يكثر عدد النساء الرجال أضعافاً مضاعفة خصوصاً بعد الحربين العالميتين، مما أوجد خللاً في الأنظمة الاجتماعية ولا يحل هذا الأمر إلا حكم الله ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾. وسوف يأتي اليوم القريب إن شاء الله الذي يرجع فيه هذا العالم كله إلى هذا التشريع البديل عن التعدد العظيم طوعاً أو كرهاً. ولما عرفنا مما عليه الفطرة البشرية من ميول وما ركب الله تعالى فيها من شهوة نعرف ضرورة الزواج بالدرجة الأولى والتعدد بالدرجة الثانية، وليس هناك بديل لهذا التشريع العظيم إلا الفساد في الأرض والفاحشة فالبديل إذاً أحد أمور:

١ ــ الزنى وفساد الأعراض وانتشار الجريمة في المجتمع، حيث يتفلت الرجال الذين عزفوا عن زوجاتهم أو أصيبت زوجاتهم ببرود جنسي أو عزوف أو مرض، بحيث يبحث ذلك الرجل عن بديل لما أباح الله إلى ما حرم من الزنا، والشذوذ الجنسي والفساد الخلقي. كذلك المرأة حينما يعزف عنها زوجها ولديها من الشهوة ما يدفعها إلى الحرام إذا ضعفت خشية الله في قلبها، فتضر فراشه وتهدم بيته وتجلب إليه أبناءاً غير شرعيين، وهنا تكون الفتنة الكبرى والدمار العظيم.

٢ ــ بديل آخر قد يضطر هذا الزوج البعيد عن الله سبحانه، أن يتهم زوجته بتهم هي بريئة منها كأن يتهمها بالفاحشة، حيث إن هناك قوانين تبيح الطلاق حينما تفعل الزوجة الفاحشة، وهذا أمر خطير حيث يتهم الأبرياء

---

(١) الصحيحان: البخاري باب الأنبياء. مسلم باب الإيمان.

وتشوه السمعة النظيفة من أجل أن يتزوج بديلاً عنها. وهذه القضية تتكرر باستمرار ممن فقد الضمير الذين تضطرهم القوانين الجائرة إلى هذا الأمر.

٣ ــ وقد يؤدي منع التعدد إلى قتل الزوجة، التي صار الزوج مجبراً عليها حسب القانون الجائر، فلا يسمح له بالتعدد ولا بالطلاق، وكم تحدث هذه الجرائم البشعة في المجتمعات المنحرفة عن منهج الله سبحانه، حيث لا حرمة للمرأة هناك بالرغم من تغنيهم بحقوق المرأة وحريتها، حيث قتل النفس هو أبسط الأمور في نظرهم.

٤ ــ وعلى كل فأول الاحتمالات هو العزوف عنها والميل إلى المنعطفات الخبيثة، مما يؤدي إلى توقف النسل وضعف الأمة اجتماعيًّا وعسكريًّا. قال الشاعر:

فلســت بــالأكثـر منهـم حصـى   وإنمـــا العـــزة للكـــائـــر

٥ ــ وأوضح ما يتوقع حينئذ تقليل عدد المسلمين، خصوصاً حينما يكونون أقليات مضطهدين في الأرض تحت حكم الكفار، وقد يصحب ذلك تعقيم الرجال المسلمين كما حصل في الهند منذ فترة من أجل إضعاف المسلمين أمام الكافرين.

يضاف إلى ما سبق موقف بعض الدول الإسلامية والشعوب الإسلامية من سعي حثيث إلى تقليل عدد المسلمين كما يحصل الآن في مصر وأندونسيا حيث ينادي المسلمون بعضهم بعضاً حتى العلماء منهم إلى تقليل النسل وتحديد عدد الأولاد حيث زاد في مصر عدد النصارى أضعافاً عما قبل فارتفعت نسبة النصارى أما أندونسيا فقد هبطت نسبة المسلمين في سنوات من ٩٥٪ إلى ٨٦٪ من عدد مائة وسبعين مليوناً الذين هم السكان حالياً، إذ زاد عدد النصارى أكثر من عشرة ملايين إنسان بسبب تحديد النسل والتنصير في مدة وجيزة. وهل بعد ذلك يعتبر هذا النداء الظالم مقبولاً في تعدد الزوجات؟ ولحساب من يكون هذا النداء؟ فالمرأة غير مجبرة على زوج

معين ولن يدخل بها رجل متزوج إلا برضاها ولها الحرية الكاملة في هذا الأمر ولربما أن بعض النساء بفطرتها تفضل المتزوج بغيرها ولربما أن بعضهن تغرم برجل معين له زوجة فلماذا هذه الضجة الكبرى يا أصحاب الأقلام المسمومة يا أعداء البشرية جمعاء؟ هل إذا أغرمت برجل معين لديه زوجة هل تجبره بتطليق زوجته السابقة ليتزوج الجديدة أم نحرمها ـ الثانية ـ من رغبتها وهي متعلقة به؟ فلربما يؤدي إلى العشق القاتل أو الحرمان. إذاً هذا التعدد مراعاة لعواطف الطرفين وتقدير الجانبين وحرية اختيار للزوج والزوجة.

سؤال منحرف قد يرد على ألسنة فاسقة:

كما أبيح للرجل أكثر من زوجة فلماذا لا يباح للمرأة أكثر من زوج؟ وهذا أمر عجيب جدًّا هل يمكن لامرأة واحدة أن تتزوج بأكثر من واحد؟ كيف تتعامل معهم؟ من ترضى منهم كيف تبيت عندهم؟ لمن يكون الولد؟ هل تستطيع امرأة واحدة أن تعيش مع عدة أزواج؟ ويمكن الرد على هذا السؤال المنحرف من عدة وجوه:

١ ــ لا تستطيع المرأة أبداً أن تستوعب أكثر من زوج، لأن طبيعة الرجل وغيرته لا يمكن أن تسمح بذلك بأي حال من الأحوال. من هو الرجل الذي يفكر في امرأة يلغ فيها أكثر من واحد، إنها فطرة بشرية جاءت موافقة للتعاليم البشرية لا ينكرها إلا الزناة المنحرفون بفطرتهم.

٢ ــ إن اختلاط ماء أكثر من رجل واحد في رحم واحد يسبب أمراضاً شتى، كما هو المشاهد الآن في وضع العاهرات وما ينشرنه من أمراض الإيدز وغيره من الأمراض الخطيرة والزهري والسيلان والتي أجمع الأطباء اليوم أنها نتيجة التزاحم من عدة رجال أمام امرأة واحدة.

٣ ــ لمن يكون الولد حينما تختلط مياه عدة رجال في رحم واحد،

وهذا هو سبب الشقاق العنيف بين بني البشر، كل يريد هذا الولد ويدعيه لنفسه وهذا مصدر شقاق ونزاع بين بني البشر كما هو مصدر قطيعة.

٤ ـ إعطاء الرجل الواحد أكثر من زوجه يعطي فرصة لإنجاب أكثر من ولد، بحيث تنجب كل واحدة منهن مولوداً حسب العدد النسائي أما العكس فلو اجتمع رجال الدنيا على امرأة واحدة فلن تنجب إلا واحدا وسوف يصبح موضعاً للشقاق بين الأزواج، فهل مصلحة الأمة زيادة إنجابها أم قلته لتصبح أمة ضعيفة هزيلة بين الأمم تتخطفها الأيدي.

٥ ـ المرأة مطالبة بخدمة زوجها، فهل تستطيع أن تخدم أكثر من واحد مع ما يتطلبه كل واحد منهم من خدمات متكررة.

٦ ـ الرجل له حاجة جنسية متكررة يحتاج إلى قضائها بطريقة مستمرة، فهل ينتظر الفرصة الخاصة به حتى يأتي دوره في هذه الزوجة المشتركة.

٧ ـ الطاقة النسائية تزيد على عدد الرجال كثيراً هل نعطل هذه الطاقة لتستمتع امرأة واحدة فقط بعدة رجال لتضيع بقية النساء؟. إذاً هذا هراء بعيد عن الفطرة والحكمة. والله المستعان.

أما الطلاق:

فبالرغم من أنه مكروه شرعاً وطبعا لغير مصلحة، فهو لحكمة بالغة عند الحاجة إليه فلولا شرعية الطلاق لكانت المشكلة أكبر من سابقتها في موضوع التعدد، لأن في الطلاق خلاصاً أكيداً ممن يكره المرأة ومن تكرهه المرأة، علماً أن الطلاق قد وضع القرآن في طريقة كل الاحتياطات اللازمة حتى لا يقع الطلاق، وقد وضعنا في فصل سابق شيئاً من هذه الاحتياطات اللازمة فقد أمر الزوج بالتحمل والنظر إلى الايجابيات في الزوجة، ثم أمر بالتأديب للمرأة حتى تعود إلى رشدها ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ

﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ﴾[1]، ثم يأتي دور الحكمين ﴿فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾[2]، وإذا لم تجد كل هذه المحاولات فلا بد من الفراق حفظاً لحق المرأة حتى لا تصير معلقة. وكثيراً ما يكون الطلاق لمصلحتها هي خصوصاً حينما يعاملها الزوج معاملة قاسية وكثيراً ما تطلب المرأة لنفسها الطلاق وقد يحدث ذلك منها أكثر مما يحدث من الرجل ابتداءاً، لذلك أعطى الله سبحانه الطلاق للرجل ولم يكن بيدها لسرعة اندفاعها لهذا الأمر الخطير. في اعتقادي لو أن الأمر بيد المرأة لانهدمت البيوت من ليلة الزواج الأولى، ولتكرر الطلاق بينهما كل لحظة لما اشتهرت به المرأة من سرعة الاندفاع أمام الأحداث البسيطة فتحملها قليل وصبرها محدود ونصرها بكاء. إنها الحكمة الربانية العظيمة واختيار الله سبحانه لما يصلح البشرية ويحفظ توازنها، والطلاق الذي عالج الإسلام مشكلته على عدة مراحل هو الذي اعتبره الإسلام حلًّا لمشكلة الزوجين على حد سواء، ولولاه لأصبحنا في حرج وسجن لا يطاق.

لماذا كان بيد الرجل؟

يتساءل بعض التائهين عن الجادة لماذا الطلاق بيد الرجل وحده لماذا لا يكون بيد المرأة، حتى علمنا أن هناك دولة إسلامية تفكر فيها بعض النساء بالمطالبة لأن يكون بيد المرأة، وهناك من يسعى لعرقلة أمر الطلاق بأي حال من الأحوال ونحن نقول:

الطلاق لا يخلو من ثلاث حالات:

١ ــ إما أن يكون بيد المرأة وحدها، متى شاءت أوقعته بسبب أو بدون سبب وهذا خطر يهدد كيان الأسرة، حيث إن المرأة تعامل بعواطفها لا

(١) سورة النساء.

(٢) سورة النساء.

بعقلها وهي شديدة الاندفاع سريعة التأثر لكنها تندم بسرعة ملفتة للنظر، فلو كان الطلاق بيدها لأوقعته في أول ساعة من ساعات الزواج حينما يصيبها الانفعال، فقد لا تستطيع أن تضبط أعصابها عند الغضب وهذه هي المشكلة التي عالجها القرآن على عدة مراحل بحكمة وتؤدة فلم يجعل الطلاق حلًّا إلا إذا عجزت كل العلاجات المبذولة، أما أن يقع أمام أصغر مشكلة فذلك يعني ألا تكون هناك حياة زوجية مستقرة أبداً.

٢ ــ لو كان بيد الاثنين مجتمعين لما أمكن وقوعه أبداً حيث اختلاف الطبائع وبقي الزواج معلقاً علماً أن أي نظام يدبره أكثر من واحد يظهر فيه الخلل ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[1]، فالعمل إذاً ارتبط بأكثر من واحد يظهر فيه أمران:

أ ــ أحدهما الخلل لاختلاف العاملين.

ب ــ عدم الاتفاق لاختلاف الآراء.

٣ ــ كونه بيد الزوج هو الحكمة والمنطق وهو حكم الله سبحانه وهو الموافق للحكمة ونواميس الحياة لأسباب أهمها:

أ ــ أن الرجال هم القوامون على النساء، والقوامة تتطلب هذه المسئولية الكبيرة وأي قوامة تبقى لو كان الطلاق بيد المرأة؟ إذاً يكون الرجل مهدداً دائماً وأبدا.

ب ــ ما حبا الله تعالى به الرجل من عقل وتقدير للأمور المستقبلة ومواجهة المشاكل بسعة صدر وتفكير عميق، وعدم البت في القضايا إلا بعد الاستشارة.

ج ــ الرجل هو الذي يبذل المال للزواج ـ المهر ـ فهل يكون معقولاً

---

(١) سورة الأنبياء.

أن يبذل المال للدخول في الحياة الزوجية ليكون الخروج منها بيد غيره إذاً باستطاعة المرأة أن تتلاعب بمصير الرجل. تتزوج فإذا ابتزت ماله قذفته وبحثت عن آخر لتعامله نفس المعاملة، وهكذا يصبح الزواج غير مستقر والحياة الزوجية غير ثابتة أبداً والزوج هو الضحية حينئذ.

د ـ تفضيل الرجل على المرأة وللرجال عليهن درجة وأي أفضلية تبقى إذا كان الأمر بيدها هي ولم يبق بيده عصمة الزواج فما مصير هذا المال الذي بذله الزوج ولربما بذل كل ما يملك في سبيل الحصول عليها. إذاً هو الضحية لتصرفاتها الهوجاء وما عليه إلا أن يبقى تحت رحمتها خوفاً أن تطلقه متى شاءت فهو إذاً لا ينكر عليها منكراً ولا يغير. ثم أين الدرجة التي فضل الله تعالى بها الرجل على المرأة في قوله سبحانه: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[1]، أي درجة عظيمة وهي الميزة بين الذكر والأنثى. ثم أين معنى قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾[2].

وأخيراً نقول إن الطلاق هو سبيل الحياة السعيدة حينما لا يكون هناك مجال للإصلاح، لكنه لا يقع من العاقل لأول وهلة فهو كالقطع للعضو المريض لا يكون إلا بعد علاج طويل المدي وبعد تجارب لكل الحلول. فإذا أعيت العقلاء جميع وسائل الإصلاح فالنتيجة ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ ﴾ أما أن يلزم الرجل بزوجة يكرهها لدينها أو لخلقها أو لتصرفاتها فذلك غير ممكن والطريقة الوحيدة التي تملكها المرأة في هذا الباب إما:

---

(١) سورة البقرة.
(٢) سورة آل عمران.

١ ـ عن طريق الخلع بحيث تفتدي نفسها منه لحديث الحديقة وهو لا يجوز إلا عند الحاجة.

٢ ـ أو إذا كان الطلاق معلقاً بفعل مثل إنْ فعلتي فأنتِ طالق أو إن لم تفعلي فأنتِ طالق فتطلق إذا خالفت عند بعض العلماء حسب تصرفها، وعند بعضهم لا تطلق إلا إذا قصد الطلاق وإلا فكفارته كفارة يمين. وحرام عليها أن تتسبب في طلاقها أو تلح على الزوج بطلبه بدون موجب كما جاء في الحديث (أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس فحرام عليها الجنة)[1].

سورة الطلاق وما فيها من انتظار الفرج:

إن من يقرأ سورة الطلاق ينتظر الفرج العاجل من عند الله سبحانه وتعالى فقد وعد بالفرج والمخرج من البلاء للمتقين، وبالرزق العاجل من حيث لا يحتسب ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝﴾[2]، وهذا القدر مقدر من عند الله وهو الطلاق والزواج فقد يتقدم لمصلحة الزوجين وقد يتأخر، وهو أيضاً لقدر معين فلا صدفة في واقع الحياة فقد قدر الله سبحانه الأمور كلها، فليست فلتة إذا يحتسب الأجر من الله كلا الزوجين لأنه قدر الله سبحانه فيجب الرضى به ويقول سبحانه قبل ذلك: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾[3]، وهذا حكم الله سبحانه، فالمطلقة تأخذ أكثر أحكام الزوجات مدة العدة وتبقى في بيت زوجها، ينظر إليها لعله يرغب فيها في يوم من الأيام فيسترجعها إلى كنفه، لذلك حرم الله خروجها

---

(١) أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم. صحيح الجامع حديث رقم ٢٧٠٣.

(٢) سورة الطلاق.

(٣) سورة الطلاق.

(٤) سورة الطلاق.

وإخراجها، والسر في ذلك والله أعلم هو عدم الانفصال بينهما، بحيث يكون سبباً للمودة والائتلاف، حيث يقول سبحانه تلك حدود الله. ويقول: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ۝١﴾[1] أي عودة ورغبة بينهما. ولعل إذا جاءت من عند الله فليست للترجي كما هو معناها اللغوي بل هي للتوقع ثم يقول سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ۝٤﴾[2] وهذا اليسر تدخل فيه الحياة السعيدة في الحياة الزوجية. ثم يقول سبحانه: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾[3] والعسر هنا هو ما تأثر من العلاقات الزوجية وما عجز عنه الزوج من النفقة وهذا وعد منه سبحانه وتعالى بالفرج والمخرج ولذلك فإن الطلاق وإن كان أمراً مكروهاً تنفر منه الطباع البشرية بدون سبب لكن حينما يكون طريقاً للخلاص للزوج والزوجة في سبيل المخرج واليسر والفرج المتوقع. وكم من النساء من ابتليت بزوج لئيم يسيء معاملتها ثم ينتهي الأمر بدون سبب، بعد أن يقطف زهرة شبابها فتصاب بكآبة وحزن ثم ييسر الله لها طريق الخير، حيث يهب لها زوجاً صالحاً يعوضها ما ضاع منها وينسيها مصائب الأول، وكذلك الزوج مع الزوجة الشرسة إذاً الأمر كله لله وما على كل من الزوجين إلا تسليم الأمر لله صاحب الأمر كله الذي قدر المقادير وله خزائن السموات والأرض وبيده نواصي خلقه ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾، وبيده قلوب الخلق، ما من قلب إلا هو بين إصبعين من أصابعه سبحانه.

خاتمة الباب:

وبعد فإلى أين يسير دعاة الضلال الذين يطعنون في الإسلام وينتقدون

---

(١) سورة الطلاق.

(٢) سورة الطلاق.

(٣) سورة هود.

تشريعاته، سواء في تعدد الزوجات أو الطلاق، وهذا فساد في أذواقهم وتصوراتهم الخاطئة، فصاروا ينقدون تشريع الحكيم الخبير في كتاب أحكمت آياته ثم فصلت. وأكبر ظني أن الذين ينقدون هذا التشريع ويعتبرونه تخلفاً وإهانة للمرأة أنهم هم الذين يفسدون المرأة ويصطادونها بالماء العكر، حيث لا يتقيد أحدهم بزوجة واحدة ولا بأربع زوجات بل يفسدون في الأرض، وإنك لتعجب من أمر هؤلاء المنحرفين في أفكارهم وسلوكهم وأخلاقهم: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[1] ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾[2]. وهؤلاء الذين ينتقدون التعدد لا يفكر أحدهم في نقد المفسدين، الذين جعلوا المرأة لعبة يتسلى العابثون فلا يدعونها حتى يقضوا على كل مقوماتها. أما التعدد فنحن من خلال دراسة شرعية مستوفية وسبر لأوضاع المجتمع عن كثب، نعتقد بل لا نشك أنه هو السبيل المثلى لحماية حقوق المرأة المستضعفة وتخليصها من براثن الوحوش الكاسرة من أشباه البشر في شريعة الغاب، كما أنه السبيل الوحيد لحماية المجتمع من الكساد البشري والتكدس النسوي والعنوسة، ثم حمايته من الفساد والتدهور. كما أنه السبيل الصحيحة لنمو البشرية وكثرة الأمة الإسلامية وزيادة عددها زيادة تكفل حماية هذه الأمة من أعدائها المتربصين، وهذه الظاهرة تبرز في الدولة الضعيفة القليلة العدد، حينما تتسلط عليها الأمم القوية وأي دولة لا تحمى إلا برجالها المخلصين. وقد ظهرت هذه الظاهرة في دول الخليج التي تمتاز بخيراتها الوفيرة واتساع أرضها وقابليتها للكثافة السكانية وحاجة البلاد إلى رجال أشداء يحمون بلادهم من أطماع المعتدي لا سيما لما لها من أهمية جغرافية ولما تحتوي من مقدسات يطمع الكفار بإهانتها، كما أن لها أهمية اقتصادية إلى غير ذلك مما دفع الطامعين إلى الهجوم عليها، وبالرغم من

---

(١) سورة الصف.

(٢) سورة المطففين.

حاجتها إلى كثافة سكانية رأينا كثيراً من وسائل الإعلام تحارب التعدد وتشوهه أيما تشويه وتضع كل العراقيل في طريقه. حقيقة لو كانت هذه الدعايات في الصين أو الهند لكانت معقولة فكيف تصح هذه الدعاية في عالم كدول الخليج تملك أكثر ثروة في العالم لا يتجاوز سكانها عشرة ملايين نسمة.

أما أهمية الطلاق:

فتبرز هذه الأهمية في المجتمعات الإنسانية بصفة عامة، حينما يضطر الرجل إلى التخلي عن تلك المرأة التي انحرفت بالأسرة كلها أو فسدت العلاقة الزوجية بطريقة لا تقبل الإصلاح أبداً، وهذا يلزم بالطلاق ولا علاج غيره. أما المجتمعات الإسلامية فالطلاق إضافة إلى أنه تشريع إلهي تقتنع به الأمة الإسلامية وتعتبره جزءاً من دينها إنكاره كفر وردة عن الإسلام. هو أيضاً حل لا بد منه للمشكلات الزوجية المعقدة، حينما يعجز العقلاء عن حل المشاكل الزوجية، إذاً لا بد في تشريع كل الأمم التي تريد الأمن والاستقرار والهدوء المنزلي والأسري في ظل دينها الذي يكفل لها هذا الأمر في تشريعاته الحكيمة التي أحكمت ثم فصلت من لدن حكيم خبير. ولا شك أن الإعراض عن هذا الدين وتشريعه من أمور الناس هو سبب هذه الفوضى الضاربة في الأرض أطنابها، فالقرآن هو المنهج القويم الذي يقول عنه سبحانه: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[1]، وهذه المعيشة الضنك هي ما يشعر به هذا العالم من القلق في عالم المادة المتجردة من كل الروحانيات والمعنويات. وحاجة العالم اليوم إلى نظام نازل من السماء فإن الأنظمة المصنعة قد عجزت عن سد هذه الجوعة الملتهبة. لذا نشاهد عجز هذه النظم عن توفير الراحة سواءاً للأفراد

---

(١) سورة طه.

أم للأسر أم للمجتمعات لأنها تنطلق من فراغ ولا تقوم على أساس مكين وركن وركين. ومن هنا ننصح:

١ ــ دعاة العالم الإسلامي إلى أن يوضحوا هذه الطريق الملتبسة اليوم أمام أنصاف المثقفين من أبناء الأمة الإسلامية، والذين صاروا يخجلون حينما سمعوا أن الإسلام من أنظمته الطلاق أو تعدد الزوجات، ليدافع عن دينه دفاعاً هزيلاً كأن هذا الدين ما جاء من عند الله تعالى.

٢ ــ ننصح كل إنسان يريد حياة سعيدة آمنة في ظل عقيدة سمحة وحياة مطمئنة أن يأخذ بهذا الدين منهج حياة متكامل وعبادة في آن واحد.

وفي اعتقادي أن العالم سوف يرجع إلى منهج هذا الدين في كل أنظمة الحياة ولربما لا يعرف أنه الإسلام. والعلاقات الأسرية هي أحوج شيء إلى هذا الدين.

* * *

الباب الثالث

- موقف الإسلام من الرق
- مصادر الرق وحرص الإسلام على تحرير الأرقاء.
- حقوق الأرقاء ووجوب الإحسان إليهم.
- التفرقة العنصرية.

الباب الثالث
في العلاقة بين الأحرار والأرقاء

مقدمة الباب:

الرق معناه اعتبار جزء من بني آدم مملوكاً يباع ويشترى، ولعله مأخوذ من الرقة وهي اللين والضعف، حيث إن هذا النوع من البشر رقيق الحال لا يتمتع بما يتمتع به سائر الناس. أو لعله لجذب رقة السيد بحيث يرق في معاملته ويرحمه. وجرت سنة الله في هذه الحياة أن يكون الرق ليكون تحرير الأرقاء عبادة يتقرب بها المسلمون، فقد أثنى سبحانه على المعتقين ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝﴾[١]. فالعتق من أفضل القربات وأفضل العتق وخير البر أن يجد الرجل أباه رقيقاً فيشتريه ولا يمكن أن يدرك الابن حقيقة البر إلا بذلك كما ورد في الحديث (لا يجزي والد ولده إلا أن يجده رقيقاً فيعتقه)[٢]. والرق صار مصدر بلبلة لأعداء الإسلام في القديم والحديث كما تحول بعد ذلك إلى مصدر شك في كثير من الأحيان لدى بعض المسلمين لا سيما أنصاف المثقفين أو أصحاب الثقافة المادية البحتة الذين لا يدرسون عن الإسلام شيئاً، ويقرءون عن كل شيء إلا الإسلام ويحصلون على الشهادات العملاقة وهم أجهل الناس بدينهم

---

(١) سورة البلد.

(٢) مسلم والبغوي في شرح السنة.

وتشريعة ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾[1]. هؤلاء أشباه المثقفين هم حجر العثرة في طريق البشرية كافة وفي سبيل انتشار الإسلام خاصة. وقد استغل أعداء الإسلام نقطة الضعف هذه فشوهوا الإسلام أمام أعينهم، كيف يبيح الإسلام الرق ويستذل هذا الإنسان الكريم؟ أليس من سلالة البشر؟ لم هذه الإهانة والإذلال إلخ فصاروا يطعنون في الإسلام من هذا الجانب ويعتبرونه ثغرة في طريق انتشار هذا الدين، حتى صار هؤلاء ـ أبناء جلدتنا ـ يخجلون من الظهور مسلمين أمام هذه الظاهرة المخجلة كما يعتقدون ويتصورون خطأً وبهتاناً. ولقد أثرت هذه الدعاية المسمومة في كثير من المسلمين حتى أثرت على بعض المتدينين وأوجدت تساؤلات في أذهانهم وهذه الظاهرة تبرز في أمور كثيرة من أبرزها قضية الرق والحرية حتى لقد أشعلها الشيوعيون واعتبروا الإسلام ظاهرة متخلفة جاءت لفترة من فترات التاريخ انتهت في فترتها ولا تصلح لهذا العصر عصر الوعي والحرية. وزعزعوا من خلال هذه الدعايات الظالمة عقول كثير من الشباب الذي في قلبه مرض، حتى ساور الشك بعض الشباب المتدينين وصار يقول كيف يبيح الرق دين كالإسلام جاء من عند الله لا شك فيه؟ كيف أباح الرق دين المساواة الذي رد الناس جميعاً إلى أصل واحد؟ أين المساواة وقد قسم الناس سادة وعبيدًا؟ أين قوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾[2]. وبعضهم حينما يتساءل عن هذه الظاهرة يضع نفسه في موقف إبراهيم حينما قال لربه سبحانه: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾[3]. ولربما صار هذا الأمر سبباً من أسباب الانحراف أو الإلحاد نسأل‌الله الثبات، حيث يقرر بعضهم من خلال هذا النقاش أن الإسلام قد

---

(١) سورة الروم.
(٢) سورة الإسراء.
(٣) سورة البقرة.

استنفذ أغراضه فصار لا يصلح للحياة أما الشيوعيون فيقسمون الحياة البشرية إلى مراحل:

١ ـ الشيوعية الأولى.

٢ ـ الرق.

٣ ـ الإقطاع.

٤ ـ الرأسمالية.

٥ ـ الشيوعية الثانية وهي نهاية العالم.

ولكن الذي حدث في أيامنا الحاضرة أبطل هذا الحساب الخاسر فلقد سقطت الشيوعية والحمد لله وعاد الناس إلى الفطرة السليمة فطرة الإيمان الحق. فالشيوعية تقوم على أسس مرفوضة طبعاً هي:

١ ـ إنكار الخالق سبحانه وتعالى والإيمان به فطرة بشرية فطر الله الناس عليها تدل عليه كل المخلوقات.

٢ ـ إلغاء نظام الأسرة وهو نظام فطري لا يمكن أن يتخلى عنها إنسان.

٣ ـ إلغاء الملكية الفردية وهي أيضاً محببة للإنسان.

إذاً لا يمكن للشيوعية أن تقوم لها قائمة في هذا العالم حتى الكافر منه فضلاً عن العالم الإسلامي.

الرق في أنظمة الحياة قبل الإسلام:

لقد جاء الإسلام والرق نظام سائد في الحياة فلا بد إذاً من اعتباره أمراً ضروريًا للمقابلة حيث تتوازن الحياة، لأنه منعه في الإسلام يعني تعرض

المسلمين لفجوة اجتماعية غير متكافئة، كيف إذاً فلا بد من الرق كنظام مبدئي ثم بعد ذلك يفتح الإسلام طريق الحرية. لكن الإسلام لن يعامل الرق كما تعامله الأنظمة البشرية المجردة من الدين والرحمة حيث يدخله في فصيلة الحيوان ويخرجه من فصيلة الإنسان المحترم، فيؤدي ذلك إلى تلك المعاملة البشعة التي برزت في عالم النخاسة والتي سجلها التاريخ عند الأمم الهمجية عامة والرومان بصفة خاصة. وعلى هذا فالرق في الجاهلية يعتبر إنهاءاً لإنسانية ذلك الإنسان والهبوط به.

الرق عند الرومان:

كان الرقيق في عرفهم شيئاً لا حقوق له وليس من فصيلة البشر وليست له حقوق البتة وكان يعامل معاملة دون مستوى الحيوان. وكان مورده الوحيد هو الغزو الذي لا يقوم على فكرة ولا مبدأ بل يقوم على الشهوة والاستعباد وتسخيرهم لمصالحهم الخاصة ومتاعهم الدنيء حينما يستمتع الروماني بالحمامات الباردة والحارة والثياب الفاخرة وأطايب الطعام والشراب، ويغرق بالمتاع الفاخر من خمر ونساء ورقص وحفلات كان لا بد له من استعباد البشر وامتصاص دمائها واستعباد الشعوب، ولكي يحصلوا على هذا المتاع يبحثون عن المال عن طريق استذلال الأمم ليوفروا لهم المال كما كانوا يفعلون ذلك في البلاد المستعمرة في أيام التخلف البشري، فكانوا يستغلونهم في الحقول وهم مكبلون بالأغلال الثقيلة حتى لا يفروا من أيديهم ويمنعون عنهم الطعام إلا بمقدار ما يمسك حياتهم من الموت كالبهائم والأشجار ويساقون بالسياط ويتمتعون بتعذيبهم ثم ينومونهم في زنزانات كريهة الرائحة تعبث بها الحشرات والفئران حتى إن بعض الزنزانات يوضع فيها العشرات مزدحمين. وكان يبلغ الاستهتار من هؤلاء بالإنسان إلى أنهم كانوا يجلسون في مهرجاناتهم المفضلة وعلى رأسهم الأمبراطور حيث يجتمعون ليشاهدوا الرقيق يتبارزون مبارزة خفيفة يتطاعنون فيها بالسيوف في

أي مكان من الجسم بلا تحرز حتى يسيل الدم وهم يصفقون ويضحكون والهتاف يرتفع وهم يضحكون ويشعرون بالسعادة على دماء البشر وهي تسيل ولربما يقضي بعضهم على قرينه قضاءاً كاملاً فيلقيه صريعاً ميتاً على الأرض قد فقد الحياة. كما أن السيد له قتل الرقيق متى شاء بدون سبب وله حق تعذيبه ولا ترفع له شكوى لغير الله سبحانه[1]. كذلك كان الهنود يعاملون الرقيق في فارس والهند فقد أهدروا إنسانيته إهداراً كاملاً ويحملونه أثقل الأحمال ويكلفونه بأثقل الواجبات مما لا يطيق ولا يعطونهم من الطعام إلا ما يحفظ حياتهم استهانة واحتقاراً لشأنهم.

الرقيق في حضارة اليوم:

وبالرغم من اتهام أعدائنا للإسلام بأنه يسترق البشر فقد ضربوا الرقم القياسي في استذلال البشرية وبرميها في الحضيض فكم قتل الاستعمار الكافر من بلاد المسلمين من ملايين البشر ممن هم أحرار في تونس والجزائر ومراكش والتركستان وبخارى سمرقند والأندلس وأفغانستان الذين يطالبون بالحرية التي هي من بديهيات هذا الوجود ويجبرونهم على لغتهم ومعتقدهم فكم قتل وشرد وأهين من المسلمين ونفي في صحاري سيبريا وغيرها وحتى بلاد العرب التي يسيطر عليها التقدميون كما يزعمون فقد ابتليت بطغاة ليسوا من فصيلة البشر بل أظنهم من فصيلة الوحوش إذاً أية حرية يزعمها هؤلاء الزاعمون؟ فكم أهين هذا الإنسان في عالم القرن العشرين؟. ثم بعد ذلك يتهم هؤلاء الإسلام بأنه يسترق النفوس وهو الذي جارى الأنظمة القائمة في عصرها ضرورة ثم يفتح الباب على مصراعية ليقضي على الرق نهائيًّا بالتدريج أما أم الحضارة في عصرنا الحاضر أمريكا التي تزعم الحرية والديمقراطية وهي كاذبة فهي الدولة التي تقسم البشر إلى طبقات بل لا تقيم للون البشري الأسود أي قيمة فهي التي تكتب على مطاعمها للبيض فقط،

---

(١) محمد قطب: شبهات حول الإسلام.

ممنوع دخول السود والكلاب[1]، ولربما يتسلط هؤلاء البيض على الرجل الأسود فيطرحونه على الأرض ويضربونه بالأحذية إلى أن يسلم الروح والبوليس ـ والشرطة ـ ينظر إليهم لا يتحرك ولا يتكلم، هذه هي الحرية في نظرهم وهذا هو التقدم أما الإسلام الذي يقول ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[2] وفي الحديث: (ليس لابن بيضاء على ابن سوداء فضل إلا بالتقوى) الإسلام الذي يجد فيه بلال الحبشي الرقيق من الحرية في أرض الحرم ما لا يجده أبو جهل وأبو لهب وهما من صميم العرب وهم أهل الوطن يتهم بأنه ضد الحرية ويسترق النفوس. في الإسلام يتهدد عبد مجوسي الخليفة عمر بالقتل ويتأكد عمر من أنه يتابعه ثم لا يحبسه ولا يعذبه ولا يفكر في قتله قبل أن يقتله هو بالرغم من أن ذلك العبد المجوسي من عباد النار لا قيمة له وقد قال عمر رضي الله عنه تهددني العبد ثم يتركه إلى أن ينفذ. أين عمر من زعماء العصر يقتلون الملايين خوفاً ولا تخفى قصة الملونين في أفريقيا على أحد فهم يحرمون من كل الحقوق البشرية ويقتلون لأنهم صاروا يطالبون بالحرية هذا هو منهج بريطانيا في حريتها المزعومة. ويتهم الإسلام بالهمجية حينما يعتبر أسرى الحرب أرقاء معاملة بالمثل الذي هو منهج الأمم في كل العصور. والأمم التي تتلهى بصيد البشر وتقتلهم لأنهم سود البشرة هي المتحضرة لكن الإسلام هو المتخلف الذي يقول رسوله الكريم ﷺ: «إسمعوا وأطيعوا ولو استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة»[3]، إذاً الألوان لا قيمة لها في ميزان هذا الدين العظيم والرق نظام عالمي تجب مراعاته حفظاً لحقوق المسلمين.

ميزان هذا الدين العظيم والرق نظام عالمي تجب مراعاته حفظاً لحقوق المسلمين.

---

(١) محمد قطب: شبهات حول الإسلام.

(٢) سورة الحجرات.

(٣) صحيح البخاري.

الرقيقات في الإسلام:

كما يتهمون الإسلام أيضاً بالهمجية حينما يعتبر أسيرات الحرب رقيقات للمسلمين فيتمتعون بهن في حدود مرسومة، يقولون ماذا بقي من حرية الإنسان والجريمة عندهم لأن الإسلام حرم البغاء. واتخاذ الجواري عندهم مباح الاستعمال للجميع كما كان في الجاهلية الأولى يتخذون الجواري للتأجير كما كان يفعل عليةّ القوم في مكة وهم العلية يتخذون الجواري لهذه المهمة كما كان يفعل أبو جهل وقد أنزل الله سبحانه فيهم: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ﴾[1] علماً أن المسألة مسألة إكراه إضافة إلى إهدار الكرامة البشرية والخلق الرفيع. وجاهلية اليوم التي تزعم الحضارة لنفسها وتهاجم الإسلام هي التي حولت المرأة حرة كانت أم رقيقة إلى ما دون مستوى الحيوان فقد فتحت دور البغاء ووضعت لها التسعيرة الرسمية وحمتها عيون الدولة ورجال الشرطة فهل هناك رق دون مستوى هذا الرق وماذا بقى من كرامة المرأة وهل هذا أفضل من معاملة الإسلام للرقيقات حينما أكرمهن بالحياة في بيوت مسلمة يتمتع بها الرجل وتتمتع هي فيه بنظام رتيب يحفظ كرامتها وتنجب له الأولاد ومنذ أول مولود لها تصبح أم ولد لها أحكام الحرة في أكثر الأحيان. أما باب الحرية فهو مفتوح أمامها بكلمة واحدة تتحول إلى حرة تتمتع بكل مقومات الحرية. إذاً الإسلام صريح والرق له حدود وضوابط لا يتعداها ورق الحضارة المنحرفة لا يعطي الرقيق أي جانب من جوانب الحرية أبداً وليس هناك مصادر تنهي هذا الرق بل ويعتبر هذا الرق حرية في مفهوم العصر الحاضر الذي يسمى الرق ـ البغاء ـ ضرورة اجتماعية لأن الرجل المنحرف لا يريد أن يتقيد بقيود الزوجة والأولاد ونظام الأسرة والنفقات، يريد الاستمتاع دون قيود، يريد امرأة يستمتع بها حيناً يفرغ فيها شهوته دون احترام

---

(١) سورة النور.

لمشاعرها فهو جسد ينزو عليه كل أحد كالبهيمة. الأمم التي تزعم الحضارة هي التي تستعمر بلاد المسلمين وتعتبرهم أرقاء تقسرهم قسراً على تعمير بلادها هي وإذا أردت دليلاً فانظر كيف عمر الهنود لندن فقد أمضوا أعماراً طويلة في خدمة أولئك الأحرار وقدموا من الجهد تحت السياط ما لا تستطيع أن تقدمه المعدات التقنية الحديثة من حفر الأنفاق والسراديب. ولا ننسى ما كان يكلف به الفراعنة الشعب المصري، فمن الذي نقل الأهرام من المناطق الجبلية البعيدة إلى مواقعها الراهنة هو الإنسان المستعبد الذليل في غيبة الإسلام، ولو كان الإسلام موجوداً وقتئذ لحرر هذا الإنسان من الخضوع للإنسان. لكن غيبته الطويلة التي حولت هذا الإنسان إلى شبه حيوان مغلوب على أمره وشعوب العالم اليوم لا سيما في بلاد الإسلام وبلاد العرب بالذات قد فقدوا كل مقومات الحرية فهم يساقون كالغنم سواءاً للتصويت لترشيح طغاة البشر أم إلى السجون المظلمة أم إلى المشانق لا لذنب إلا أنهم مصممون على إسلامهم فأين الحرية لهؤلاء القوم. والعجيب هتافهم حرية وحدة عربية، أظن أن المراد من كلمة حرية التفلت من الدين بل هي الحقيقة وإلا فأين رائحة الحرية؟ أين الحرية أما كلمة الحق حيث إن كلمة واحدة يقولها الخطيب من على المنبر في بيت من بيوت الله يهوي بها في غياهب السجون مدة من الزمن. فأين الحرية؟ وإن العالم في حقيقته الآن صار كله رقيقاً للقادة بل وصار رقيقاً للشهوات.

* * *

الفصل الأول

موقف الإسلام من الرق

عرفنا مما سبق كيف جاء الإسلام في أمم تعتبر الرق جزءاً أساسيًّا من حياتها وأنظمتها، ومن باب المقاضاة كان الرق في الإسلام أمراً لا بد منه حتى لا يقع المسلمون في رق الأعداء، دون أن تكون هناك موازنة في الأمر فشرع الرق ضرورة لا بد منها ويظهر ذلك في نظام تبادل الأسرى وهو نظام عالمي تحتاج إليه الأمة دائماً، ونظام الأسرى تعترف به كل دول العالم إلى يومنا هذا. لكن الإسلام اعتبر الرقيق أخاً للحر كما قال ﷺ: «إخوانكم خولكم أطعموهم مما تطعمون»[1] فهم إخوان بالرغم من الملكية الطارئة فإن الرقيق مازال أخاً لسيده بحيث لا يترفع عليه. كما أن الرقيق محترم الدم حتى من سيده المالك. قال ﷺ: «من قتل عبده قتلناه ومن جدع أنفه جدعناه»[2] وعلى هذا يختلف الأمر بين الرقيق في الإسلام والرقيق في الجاهلية وقد عامل الإسلام الرقيق أحسن معاملة، بحيث لا يكلف من العمل ما لا يطيق وفتح أمامه أبواب الحرية فمن أعتق شركاً له في عبد لزم أن يقوم عليه الباقي حتى يعتق بقيته، كما في الحديث (من أعتق شركاً له في عبد قوم

---

(١) البخاري كتاب الأيمان باب المعاصي من أمر الجاهلية. ومسلم كتاب الإيمان باب أحكام الملوك.

(٢) أبو داود والترمذي وابن ماجه والنسائي. انظر شرح السنة للبغوي.

عليه)[1] بحيث لا يتجزأ هذا الرقيق وهذا من لطف الله سبحانه بهذا الرقيق. كما أن الرقيق كالحر يتمتع بحقوقه الإنسانية من الزواج والتمتع بالحياة الدنيا دون ظلم ويصون الإسلام دمه وعرضه كالحر، فقذفه فيه العقوبة بمقدار ماكلف به من الحدود علماً أنه قد خفف عنه الحدود فهو على النصف ولارجم عليه في الزنا. أما في جزاء الآخرة فله أجر عمله كاملاً ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ﴾[2]، بل إنه ﷺ قد وعد الرقيق أجرين حينما يؤدي الحق كاملاً لربه ولسيده كما في الحديث (ثلاثة يعطون أجرهم مرتين منهم رقيق أدى حق الله وحق سيده)[3].

مؤاخاة الإسلام بين الأحرار والعبيد:

قد آخى بين هاتين الطبقتين حتى لا يشعر الأحرار بالعزة ويشعر إخوانهم الأرقاء بالذلة فقد آخى ﷺ بين بلال بن رباح وخالد بن رويحة، وآخي بين زيد بن حارثة وعمه حمزة، وبين خارجة بن زيد وأبي بكر، بل قد زوج ابنة عمه زينب بنت جحش لزيد بن حارثة وهو في حكم الرق ثم تزوجها النبي ﷺ من بعده مطلقة ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾[4]. أما الفاروق عمر رضي الله عنه فيعارضه بلال الرقيق الحبشي فلا يزيد عمر حينما اشتد عليه بلال رضي الله عنه بقوله (اللهم اكفني بلالاً وأصحابه)[5] وهو الخليفة فلم يفكر في الإيقاع به بل ولا تعنيفه في الكلام كما يفعل أصحاب المناصب اليوم الذين لا يقبل أحدهم أية مفاهمة فضلاً عن المعارضة. ويكفي أن الإسلام قد خفف منابع الرق كلها إلا منبعاً واحداً لا بد منه وهو

---

(١) صحيح البخاري ومسلم كتاب العتق.
(٢) سورة آل عمران.
(٣) البخاري كتاب العلم ومسلم كتاب الإيمان باب وجوب الإيمان.
(٤) سورة الأحزاب.
(٥) محمد قطب: شبهات حول الإسلام.

أسرى الحرب ضرورة لأنه النظام السائد ثم يفتح أبواب الحرية بعد ذلك على مصراعية الواسعين، ولا شك أن هذا الاسترقاق أيضاً لمصلحة الرقيق فإنه ينقله إلى بيئة إسلامية داخل بيت إسلامي ليعيش في كنف هذا الدين، وحينئذ سوف يعتنقه رغبة لا قسراً وهذا هو ما كان من الأرقاء في ظل الإسلام الحنيف طيلة عصور مضت يهتدون من خلال هذا الرق. والإسلام يعتبر الرقيق بنص القرآن في درجة الأحرار في الإحسان قال تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾[1]. انظر يا أخي حق الرقيق مع القرابة وأعظمهم الوالدان ثم اليتامى ولهم حق عظيم في الإسلام ثم المساكين وبعدهم الجيران والمسافر المنقطع ابن السبيل ثم ملك اليمين، بعد ذلك يختم الآية بهذا الختام المناسب للتواضع لهؤلاء المساكين الذين لربما يطمع في ضعفهم المتكبرون فيذلونهم فختم الآية بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ إذاً التواضع لهؤلاء الأرقاء يجلب محبة الله سبحانه أما التكبر على هؤلاء المساكين المستضعفين فهو الذي يجلب غضبه سبحانه لهؤلاء إذاً العلاقة بين السيد والرقيق ليست علاقة استعلاء واستعباد وتسخير إنما هي علاقة قرابة تصل إلى حد الميراث فالولاء صلة توجب الميراث ومولى القوم منهم إذاً هي علاقة قرابة متينة تحفظ لهم حتى النسب فينسب إلى سادته لذلك يعتبر السادة أهلاً للرقيق في قوله سبحانه: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾[2]، إذاً لها أهل فالصلة صلة قرابة ولا بد من إيتاء الأجر وهو الصداق فقال فتياتكم فنسبهن إليهم وقال

(١) سورة النساء.

(٢) سورة النساء.

بإذن أهلهن فلهن أهل، وقال وآتوهن أجورهن وهي المهور، كما قبل ذلك بعضكم من بعض، فأشار إلى الأصل فالأرقاء والأحرار بعضهم من بعض يرجعون إلى أصل واحد لا فرق. كما جعلهم إخواناً للسادة كما جاء في الحديث (إخوانكم خولكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم)[1] أي تشريف للرقيق وتقدير أعظم من ذلك، هو أخ يجب أن تطعم من جنس طعام السيد وكذلك الكسوة، كذلك لا يكلف بالأعمال الشاقة التي ترهقه وتجب إعانته على هذا العمل، وزيادة في احترام مشاعر الرقيق يقول الرسول ﷺ: «لا يقل أحدكم هذا عبدي وهذه أمتي وليقل فتاي وفتاتي»[2] ويقول أبو هريرة استناداً إلى هذا الحديث حينما رأى رجلاً يجري وراءه عبده (إحمله خلفك فإنه أخوك وروحه مثل روحك). هذه هي نظرة الإسلام إلى الرقيق. أما نظرة الجاهليات إليه فهي تعتبره جنساً آخر من غير جنس السادة يستعبد ويستذل فيقتل ويعذب ويكوى بالنار ويسخر في الأعمال الشاقة القذرة ولقد شهد الصليبيون بحسن معاملة الإسلام للرقيق وأنها بلغت درجة لم تبلغها أية معاملة في نظام آخر حتى أن الرقيق إذا حرر يأبى مغادرة سيده السابق لما يجده من تقدير وإكرام وهذه هي المنهج الكريم الذي دعى إليه هذا الدين وقد طبق طيلة الفترات التي طبق فيها الإسلام وما زال الإسلام يحرر هؤلاء الأرقاء طيلة الفترة الماضية، حتى لقد توقفت منابعه وجفت. أما مصادرة الكثيرة فقد استطاعت في مدة وجيزة القضاء على الرق نهائيًّا حتى لا تكاد الآن تشاهد رقيقاً على وجه الأرض. وكيف يبقى الرق وقد تعطلت الحروب الإسلامية منذ قرون عديدة لم يرفع فيها علم الإسلام على

---

(١) رواه البخاري.

(٢) عن أبي هريرة ولفظه لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي كلكم عبد الله وكل نسائكم إماء الله ولكن غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي. انظر شرح السنة ص ٣٥٠ ـ ٣٥٢.

وجهه الصحيح إلا ما شاء ربك، هذا مع كثرة المصادر وتنوعها فلا يكاد هذا المسلم يفعل خطأ يحتاج إلى كفارة إلا ويكون من أبرز أنواعه عتق رقبة، حتى ارتفعت أسعارها بناءً على كثرة الطلب وقلة العرض بسبب توقف المورد.

* * *

الفصل الثاني

في مصادر الرق وحرص الإسلام على تحرير الأرقاء

جاء الإسلام وموارد الرق متعددة جدًّا بطريقة عشوائية غير منضبطة مما أدى إلى إكثار عدد الأرقاء وامتهان بني البشر حيث صاروا سلعة لكل طالب خصوصاً التلصص وسرقة البشر لا سيما الأطفال البسطاء. ومن أهم موارده ما يأتي:

١ ـ أن يبيع الإنسان نفسه حينما تكون هناك حالات ملحة من فقر وحاجة.

٢ ـ الرق بالوراثة بحيث يصبح أولاد الأرقـاء أرقاء بناءاً على الأصل.

٣ ـ قد يضطر الرجل ذو الأولاد الكثيرين الذين قد يعجز على إعالتهم مع فقره إلى بيع بعضهم ليحافظ على البقية وهذا يوجد حتى الآن في بعض البلاد المتخلفة اقتصاديًّا واجتماعيًّا.

٤ ـ السرقة فقد تهبط عقلية البشر لسرقة بعض الفقراء والأطفال العزل وبيعهم ليصبحوا بعد ذلك أرقاء جيلاً بعد جيل ويلاحظ ذلك في الجنس الأسود كثيراً.

٥ ـ الاسترقاق بسبب الحرب فأسرى الحرب يعتبرون أرقاء في قوانين العالم قبل الإسلام وبعده إلى يومنا هذا بما يسمى بالأسرى.

٦ ــ إضافة إلى استرقاق أمة لأمة وما الاستعمار الغربي منا ببعيد حينما تقاسم ميراث الدولة العثمانية.

٧ ــ وكذلك الاسترقاق بسبب العمل في الأرض وتسخير بني آدم عبيداً يكدحون لمصلحة طبقة مترفة كالعبيد الأرقاء في عالم الإقطاع والهمجية، وهذا يتكرر كثيراً في البلاد ذات الطبقتين المتباينتين ماديًّا واجتماعيًّا مما كان سبباً في ثورة العمال والاشتراكية الكافرة التي جاءت زاعمة أنها سوف تخلص العالم من الإقطاع وتغني العالم أجمع.

فلما جاء الإسلام ألغى كل هذه المنابع الآسنة إلا منبعاً واحداً للضرورة وهو أسرى الحرب حيث يكون هناك توازن وانضباط لحياة الناس فلم يأت الأسلام لإلغاء طبائع البشر وإنما جاء لتهذيبها، وليس من المعقول استعباد الكفار لأسرى الحرب المسلمين دون أن تكون هناك مقابلة من الجانب الآخر حيث تبادل الأسرى حينما يحتاج إلى ذلك كما هو متبع اليوم في نظام الحرب عالميًّا. فاسترقاق أسرى الحرب ضرورة ملحة في نظام الإسلام الحنيف إضافة إلى أن القرآن جفف كثيراً من هذا المنبع حيث يقول سبحانه عن الأسرى ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾[1] فلم يذكر الاسترقاق مع أنه أمر تشريعي حيث إنه مؤقت الزمن ومعاملة بالمثل. ونلاحظ هنا أن الله سبحانه رغب في المن وقدمه على الفداء ثم جاء الفداء في الدرجة الثانية لمن هو بحاجة إلى فداء. علماً أن أسرى الحرب حقهم في الأصل هو القتل ولا شك أن أسرهم واستعبادهم أسهل عليهم من القتل. لذلك نعرف موقف القرآن الكريم من أسرى بدر وهي أول معركة في الإسلام كيف لأمر الله سبحانه رسوله ﷺ على أخذ الفداء من الأسرى فقال سبحانه: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[2] ثم يقول سبحانه:

---

(١) سورة محمد.

(٢) سورة الأنفال.

﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ حتى قال ﷺ لو نزل عذاب ما نجا منه إلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأن رأي عمر أن يقتل هؤلاء الأسرى حتى يرهب العدو باعتبارها أول معركة في الإسلام. إذاً يعتبر الأسر والاسترقاق لهؤلاء المحاربين منة من المسلمين حيث لم يقتلوهم وكان جزاؤهم القتل. أما النساء والأطفال الذين يتحولون إلى أسرى تلقائيًّا ولو لم يحاربوا فلعل من أكبر أهداف الإسلام إنقاذهم من الكفر حيث يتربى الأطفال في أحضان الإسلام ليكونوا مسلمين يعـودون إلى الفطرة الأصيلة، وكذلك النساء حينما تتحول إلى عصمة المسلمين، لذلك لا يعتبر أسرى المسلمين من إخوانهم المسلمين أسرى ولا يأخذون هذا الحكم، إذاً الأسر بديل عن قتل المقاتلين، ويلاحظ حكم الله في بني قريظة حينما نقضوا العهد مع الرسول ﷺ يوم الأحزاب كيف عاملهم سعد بن معاذ بحكم الله سبحانه أمر بقتل مقاتليهم وسبي النساء والأطفال فلم يقتل منهن أحداً فعدم قتلهن منة من الله سبحانه هذه هي حقيقة الرق منه سبحانه وعفو وتجاوز ولولاه لكان القتل الأكيد كما فعل بالبالغين من الرجال. ولا أظن هذه المعاملة الرحيمة توجد في غير هذا الدين القويم كما نشاهده في حروب جاهلية اليوم وهي تبيد الأطفال والنساء قبل الرجال في المبيدات الجماعية فقد رأينا آلاف الأطفال الأفغان قد قصفهم العدو بالمواد السامة التي يقذفها الشيوعيون الحاقدون على صورة حلوى أو فراشة أو قلم أو لعبة طفل يأخذها الأطفال فتنفجر في أيديهم وتمزقهم كل ممزق. فكم يعاني العالم اليوم من جراء هذه الحروب اللاإنسانية التي تقتل الملايين من البشر لا تفرق بين مقاتل وشيخ هرم وطفل بريء وعجوز مسكينة تهدم المنازل وتبدد الثروات. هذا كله في عصر الوعي والتقدم الفكري والحضاري فكيف وضع هذا العالم في عصر التخلف أيام الخيمة والبعير.

أما حرص الإسلام على تحرير الأرقاء:

فإن ذلك يبرز في هذا الدين من أول وهلة حيث إن أسرى الحرب يفتح

المجال أمامهم إلى الحرية فوراً ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾[1] بحيث يقدم هنا المن وهو الإطلاق المجاني عفواً دون مقابل ولذلك جاء بلفظ التأكيد منًّا أي تمنون منًّا وقابله بالفداء الفوري ﴿ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ وجاء الثاني بلفظ المصدر المؤكد أيضاً أي تفدون فداءاً وهو أبلغ في الحث على المن أو الفداء وكلاهما دون الرق أو القتل. لذلك نجد أن الرسول ﷺ لم يسترق واحداً من أسرى بدر السبعين فقد آخذ منهم فداءاً وهو قليل من المال لا يعجز عنه الكثير منهم. أما الذين عجزوا فقد كلفهم الرسول الكريم ﷺ بأن يعلم كل واحد منهم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة. أبعد ذلك يقال إن الإسلام يسترق البشر وهم الذين يحررونهم قاتلهم الله أنى يؤفكون. كما عامل أهل نجران ﷺ حيث أخذ من نصارى نجران الجزية وأطلق أسراهم، ليضرب المثل في حسن التعامل لمن يريد أن يهتدي إلى الدين الحق. وهذا التعامل بالحسنى هو منهج الرسول ﷺ حتى مع أعدائه كما فعل بأهل مكة الذين حاربوه وكذبوه وأخرجوه من أرضه فقال إذهبوا فأنتم الطلقـاء، مما كان سبباً في دخولهم في الإسلام كافة وهذه هي نتائج العفو عند المقدرة.

أما الرقيقات:

فقد كن قبل الإسلام نهباً للطامعين حيث كانت أعراضهن نهباً للذئاب حيث البغاء وكان هذا مصير أسيرات الحرب ينزو عليهن العدد من الرجال بدون قيد ولا شرط لكن الإسلام عامل الرقيقات غير هذه المعاملة الشرسة فقد اعتبرهن إنسان محترماً يجب الإحسان إليه وبذل المعروف إليه وحينما يرغب فيها مالكها فعليه أولاً أن يتأكد من حصة مورد هذا الرق ثم يطؤها بملك اليمين فإذا أنجبت أول مولود صارت أم ولد لها ما للحرائر في كثير من الأمور لا يجوز بيعها، كما لا يجوز أن يطأها حتى تستبرأ بحيضة ليتأكد من براءة

---

(١) سورة محمد.

الرحم لأنه لا يجوز إدخال الماء على ولد الغير، كما قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسقي ماءه ولد غيره»[1]. وهي في حياتها مع هذا السيد امرأة كريمة محترمة لها حقوق وحرمة وتجد من المتاع الجنسي ما تجده الحرائر، ورقها كما أسلفنا مؤقت حتى تأتي بالولد الأول. وهل هناك حرية تمتعت بها امرأة كالحرية التي تمتعت بها صفية بنت حيي بن أخطب حيث صارت أمًّا للمؤمنين رضي الله عنها. أما أن يصبح الرق صفة من صفات هذا الإنسان فإن الإسلام يفتح طرقاً كثيرة أمام الرقيق ليصبح حرًّا له ما للأحرار فيعدد المصادر ويرغب فيها ويعتبرها من أفضل الأعمال، يقول الله تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾[2] وحينما نبحث في هذه المصادر نجدها لا تتوقف أبداً ما دام الأرقاء موجودين وأهمها:

١ ــ حث المسلم على العتق وبيان أجره وما أعد الله سبحانه من الأجر لمن أعتق رقبة بحيث يعتق الله جسده من النار.

٢ ــ كفارة القتل قد جعل الله عز وجل كفارة القتل الرقبة في الدرجة الأولى قبل أي شيء آخر من أجل إحياء نفس بدل النفس الميتة لأن التحرر إحياء يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـٔٗاۚ وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ﴾[3] ثم يقول سبحانه بعد ذلك ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ﴾[4] ولما كانت الرقبة أنفع للمجتمع قدمها على الصيام حينما لا يجد أما لو وجد فلا بد من الرقبة هذا بالنسبة للقتل الخطأ أما العمد فجزاؤه جهنم فلا كفارة فيه

---

(١) أبو داود. بلفظ (فلا يسقي ماءه زرع غيره) والترمذي بلفظ (ولد غيره).

(٢) سورة البلد.

(٣) سورة النساء.

(٤) سورة النساء.

حيث إنه أعظم من أن يكفره هذه عقوبته ما لم يتب وقد خرج مخرج الوعيد.

٣ ــ كفارة الفطر في رمضان بجماع عتق رقبة كما جاء في الحديث الصحيح بالنسبة للرجل الذي جاء إلى النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله هلكت وقعت على أهلي في رمضان فقال له ﷺ «هل تستطيع أن تعتق رقبة... الحديث»[١].

٤ ــ كفارة الظهار وهو أن يحرم الرجل زوجته على نفسه بحيث يقول أنت علي كظهر أمي أو نحوه وهذا محرم وتدخل في التشريع بحيث يحرم ما أحل الله له وكفارته تبدأ بالعتق يقول الله سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ﴾[٢] وهذا تعجيل للكفارة ما دام بحاجة ضرورية إلى التماس.

٥ ــ كفارة اليمين وهذا اليمين يتكرر كثيراً على ألسنة الناس وأول كفارته عتق رقبة يقول الله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍۖ ﴾[٣] انظر يا أخي إلى هذه الكفارة تأخر فيها عتق الرقبة مع أنه على باب التخيير لكثرة الأيمان تخفيفاً على الحالف لكن عتق الرقبة هو أحد مكفرات الحنث باليمين.

٦ ــ تحريض السادة على مكاتبة الأرقاء وهو بيع العبد على نفسه منجماً أي مقسطاً بحيث يدفع كل سنة أو شهر قسطاً من محصوله ويفتح له مجال العمل والكسب ويكون حر العمل يختار له العمل الذي يناسبه ويدفع الأقساط المطلوبة وهو ما أشار الله تعالى إليه بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا

---

(١) صحيح البخاري ومسلم كتاب الصيام.
(٢) سورة المجادلة.
(٣) سورة المائدة.

مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾[1] وهذه المكاتبة تحرير للعبد بعد مدة وجيزة من المكاتبة لا سيما وأن الله سبحانه أمر بمساعدته حتى تنتهي الأقساط بسرعة فيقول: ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾[2] وهي الصدقة والتسامح بالأقساط مساعدة لذلك المسكين.

٧ ــ ومن حرص الإسلام على التحرير بسرعة إن من أعتق شركاً له في عبد قوم عليه الباقي كما الحديث الصحيح السابق.

٨ ــ صرف جزء من مال الدولة لإعتاق العبيد كما فعل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في أفريقيا حينما كتب له يحيى بن سعيد ماذا يفعل بالأموال الكثيرة التي يحصل عليها ولم يجد فقراء فقال اشتر بها عبيداً وأعتقهم.

٩ ــ ومن حرص الإسلام على تحرير الأرقاء أن هزل العتق يعتبر جدًّا (ثلاثة هزلهن جد ومن هذه الثلاثة العتاق)[3].

إذاً الإسلام هو أكبر مشجع للحرية يفتح أمام الأرقاء طرقاً عدة تكفل القضاء على الرق في مدة وجيزة بشرط تطبيق الإسلام في كفاراته وتعاليمه. وإن وجد تخلف عن تحرير الأرقاء وتشجيعهم على الحرية فسببه الإساءة في التعامل وعدم تطبيق الإسلام في القضاء عليه.

* * *

---

(١) سورة النور.

(٢) سورة النور.

(٣) الترمذي وحسنه. انظر الإرواء م/٦.

الفصل الثالث

حقوق الأرقاء ووجوب الإحسان إليهم

تقدم الحديث عن الأرقاء (إخوانكم خولكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم)، وعليه فإن نظرة الإسلام إلى الرقيق تختلف في الإسلام عن أي نظرة أخرى في أي نظام آخر أو ملة حيث يقرر الأخوة بينهم وبين الأحرار فالملكية طارئة ومؤقتة، وإلا فالأصل الأخوة لأنهم جميعاً يرجعون إلى أصل واحد آدم وحواء، بالرغم من هذا النقص في الواقع. فبالنسبة لأكل السيد يجب أن يكون أكل الرقيق من جنسه أطعموهم مما تطعمون واكسوهم فإن التفاوت الكبير هو الذي يكسر قلوب الفقراء ويحقدهم على الأغنياء، مما يسبب فساداً عريضاً في الأرض، لهذا جاءت كل تعاليم الإسلام لبناء حياة التقارب بين هاتين الطبقتين ومن أجل ذلك شرعت الزكاة وحرم البذخ والإسراف. إذاً فحقوق الأرقاء مكفولة لهم في ظل هذا الدين الحنيف بحيث لا يشعر بالنقص والهضم كما يشعر به اللون الأسود الحر في بلاد الغرب كما كانوا يساوون بينهم وبين أخس أنواع الحيوان حيث يكتبون على مطاعمهم ممنوع دخول السود والكلاب. هذا حر أسود في نظر الغرب يساوي الكلب وذلك رقيق مسكين في نظر الإسلام يساوي الحر سيده المالك سواء بالطعام أو الشراب أو الكسوة أو المكافأة الجسدية فيقتل قاتل عبده ويجدع أنفه إن جدع أنف عبده ويخصى إن خصى عبده (من قتل عبده قتلناه ومن جدع عبده جدعناه ومن خصى عبده خصيناه) كما ضمن لهم الإسلام سهولة العمل حيث

جعل لهم طاقة محدودة فليسوا مخلوقين من الحديد بل من لحم ودم فيقول ﷺ: «ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون»[1] وهذا في غاية الرأفة والرحمة بخلقه سبحانه. إذاً فحقوق الأرقاء في الإسلام كحقوق الأحرار وأن ملك الأحرار الأرقاء مدة محدودة، ونستطيع أن نلخص حقوقهم فيما يأتي:

١ ــ إثبات إنسانيته إنسانية كاملة بحيث لا تختلف عن إنسانية سيده فهو إنسان محترم في دينه وعقله وجسده وآرائه وجميع أموره، إنسانية محترمة لا يجوز التعدي عليها أو الحط من شأنها وتنقصها أو السخرية منها.

٢ ــ إثبات جزائه في الأخرة بحيث يجزى بحسناته ويعاقب على سيئاته كالأحرار سواء بسواء ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ﴾[2] أيًّا كان هذا الذكر وأيًّا كانت هذه الأنثى الأحرار والعبيد على حد سواء بل إن الله سبحانه يعطي الرقيق زيادة جزاءاً على صبره في هذه الحياة على الرق وضعف النسب خصوصاً حينما يؤدي حق الله وحق سيده كما جاء في الحديث (ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين منهم مملوك أدى حق الله وحق مواليه)[3] ذلك لأنه يتحمل مسئوليتين: مسئولية العبادة لله سبحانه ومسئولية الرق لسيده فإذا أدى الحقين كان له الجزاء مكرراً وإذا خان سيده أو كان آبقاً خسر خسراناً مبيناً.

٣ ــ له حق الإكرام الإنساني لا سيما إذا كان مسلماً فإنه يتمتع بسائر الحقوق البشرية وتحترم محارمه ويحترم فراشه وزوجته وأولاده كسائر بني آدم ويضاف إلى كل ما سبق حق الإسلام ويكون له الحق الأعظم وتكون الأخوة الإسلامية والمحبة التي هي أوثق عرى الإسلام ويكون له من المحبة بمقدار تطبيقه لدينه.

---

(١) تكملة حديث (إخوانكم خولكم).

(٢) سورة آل عمران.

(٣) البخاري كتاب العلم. باب تعليم الرجل أمته وأهله.

٤ ــ لا يجوز التعدي على جسده بضرب أو قتل أو تشويه كما سبق في الحديث (من قتل عبده قتلناه ومن جدع عبده جدعناه ومن خصى عبده خصيناه) لأن جسد العبد محترم كسائر البشر فيعامل من هذا الجانب الكريم معاملة إنسانية كريمة.

٥ ــ وجوب إطعامه إطعاماً يليق بالإنسان بل كطعام السيد وكسوته بحيث لا يشعر السيد ولا أهله بذلة الرقيق أو نقصه عن بني جنسه من البشر.

٦ ــ عدم إرهاقه بالأعمال الشاقة مراعاة لتركيبه الجسدي وطاقته المحدودة التي هي طاقة سائر البشر عامة.

الفصل الرابع

في التفرقة العنصرية

مما سبق ندرك وحدة البشر في أصله ومنشئه وواقعه فهو يرجع إلى أصل واحد فقط يقول عنه الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[1] فانظر يا أخي كيف وحدث هذه الآية الكريمة أصل البشر جميعا بنفس واحدة والأم واحدة زوجها وبدأ الآية بتقوى الله ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ وختمها بتقوى الله تأكيداً. ثم ذكر الأرحام تذكيراً بهذا الأصل فأمر باتقائها بعد الأمر بتقوى الله سبحانه وتقواها عدم قطيعتها أي واتقوا الأرحام فلا تقطعوها كما قاله طائفة من المفسرين. كما عبر سبحانه في مكان آخر بنفس التعبير الكريم عن وحدة هذا الأصل فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[2] وهذه الآية ركزت على وحدة أصل البشرية من خلال مقاطعها المتعددة:

١ ـ ذكر وأنثى إذاً الأصل واحد فالأحرار والعبيد يرجعون إلى هذين فقط.

---

(١) سورة النساء.

(٢) سورة الحجرات.

٢ ــ شعوباً وقبائل هذه هي فروع هذا الذكر وتلك الأنثى.

٣ ــ لتعارفوا إذ ليس سر التفرق إلى شعوب وقبائل هو التفاخر بل التعارف ليعرف الأب أبناءه والأبناء أباءهم والعشيرة عشيرتهم فقط فلا مجال للتفاخر والكبرياء ما دام الأصل واحدا.

٤ ــ إن أكرمكم عند الله أتقاكم وهذا هو الميزان الحقيقي لكل الناس فليس الكرم بالنسب ولا بالحسب ولا بالمال ولا بالمركز لكن بالتقوى فلربما رقيق مسكين مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله تعالى لأبره. والموازين عند الله واضحة والمعيار هو التقوى فمن كان أتقى لله سبحانه فهو النسيب الكريم وإن كان عبداً حبشيًّا ولهذا لما اختلف بلال الحبشي مع أبي ذر الغفاري رضي الله عنهما ولطم أبو ذر بلالاً وقال له يا ابن السوداء غضب الرسول ﷺ لهذا الأمر وقال ﷺ: «ليس لابن بيضاء على ابن سوداء فضل إلا بالتقوى» فما كان من أبي ذر رضي الله عنه إلا أن وضع خده على الأرض وطلب من بلال أن يطأ على خده حتى لا يشعر بهذه العزة اعترافاً بخطئه رضي الله عنه.

٥ ــ إن الله عليم خبير بحيث لم يصدر هذا الأمر بالتسوية بين بني آدم إلا عن خبرة وعلم فالناس خبرتهم محدودة والله هو الذي يعلم من يستحق الكرم ولذلك فإن علمه سبحانه وخبرته يقضيان بالتسوية بين الناس ولا فارق إلا بالتقوى.

موقف الإسلام في صدره الأول من هذه التفرقة:

جاء الإسلام والجاهلية تفرق بين الأحرار والعبيد تفرقة فظيعة لا يعترف بها العقل الإنساني فكان العبيد بدرجة الحيوان ولا يسمح لهم بمزاولة المهن الشريفة أبداً بل مهنتهم الحدادة ونحوها أما السادة فلهم الفروسية وركوب الخيل ولا يمكن أن يتنازل العربي الشريف في نظرهم إلى هذه

المهن المحتقرة وكان الأرقاء في نظرهم دون مستوى الإنسان بكثير ويعذبونهم ويتمتعون بذلك كما كان يفعل السادة ببلال بن أبي رباح رضي الله عنه يجرد من ملابسه في شدة الظهيرة بمكة وتوضع عليه الحجارة السوداء الحارة لتشوي جلده شيًّا، وكما كان يفعل بغيره من العبيد وضعيفي النسب كما عاملوا صهيباً الرومي مثل هذا حينما وقفوا له بطريق الهجرة ولم يسمحوا له بها حتى أعطاهم كل ماله ولحق برسول الله ﷺ. لكن الإسلام دين البشرية الخالد لم يعترف بشيء من هذه التصرفات فوضع الميزان الحقيقي للبشر ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾. فتغيرت المعايير بعد الإسلام فصار بلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي أفضل من أبي جهل وأبي لهب الذين هم ألصق بنسب رسول الله ﷺ من غيرهم فنزلت آيات تثني على صهيب رضي الله عنه ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾[1] وجاءت سورة كاملة تسب أبا لهب عم الرسول ﷺ وتسب زوجته ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ ﴾[2] فأدنى النبي الكريم الأباعد من المسلمين وأبعد الأقارب وقال عن سلمان رضي الله عنه: «سلمان منا آل البيت»[3] وقال عن بلال «يا بلال ما دخلت الجنة إلا سمعت حفق نعليك أمامي في الجنة»[4] نعم يسبق الرسول ﷺ إلى الجنة وهو عبد رقيق. وهكذا كل حياة النبي ﷺ كانت على هذا المنهج الرابطة رابطة الدين والأخوة أخوة العقيدة أما النسب فيخضع للدين وتنفصم رابطة النسب إذا فقد الدين. فأين أصحاب الفخامة الذين يزعمون لأنفسهم مكانة فوق مكانة البشر. وأين الذين يعتزون بأنسابهم ويعتبرون النسب هو مقياس السعادة. وأين الذين

(١) سورة البقرة.
(٢) سورة المسد.
(٣) الطبراني والحاكم. قال الألباني ضعيف جدًّا انظر ضعيف الجامع رقم ٣٢٧٢.
(٤) بنحوه البخاري كتاب العلم ومسلم/٢٤٥٨.

يتهمون الإسلام بالتفرقة العنصرية. إنهم يعلمون هذه المواقف للإسلام ولكنهم لا يعقلون. وهذا المنهج هو منهج المرسلين من قبل فكلهم بعثوا بهذا المبدأ القويم الحب في الله والبغض في الله وتغليب رابطة الدين على النسب ولوحدة البشرية في الأصل وتفرقهم بسبب الدين أمثلة:

١ ـ إبراهيم عليه الصلاة والسلام تبرأ من أبيه، السبب رفضه للملة ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[١]. ثم يتبرأ من أبيه بالرغم من صلة النسب ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾[٢].

٢ ـ نوح صلى الله عليه وسلم وقصته مع ابنه الكافر معلومة حينما رفض دين أبيه وسأل الله بعد ذلك وقال: ﴿ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ ﴾ رد الله عليه سبحانه ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾[٣].

إن منهج الأنبياء يتضح بأتباعهم جميعاً فأول من يتبعهم هم الفقراء الذين يسمونهم أراذلهم حسب إدراكهم القاصر وإلا فهم علية القوم حقيقة هم المفكرون فالكفار دائماً يقولون للأنبياء صلى الله وسلم عليهم ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾[٤]، ويقصدون بالأراذل فقراء المؤمنين، ولقد سماهم الله عز وجل ـ أي أكابر الكفرة ـ الملأ كما تكرر ذلك في سورة الأعراف: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾. إذاً ليس الأتقياء أراذل القوم إنما هم المفكرون وأصحاب الرأي السديد فإن أكبر عقلية على وجه الأرض هي

(١) سورة الممتحنة.
(٢) سورة التوبة.
(٣) سورة هود.
(٤) سورة هود.

عقلية المؤمن الكريم الذي يشاهد بعين البصيرة المغيبات فيخترق الحجب ويؤمن بما وراء المحسوسات. وعقلية هؤلاء أعظم من عقلية المفكرين المعاصرين الذي اكتشفوا شيئاً من عجائب هذا الكون ودقيق المصنوعات مثل الكمبيوتر ونحوها لأنها قشور والله تعالى يقول عنها: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾[1] إذاً كل هذه المصنوعات الهائلة ظاهراً أي قشوراً أما اللب فهو الإيمان بالآخرة وسائر المغيبات التي لا يدركها إلا المؤمنون بالغيب، الذي يخشون ربهم بالغيب.

التفرقة العنصرية في دنيانا اليوم:

ولما بعد الناس عن منهج النبوة الكريمة وخلف خلوف تنكبت عن المنهج القويم أحيت هذه الفتنة وأبتليت بهذه البلية فصار الناس قسمان:

١ ــ قسم قبيلي له الحرية الكاملة يعتبر نسبه عريقاً يزوج بمن شاء من الحرائر لا يسأل عن دينه ولا عن منهجه ما دامت له هذه الحصانة ولو كان أبا جهل هذه الأمة يعتز بهذا النسب ويفتخر به يطعن من خلاله بأنساب الآخرين ولا شك أن هذه هي الجاهلية بحذافيرها (ثلاث من الناس هن بهم كفر الفخر بالأحساب والطعن بالأنساب)[2] إنها نخوة الجاهلية البغيضة التي حاربها الإسلام حينما بنى العزة على الإيمان ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3].

٢ ــ وذلك الآخر خضيري مجهول القبيلة في نظر العصر وكأنه لا يرجع إلى الأصل الكريم السابق الذكر والأنثى في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾[4] فهو في نظر العصر ناقص النسب لا يتزوج إلا بمثله من مجهولات القبيلة ولو كان تقيًّا صالحاً.

---

(١) سورة الروم.

(٢) لم نجده بهذا اللفظ وإنما بلفظ اثنان في الناس هما بهم كفر الطعن في النسب والنياحة على الميت. مسلم كتاب الإيمان.

(٣) سورة المنافقون.

(٤) سورة الحجرات.

والإسلام لا يعترف بهذه التفرقة أبداً ومسئولية هذه التفرقة على أصحابها والإسلام منها براء فلا أصل لها في دين الله تعالى ولم يقل بها إلا نزر قليل من الفقهاء لا دليل عليها أليس الرسول ﷺ زوج ابنة عمته زينب بنت جحش وهي امرأة من صميم العرب بزيد بن حارثة الذي يعتبر في درجة الأرقاء والموالي ثم يتزوجها الرسول ﷺ من بعده. وبلال الحبشي يتزوج بأخت عبد الرحمن بن عوف، وقد درج المسلمون في العصور المفضلة على هذا الطريق يعتبرون المعيار الصحيح هو ميزان التقوى والإيمان ولا ينظرون إلى الفوارق الطبقية ولا الإقليمية ولا غيرها والعلم كله يرجع إلى قبيلة معروفة النسب ﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ إذاً جميع أفراد الأمة قبائل عرفها من عرفها وجهلها من جهلها، أما التزويج فميزانه الدين والخلق (إذا خطب منكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض)[1] وقد ظهر الفساد العريض اليوم بسبب هذه التفرقة والعزوف عن الصالحين في كثير من الأحيان. أما جاهلية اليوم والتي تزعم الرقي والتقدم وتدعي حمايتها لحقوق الإنسان فهي التي لا تقيم للون الأسود أي قيمة ولو كان ذا نسب كما كانت تعامل السود في أمريكا ويخصص لهم مساكن ومعاملة ومطاعم لا يشاركون فيها البيض وينظرون إلى الجنس الأسود وكأنه من فصائل الحيوان لذلك يعانون من آثار الحضارة المزعومة في أمريكا ما لا يلاقيه الأيتام على موائد اللئام. كذلك ما يعامل به الملونون في هذا العالم واحترام اللون الأبيض واعتبارهم في القمة وغيرهم مرتبة ثانية أو ثالثة ولو حكم الإسلام هذا العالم لغير هذه المفاهيم وتلك التصرفات. حيث إن اللون والجنس لا وزن لهما ولا أثر في حياة الناس وفي مفهوم هذا الدين، وما أحدثه الناس من معايير خاطئة فالدين غير مسئول عنها. صحيح أن هناك أدلة محدودة وردت في فضل العرب ولسانهم لكن هذا الفضل

---

(١) الترمذي وقال حسن غريب انظر إرواء مجلد ٦ حديث ١٨٦٨.

مخصوص بمن آمن بهذا الدين واعتنقه وأسلم وجهه لله وهو محسن كما جاء في الحديث (خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا)[1] فانظر يا أخي قوله ﷺ إذا فقهوا فهو شرط للخيرية فالأمر أمر الفقه لا أمر الأصل وهكذا ندرك الفرق بين الإسلام والجاهلية في كل مراحلها قبل الإسلام وبعده وأن أي تخلف يصيب البشرية في تكوينها الفطري أو نظامها الاجتماعي إنماهو بسبب بعدها عن دين الله القويم الذي جاء لهداية البشرية وإكرامها وتنظيم حياتها. وبمقدار ما تبتعد هذه الأمة عن هذا الدين تصاب بالتخلف والرجوع إلى الوراء لأنها تفقد أهم مقومات الرقي والتقدم الحضاري السليم. أما ما يقوله أعداء الإسلام عن هذا الدين من أنه هو الذي يفرق بين الطبقات فهذا كذب وبهتانٌ ولعلك يا أخي من خلال تلك الجولة تدرك من هو المسئول عن هذه التفرقة. أليس الإسلام قبل أن تكون له دولة هو الذي لم شعث العالم فدعا الناس جميعاً إلى وحدة لا تقبل التفرقة ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾[2] أي وحدة تفكر أنها تستقطب العالم كله تحت راية واحدة فضلاً عن تحقيق ذلك بل وحدة بين العالمين الجن والإنس ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾[3] إنها العقيدة الكريمة السمحة التي وحدت العالم تحت راية واحدة التقى فيها العربي بالهندي بالبربري إلى غير ذلك من أجناس البشر المشتتين في الأرض تحت راية واحدة وخليفة واحد يسير المسلم في أرجـاء المعمورة لا تستوقفه نقطة تفتيش ولا دائرة جوازات تسأله عن هويته تلك الدولة العملاقة التي لم يطغ فيها أبيض على أسود ولا حر على رقيق كلهم أمام شرع الله سواسية يجلس الحر بجوار الرقيق على كراسي الحكم كما يجلس خليفة المسلمين مع أحد

---

(١) البخاري كتاب الأنبياء ومسلم كتاب الفضائل.
(٢) سورة الأعراف.
(٣) سورة الأحقاف.

السوقة لا فرق بينهما في شرع الله سبحانه ونحن لا نشك في ذلك فهذا منهج أصيل في هذا الدين. لكن هل ستعود للأمة الإسلامية هذه الحضارة بحيث يرجع الناس إلى هذا النظام الكريم يتنفسون الصعداء ويجدون حقيقة الحرية والمساواة، لا شك أن هذا ممكن جدًّا وإن كانت الإرهاصات لا تدل على ذلك إلا أن هذه الصحوة المباركة أكبر دليل على العودة الحميدة. وحينما يرجع الناس إلى دين الله تعالى تتضح الرؤية وتصحح مفاهيم كانت مطمورة منذ زمن بعيد بمقدار بعد هذا العالم عن دينه ونحن نقول كما قال سبحانه: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ (٥٢)﴾.

* * *

الباب الرابع

- حقوق المسلم على المسلم
- حل المشاكل التي تحدث بين المسلمين
- العبادات مصدر أخوة بين المسلمين
- أثر المعاملات في تقوية أواصر المحبة
- سلوك المسلم وأثره في غرس المحبة
- العلاقات المالية بين المسلمين

الباب الرابع

العلاقات بين المسلمين

وفيه ستة فصول

مقدمة الباب:

يقول الله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[1] أفادت الآية الكريمة أن الناس كانوا على منهج واحد هو الإيمان الموافق للفطرة، التي فطر الناس عليها يوم خلقهم حنفاء في ظهر أبيهم آدم، كما أخبر سبحانه في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ﴾[2] هذه هي الفطرة، فاختلف الناس على هذه الفطرة وتنكبوا عنها، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وعلى هذا يصير معنى الآية كان الناس أمة واحدة على الدين والتوحيد فانحرفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين. إذاً الأصل هو التوحيد، والانحراف خلاف الفطرة، وبناءاً على إرسال المرسلين كانت التفرقة بين الأمم بمقدار استجابتهم لدعوة المرسلين ورفضهم لها، وعلى هذا انقسمت الأمم إلى مؤمن وكافر، وكان الفرق بين الفريقين بعيداً كبعد الجنة عن النار

---

(١) سورة البقرة.

(٢) سورة الأعراف.

﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾[1] ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[2]
فالفرق بعيد بين المؤمن والكافر، أبعد مما بين السماء والأرض. والأمة الإسلامية أمة تتميز بين الأمم بشخصيتها الفذة، فهي أمة ذات حضارة عريقة لا تشبهها حضارة، يمتاز فيها المسلم بشخصيته الكريمة، لا يذوب في شخصية غير شخصيته، وله كيانه المتميز لا يتنازل عنه أبداً مهما تعاقب الليل والنهار. والأمة الإسلامية أمة واحدة، لا تخضع للحواجز الطبيعية ولا السياسية ولا الجغرافية، فهي جسد واحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، انطلاقاً من تعاليم دينها الحنيف ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾[3] وقد عرفها التاريخ يوم كان خلفاؤها يطبقون الإسلام حقيقة، أنها لا تخضع لغاصب، ولا تستذل لغير الله، ولا تنحني لطاغوت، أو جبار عنيد، كما أخبر عن ذلك ربعي بن عامر رضي الله عنه وقد دخل على كسرى مرفوع الرأس وقال له: (إن الله إبتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله). في الأمة الإسلامية تنادي امرأة في عمورية فتتحرك نخوة المعتصم في بغداد وتقول وامعتصماه حينما يتعدى الكفار على كرامتها، فيجيبها المعتصم من وراء آلاف الأميال، ليقول للكافر العنيد أطلق سراح المرأة المسلمة، وإلا والذي نفس محمد بيده لأسيرن لك جيشاً أوله عندك وآخره عندي، فأطلق سراحها، هكذا تبرز الشخصية الإسلامية لدى الرجال. والأمة الإسلامية أمة واحدة ذات خليفة واحد، يحكمها من الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، يسير الراكب فيها يجوب خلال الديار، مرفوع الرأس، لا تستوقفه دائرة جوازات، ولا نقاط تفتيش تسأل عن هويته، ولو سئل عنها لقال أنا مسلم، وهويتي شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله.

(١) سورة الحشر.
(٢) سورة القلم.
(٣) سورة الأنبياء.

ولقد بقيت هذه العلاقة المتينة زمناً طويلاً، أزعجت العالم الكافر، وقطعت أطماع الكفار بهذه الأمة، فلم يفكروا يوماً في الاندساس في صفوف المسلمين ليخربوهم ويفسدوا ذات بينهم، حيث الأمة الإسلامية مهيبة الجانب، بالرغم من الحقد الدفين في قلوب الكافرين، ولما ضعف الجسم تسلطت عليه الأمراض والأوبئة لضعف المناعة. وما زال العدو يتطلع إلى تفتيت كلمة المسلمين وتفريقهم، ويسعى في ضعف الأمة الإسلامية بعد الفشل الذريع الذي حققه المسلمون للكافرين ورأوا الأمة الإسلامية جبالاً لا تطاق، فكانت الحرب الباردة ضد الإسلام، وهي حرب الأفكار والمذاهب، فنجحت الثانية، وجاء المستشرقون والكفار يجوبون خلال الديار الإسلامية يفسدون في الأرض ولا يصلحون، ينشرون الرذيلة ويحاربون الفضيلة، ويبثون سمومهم في قلب الأمة الإسلامية، ويشوهون الإسلام أمام أعين المسلمين، خصوصاً الناشئة المحدثة، التي لم تفهم الإسلام على حقيقته، لا سيما حينما ركن المسلمون إلى الراحة والدعة والمتاع، وكان من شؤم الطالع أن أغرم أبناء المسلمون بحضارة الكفار في عصر التقنية الحديثة، مما دفع كثيراً من أبناء المسلمين إلى السفر المتواصل إلى بلاد الكفار وأخذ العلوم العصرية منهم، ولربما العلوم الشرعية في كثير من الأحيان، حيث غسلت الأدمغة هناك وملئت بالأفكار الدخيلة، وتمزقت الدولة الإسلامية أيما تمزق، فصارت الدولة العظيمة دويلات متناحرة، لكل قوميته وأسلوبه في الحياة، يسودها التناحر والتباغض، يكيدون لبعضهم أيما مكيدة، ويدبرون المؤامرات لبعضهم. ولقد نجحت كثير من المؤامرات ضد الأمة الإسلامية، أدت إلى ضياع بعض الدول الإسلامية، مثل دولة الأندلس حيث استعانوا بالنصارى ضد إخوانهم المسلمين، مما أدى إلى سقوط الأمة الإسلامية في أرقى دولها. أما الشعوب الإسلامية المغلوبة على أمرها فقد أخذت بنصيب وافر من هذا التخلف المرير، فقد أصيبت بكثير من الخلاف والشقاق واستجابت لواقع قيادتها المنحرفة، فكانوا أحزاباً ومللاً كل حزب

بما لديهم فرحون، هذا ناصري وهذا قومي والثالث شيوعي حاقد على الإسلام والرابع علماني يعتبر الإسلام لا يصلح لقيادة الحياة، حتى الجماعة الإسلامية الواحدة نالها نصيب وافر من هذا التخلخل، ففيها الصوفي وفيها الشيعي وفيها التبليغي والإخواني والسلفي، فلم تكن على منهج واحد منضبط، بالرغم من اتضاح السبيل وبروزها لذي عين، فقد تركها النبي الكريم ﷺ على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك. وقد علمها كيف تدخل الحمام وتقضى الحاجة، فكيف لا يعلمها بأصول دينها ومنهجها. والحقيقة أن الطريق واضحة جلية، إلا أن معصية الله سبحانه هي التي رانت على القلوب. ولقد أثرت هذه الأحداث في علاقات المسلمين مع بعضهم، ولربما أدى هذا التفرق إلى خلاف فظيع، جعل الأمة الواحدة أمماً كثيرة ذات مباديء وأفكار، وتحمل مذاهب متعددة متباينة، يكيد بعضهم لبعض، ويتربص بعضهم بالآخر إلا ما شاء الله، مما أدى إلى تصدع في كيان الأمة الإسلامية، كان فرصة لاندساس العدو في الوسط. ولقد كان لهذا التفرق الفكري آثار اجتماعية على مصير الأمة الواحدة، فانفصلت الأمة العربية عن الأمم الإسلامية لا سيما بعدما نادى الحاقدون على الإسلام بالقومية العربية، التي فصلت الأمة العربية عن الأمم الأخرى التي تربطها بها رابطة الدين والعقيدة والأخوة في الله. فظن العرب أبناء سام بن نوح ﷺ أنهم هم صفوة العالم، ولم يدركوا أن الأمة الإسلامية أمة واحدة. إذاً لا بد في سبيل العودة إلى الأصل ـ وهو وحدة العالم الإسلامي صفًّا واحداً كالبنيان المرصوص كما كانت في عهدها الزاهر ـ من معرفة سبب الفرقة ثم العودة إلى الدين الأصل، الذي التقى فيه بلال الحبشي بصهيب الرومي بسلمان الفارسي رضي الله عنهم بعرب مكة والمدينة، فكونوا الدولة الإسلامية بدلاً من تلك الروابط المصطنعة التي لا صلة لها بهذا الدين. ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، حينما يدرك الناس أهمية الوحدة الإسلامية بدلاً من تلك الروابط المصطنعة التي لا صلة لها بهذا الدين،

يعودون إلى تلك الوحدة الكريمة وأن هذه أمتكم أمة واحدة. إذاً العلاقة بين المسلمين وثيقة متينة لا تتأثر بأي مؤثر وإن اختلفت اللغة واختلف الوطن أو غير ذلك ما دام الدين يوحد بينهما. أما هذه القوميات المحلية فنحن لا نعترف بها حيث لا يعترف بها الدين، ومتى كان النصراني أو اليهودي العربي أقرب إلينا من مسلمي باكستان والهند وأندونسيا وغيرها؟ ومتى كان ذلك الكافر العربي أخاً لنا في الوطن؟ فالوطن ليس رابطة وثيقة والدين يرفضها رفضاً باتًّا. ونحن لا ننسى موقف نصارى العرب في لبنان من المسلمين، يوم قدم إخوانهم من أوروبا في الحروب الصليبية ففتحوا لهم الباب على مصراعيه وجعلوا من لبنان بوابة إلى بلاد المسلمين المخدوعة بهذه الحفنة، وما زالت هي نقطة الخطر في الشرق الإسلامي، بل كل تاريخ الإسلام يتحدث عن مواقف فئات الكفر وهي تكون كتلة ضد الإسلام على اختلاف مشاربهم وأفكارهم، فالكفر ملة واحدة، وإن اختلفت مشاربه حسب الظواهر. إن هذا الاندماج الخطير والذوبان في المجتمع الكافر ليدل دلالة واضحة على ضعف الشخصية الإسلامية اليوم، بحيث صار المسلم في بعض البلاد الإسلامية يعتبر النصراني أخاه وحبيبه حتى مع الأقليات الكافرة. أما الذوبان مع الكفار الذين صاروا اليوم أكثرية في بلاد المسلمين جاؤا ليأكلوا خيرات المسلمين وليفسدوا عليهم دينهم فحدث ولا حرج، لقد اختلط الحابل بالنابل، حتى إن المسلم حينما يسير في أسواق بلاد المسلمين لا يكاد يفرق بين الكافر والمسلم في أخلاقهم وسلوكهم وحركاتهم وسكناتهم، أما النساء فقد عظم أمرهن أكثر، فلا يكاد المسلم يستطيع في كثير من الأحيان التمييز بين المسلمة والكافرة.

* * *

الفصل الأول

حقوق المسلم على المسلم

إن من أعظم الحقوق التي فرضها الله سبحانه، حق المسلم على المسلم، يقول سبحانه: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾[1]. ويقول الرسول الكريم ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»[2]. ويقول ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً وشبك بين أصابعه»[3]. وعلى هذا فالأمة الإسلامية مطالبة بتطبيق هذا الأمر، في حياتها ليسود الوئام بين الأمة الإسلامية، التي هي جسد واحد، يشعر كل عضو بما يشعر به العضو الآخر، لذا يلتزم المسلمون بالتحابب والتآلف والإخاء وإزالة العقبات التي تفسد هذه العلاقة بين الأمة الإسلامية الواحدة ذات الهدف الواحد.

وأهم واجبات المسلم على أخيه:

١ ــ المحبة، بحيث يحبه في الله، ومن أجل دين الله سبحانه، فالمحبة في الله هي أوثق عرى الإيمان، والمتحابون بجلال الله على منابر من نور، يغبطهم النبيون والشهداء، كما جاء في الحديث «ثلاث من كن فيه وجد

---

(١) سورة الحجرات.

(٢) مسلم كتاب البر والصلة.

(٣) البخاري كتاب الصلاة.

حلاوة الإيمان أحدهما أن يحب الرجل لا يحبه إلا لله»[1] وفي حديث آخر (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله منهم رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه)[2] فالتحاب واجب بين المسلمين، ويجب أن يكون لله، ومن أجل الله سبحانه، لا لسبب من الأسباب المادية التافهة، فإن مثل هذه الأمور لاتستحق.

٢ ــ التعاون بين المسلمين على البر والتقوى، يقول سبحانه ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾[3] وذلك يعني أن تمديد العون لأخيك المسلم بمالك وجهدك وفكرك ونصيحتك، ليتقوى بها على أمور دينه ودنياه، والإنسان كما قيل مدني بالطبع، فهو لا يعيش إلا مع إخوانه.

٣ ــ النصيحة له، بحيث تقدم له النصيحة الخالصة، التي يستفيد منها، خصوصاً إذا استنصحك في أمر من أموره، ويجب أن تكون هذه النصيحة وفق المصلحة التي تعتقدها له، فلا تقدم له من الرأي والمشورة إلا ما تعتقد فائدته ومصلحته، كما أن المسلم إذا أراد أن يقدم على أمر يجهل مصلحته أن يستشير إخوانه، من أصحاب الرأي السديد.

٤ ــ بذل المال إليه إذا احتاج لك ولديك القدرة على مساعدته، سواء كان من الصدقة الواجبة أو الإحسان أو تطوعاً. وقضاء حاجته ابتغاء مرضات الله سبحانه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، وكما جاء في الحديث القدسي يقول تعالى: **(يا بن آدم إستطعمتك فلم تطعمني فيقول كيف أطعمك وأنت رب العالمين فيقول سبحانه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه)**[4].

---

(١) البخاري ومسلم كتاب الإيمان.

(٢) البخاري كتاب الجماعة. ومسلم كتاب الزكاة.

(٣) سورة المائدة.

(٤) مسلم كتاب البر والصلة.

٥ ــ نصر المظلوم من المسلمين، فلا يجوز خذلانه في موقف يُظلم فيه، ويأثم كل من يستطيع رفع الظلم عنه، إذا لم يبذل الجهد في ذلك، كما في الحديث (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً قيل يا رسول الله كيف أنصره ظالماً فقال ترده عن الظلم)[١].

٦ ــ عيادة المريض المسلم، فقد أمر بذلك الرسول ﷺ بعيادة المرضى، كما جاء في الحديث القدسي يقول الله تعالى: (يابن آدم مرضت فلم تعدني فقال كيف أعودك وأنت رب العالمين فيقول سبحانه مرض عبدي فلان فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده)[٢] فعيادة المريض سنة وحق للمسلم على أخيه المسلم.

٧ ــ اتباع جنازة المسلم، وهذا حق له ولعقبه، بحيث يجبر قلوبهم، ويواسي مصابهم، ويخفف آلامهم، كما في حديث البراء (واتباع الجنازة)[٣].

٨ ــ السلام و رده، فعلى المسلم إذا قابل أخاه المسلم أن يسلم عليه، وعلى الثاني أن يرد عليه السلام، والأول سنة والثاني واجب، لقوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾[٤] وجاء في الحديث (وإفشاء السلام)[٥] أي إظهاره فالسلام يورث المحبة بين المسلمين وهو أمان يقدمه المسلم لأخيه حينما يقابله.

٩ ــ إجابة الدعوة، بحيث تجيبه إذا دعاك إلى وليمة أو غيرها، والرسول ﷺ يقول من حقوق المسلم (وإجابة الدعوة)[٦].

---

(١) البخاري كتاب المظالم.
(٢) مسلم كتاب البر والصلة.
(٣) صحيح البخاري كتاب المظالم.
(٤) سورة النساء.
(٥) صحيح البخاري.
(٦) صحيح البخاري.

١٠ ــ كف الأذى، وهذا أمر واجب، فمن لم يستطع إيصال الإحسان إلى أخيه المسلم فإن كف الأذى عنه صدقة، لأن أذية المسلم حرام بدون موجب: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾[1].

١١ ــ تشميت العاطس، فإذا عطس فحمد الله يشمت، أي تزال عنه الشماتة، بالدعاء يرحمكم الله، فيجيب هو يهديكم الله. حيث إن العطاس نوع من المرض، ويطلب هو من الله تعالى العافية، فيدعو له المشمت بالرحمة، فيرد عليه العاطس بالهداية.

١٢ ــ الدفاع عن عرضه، حينما يتعرض له لصوص الأعراض بلا سبب، وفي الحديث (من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة)[2] كما لا يجوز الطعن في عرضه بحال من الأحوال، حتى لو كان فيه ما يقال فهي الغيبة، أما إذا لم يكن فيه ما يقال فهو البهتان.

١٣ ــ الإيثار، وهو تقديم مصلحة أخيه على مصلحته، فليس المسلم أنانيًّا لا يعرف إلا مصلحة نفسه، وقد مدح الله الأنصار بهذه الصفة، فقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[3] يقول هشام العدوي بحثت عن أخي يوم اليرموك فوجدته جريحاً قد أثخنته الجراح، فقلت هل تريد شيئاً يا أخي، فقال شربة ماء، فأتيته بالماء، فالتفت إلى جاره الجريح فقال أعطه الماء لعله أشد مني عطشاً، ثم دفعه الثاني للثالث، عشرة يتدافعون الماء ثم يموتون جميعاً لم يشربوا الماء. والإسلام لا يعرف الأنانية، وحب الذات وحدها،

---

(١) سورة الأحزاب.

(٢) أحمد والترمذي انظر صحيح الجامع رقم ٦١٣٨.

(٣) سورة الحشر.

على سبيل مصلحة النفس، ومضرة الغير، كما هي حال كثير من الناس اليوم، فالإيثار صفة من صفات المؤمنين، لأن منهجهم لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

١٤ ـ إصلاح ذات البين، فكما حرم الإسلام النميمة، التي تفسد بين المسلمين وتشتت شملهم، هو أيضاً أمر بالإصلاح بين الناس عامة، وبين المسلمين خاصة، لذلك يقول الله عز وجل ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾[1] ويقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾[2] وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «تعرض الأعمال عليَّ يوم الاثنين والخميس فيغفر فيهما لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً إلا امرءاً كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقول الله أمهلا هذين حتى يصطلحا»[3] ذلك لأن الأمة الإسلامية إذا فسدت علاقاتها وتقطعت أوصالها وصار بعضهم يحقد على بعض ويكيد له أدى ذلك إلى كراهية وتفكك في مجتمعاتها، وحينئذٍ تسقط من عين الله سبحانه وتعالى، ولا تستطيع أن تقف في مثل هذه الظروف أمام عدوها المشترك.

١٥ ـ الابتسامة في وجه المسلم، وهو صدقة «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»[4] فالعبوسة في الوجه، والجفاء في المقابلة، والغلظة في القول، ليست من صفات المؤمنين، والله تعالى يقول: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[5] وطلاقة الوجه أهم من القول الحسن، ومن خلال هذه الطلاقة توجد المحبة بين المسلمين.

---

(١) سورة النساء.
(٢) سورة الحجرات.
(٣) مسلم كتاب البر.
(٤) مسلم كتاب البر.
(٥) سورة البقرة.

١٦ ــ مقابلة السيئة بالحسنة، من أجل إطفاء نار الحقد بين المسلمين، وهذه أفضل علاج لأدواء المجتمع، حينما تأخذ هذا الإنسان العزة بالإثم ويريد الانتقام لنفسه ولا يتنازل عن شيء من حقه أبداً، خصوصاً وأن النفس البشرية مجبولة على حب الانتقام إلا ما رحم ربي. فدفع السيئة بالحسنة هو الذي يطفيء نار الحقد بين المسلمين، ويحول العدو اللدود إلى صديق حميم، كما قال سبحانه: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾[1] إنك حينما تستعمل هذا الأسلوب الرقيق مع إخوانك المسلمين تطفيء نار الحقد في قلوبهم، فيخجل من خلال هذه المعاملة الحسنة، فيندم على ما فرط منه كما قال الشاعر:

اصبر على مضض الحسود فإن صبرك قاتله
النار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

بل إنك حينما تستعمل هذا الأسلوب مع عدوك اللدود فسوف يصبح لك محبًّا رحيماً، بحيث تنقلب عداوته رأساً على عقب.

١٧ ــ احترام الكبير من المسلمين، ورحمة الصغير، والعطف عليه، كما جاء في الحديث (ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا) بحيث يعتبر من يكبره من المسلمين أباً، ومن يساويه أخاً، ومن يصغره ابناً، يقدم الخير لهم، ويدفع عنهم الضر.

١٨ ــ إيصال الخير إليهم بكل وسيلة تنفعهم، ودفع الضر عنهم بشتى الطرق.

وعلى هذا فيعتبر الإسلام قد حفظ حقوق المسلمين، وأوجبها على إخوانهم، حفظاً يكفل السعادة ويؤمن مصلحتهم، ويحبب بعضهم إلى بعض، بحيث يعتبر المسلم أخاه المسلم جزءاً منه لا يتجزء، يفرح لفرحه

(١) سورة فصلت.

ويحزن لحزنه، إذا أصابته نعمة هنأه، وإذا أصابته مصيبة عزاه بها، يبذل الإحسان إليه، ويتودد إليه بالهدية، ويمشي إليه بالصدقة، ويقابله بوجه طليق.

* * *

الفصل الثاني

في حل المشاكل التي تحدث بين المسلمين

كما جاء الإسلام ليؤلف القلوب، ويجمعها على المحبة والإخاء، وهو أيضاً يسعى بكل الوسائل لحل المشاكل التي تحدث بين المسلمين وتفرق بينهم وتوجد الفجوة السحيقة بين المسلمين، حتى لا تكون الفرقة والخلاف، فتكون العداوة والبغضاء. كما عالج الإسلام أسباب هذه الفرقة بوسائل شتى، سواءاً في باب العبادات أو المعاملات أو السلوك، وشرع طريق الإصلاح بين الناس، واعتبره أفضل طريق للجنة والأجر العظيم، إذا كان خالصاً لوجه الله تعالى يقول سبحانه: ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾[1] تصور يا أخي كلمة: عظيماً، خصوصاً إذا صدرت من عند الله سبحانه وتعالى. ويقول الرسول ﷺ إن إصلاح ذات البين أفضل من نوافل الصلاة والصيام حيث إن فساد ذات البين هو الحالقة، تحلق الدين لا تحلق الشعر، كما أخبر النبي ﷺ: «إن الأعمال تعرض على الله يوم الاثنين والخميس فيغفر فيهما لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً إلا امرءاً كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقول الله سبحانه أمهلا هذين حتى يصطلحا»[2] وإذا كانت الأعمال لا ترفع بسبب الخلاف بين الأخوة

(١) سورة النساء.

(٢) مسلم كتاب البر.

المسلمين، فإن هذا يدل دلالة واضحة على أهمية الإصلاح بين الناس، كما يدل على خطر الإفساد بين الناس. وقد أمر الإسلام بالتسامح والعفو عن المسيء، ومدح العافين عن الناس، لأن العفو يعني عدم المؤاخذة على الخطأ، وهذا يعني فتح طريق إصلاح ذات البين يقول سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾[1] وقد عد الإسلام العفو عن المسيء من أفضل الأعمال ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾[2]، إلا أن العفو إذا وصل إلى حد الخنوع والذلة من الأمة الإسلامية لا يقبل أبداً، ويكون الانتقام حينئذٍ أفضل بل لازم لحماية جناب الأمة الإسلامية من الاستكانة والاستذلال، لذا يحث سبحانه على الانتقام من الباغي ما دام يصل إلى حد إذلال المسلم أو الأمة الإسلامية، فيقول سبحانه في مقام المدح ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾[3] ومن هنا ندرك الفرق بين الأمرين فلا تعارض ولا اختلاف بين الاثنين، فالعفو مطلوب إذا كانت الهفوة من أخ على أخيه، لكنه مذموم إذا كانت من عدو على مسلم، أو قصد به إهانة المسلم والحط من شأنه، أو من شأن الأمة الإسلامية، وعلى هذا يجب التسامح بين المسلمين والعفو والصفح، لكن لا يجوز للأمة الإسلامية كافة أو فرد من أفرادها الصبر على الضيم والذلة. وفي سبيل حل مشاكل المسلمين حرم الإسلام النميمة بين المسلمين، فجاء في الحديث (لا يدخل الجنة نمام)[4] وفي رواية قتات وهو النمام فالذي يسعى بين المسلمين بالنميمة يأتي إلى فلان فيقول له قال فيك فلان كذا على وجه الذم والإفساد، ثم يذهب إلى الثاني فيقول له مثل ذلك هدده الرسول ﷺ بهذا الوعيد وهو عدم دخول الجنة، وهو أعظم وعيد في

---

(١) سورة آل عمران.

(٢) سورة الشورى.

(٣) سورة الشورى.

(٤) متفق عليه.

هذا الأمر، لما تحدثه النميمة من بلاء في المجتمع وتفرق في كلمته. لذلك أباح الإسلام شيئاً من الكذب في باب الإصلاح بين الناس (ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً)[1] علماً أن الكذب في الأصل حرام، لكنه أبيح لهذه المصلحة وهو إصلاح بين الناس بحيث تقول لفلان إن فلاناً يثني عليك أو يحبك وإن لم يكن ذلك، من باب المصلحة إصلاحاً بين الناس. كما شرع الإسلام تبادل الهدايا بين المسلمين لما يحدثه هذا التبادل من ألفة ومحبة وإزالة الضغائن حتى قال ﷺ: «لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة»[2] أي تهدي إليها ولو الشيء القليل التافه، لما لها من الأثر العميق في تربية المحبة بين الناس لذلك كان من هديه ﷺ الهدية وقبولها.
أما التهاجر بين المسلمين فلا يجوز أكثر من ثلاث ليالٍ، يلتقيان فيعرض أحدهما عن الآخر وخيرهما الذي يبدأ بالسلام، أما هجره سنة فهو كسفك دمه، كما جاء في الحديث ولما كانت النفس البشرية فطرت على حب الانتقام والعزة فقد ذكر الله سبحانه أن دفع السيئة بالحسنة هو أفضل طريق للجنة، لكنه يحتاج إلى صبر للنفس وتحمل، لذا يقول سبحانه: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾[3] إذا النفس البشرية بطبيعتها فطرت على حب الانتقام وعدم التسامح، إلا من رحم الله تعالى، فعلى المسلم الذي يريد أن يعيش في هذه الحياة مرتاح الضمير هادىء النفس مسالماً للمجتمع لا بد أن يلزم هذه النفس بالصبر والعفو والصفح، وإلا فسوف تهيج نفسه لتأخذ بالثأر وتنتقم لنفسها، ولا تتنازل عن إساءة من عدو أو صديق، وهذا أعظم الأدواء التي تفسد أخلاق الناس وتشتت المجتمع، والهجر بين المسلمين قد يكون طاعة لله سبحانه وهو هجر العصاة وأصحاب

---

(١) البخاري كتاب الصلح. ومسلم كتاب البر والصلة.
(٢) البخاري كتاب الهبة ومسلم كتاب الزكاة.
(٣) سورة فصلت.

البدع والنفاق، فقد أمر الدين الحنيف بهجر هؤلاء تأديباً لهم، كما فعل الرسول ﷺ مع الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك رضي الله عنهم بالرغم من صغر خطئهم:كعب بن مالك وصاحباه يقول سبحانه عنهم: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾(١) فقد أمر الرسول ﷺ بهجرهم مدة من الزمن ليكون ذلك تربية لهم وللأمة الإسلامية إلى يوم القيامة، حتى نزلت التوبة عليهم من عند الله بعد أن اكتمل درس التربية. وأصحاب المعاصي يهجرون بقدر جرمهم ومعصيتهم، استجابة لأمر الله سبحانه ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ﴾(٢) فلا تجوز مجالستهم ومخالطتهم ليتأدبوا ويرجعوا إلى الحق والى الطريق المستقيم، أما مداهنتهم فكما أنها تضر بالدين فهي أيضاً معصية لله. هذا إذا كان الهجر يؤثر بهم ويؤدبهم علماً أن الهجر مطلوب بكل حال لمثل هؤلاء وذلك بعد الموعظة والنصيحة، ولا يجوز اللجوء للهجر قبل إسداء النصيحة لصاحب الذنب. وكل هذه الحالات داخلة بالهجر المباح بل اللازم، ليتميز المطيع من العاصي، وليعرف المجرم حجم جرمه، وأن الأمة الإسلامية تغضب لربها ودينها، و لا تنتشر المعصية بسبب عدم التميز أما ما سوى ذلك من التهاجر بين المسلمين فهو حرام ولا يجوز بحال وهو يتنافى مع حق المسلم من الوصال والأخوة في الله، حيث يؤدي إلى الشحناء والتقاطع، لا سيما بين ذوي الأرحام بعضهم مع بعض، وهو من أعظم الذنوب لأنه قطيعة للرحم، وأعظم منه أيضاً إذا كان في حق الوالدين الذين هما أقرب الناس إلى النفس، وهو أعظم أنواع العقوق. وعلى كل فقد أمر الإسلام أن يتدخلوا لحل مشاكل المسلمين فيما بينهم قبل

(١) سورة التوبة.
(٢) سورة النساء.

أن يتطور الأمر وتكون القطيعة وقبل أن تشتعل نار الفتنة بين المسلمين، لا سيما حينما يؤدي الأمر إلى تطور الفساد بين المسلمين، فيؤدي إلى القتال وحمل السلاح، وحينئذٍ يجب أن تكون هناك قوة ردع تفصل بين الطرفين بالقوة كما قال سبحانه: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝ ﴾[1] فقد مدح سبحانه هنا الإصلاح بين المؤمنين بالعدل وإذا لزم أن تستعمل مع هذا الإصلاح قوة تؤدب المعتدي فلا بد إذا منها، ولا بد من قتال المعتدي مع ملاحظة حرص العدو اللئيم على الاندساس في صفوف الأمة الإسلامية ثم الإفساد بينهم فهذا ديدنه دائماً وأبداً. ويلاحظ عبر تاريخ الأمة الإسلامية الطويل أن أخطر سبيل لتدمير الأمم هو الفراغ، وترك الجهاد في سبيل الله، والاتجاه إلى الراحة والدعة، مما يكون سبباً إلى الخلاف المذهبي والشقاق بين أفراد الأمة الإسلامية، والجبهات الداخلية لا تكون إلا حينما تتوقف الجبهات الخارجية، فيعظم أمر الخلاف بين الأمة، وهذا العالم بطبيعته البشرية لا يلتف إلا على عقيدة التوحيد، ونبذ الخلاف العقائدي، فقد جمعه الإسلام على عقيدة التوحيد، حينما فهم الناس لا إله إلا الله، فكانت لهم دولة بعد ذلك، التفوا حولها معتصمين بتلك العقيدة. وطيلة فترات التاريخ تقوم دولة على هذا المنهج وتتفرق عند ضعفه، إذ لا يجوز لمن أراد أن يوحد هذا العالم أو يقود هذه الأمة أن ينحّي العقيدة جانباً كما يقول بعض الناس اليوم تقيم حكم الله في الأرض في هذا العالم المتشتت ثم تفكر بعد ذلك في إصلاح العقيدة، وهؤلاء كمن يبني قصراً دون أسس، ذلك لا يمكن بحال من الأحوال.

---

(١) سورة الحجرات.

درس من الواقع:

قام الجهاد الأفغاني بعد غيبة طويلة عن الجهاد وفترة قضّت على المسلمين مضاجعهم، حينما عطل الجهاد قروناً طويلة، فانحدرت الأمة الإسلامية من سيىء إلى أسوأ وضاعت حقوقها الشرعية، واستبشر العالم الإسلامي بهذا العلَم الذي نشر بعد تلك الغيبة، وانهال العالم الإسلامي من أصقاع الأرض يبحث عن بغيته المنشودة والتقى المسلم الفلبيني بالمغربي على قمم الجبال يبحثون عن النصر والشهادة. وكادت الخلافة الإسلامية أن تقوم على تلك الأرض التي قدمت مليون ونصف المليون من الشهداء إن شاء الله، وحينما قاربت النتيجة وفرح المؤمنون بنصر الله دب الخلاف بين أبناء الأمة الإسلامية، ولعل السر في ذلك يرجع إلى أمور أهمها:

١ ــ تنحية العقيدة السلفية الصحيحة عن قيادة المعركة، لتقوم الدولة قبل العقيدة.

٢ ــ اندساس الكفار الحاقدين في صفوف الأمة الإسلامية، وهو ديدنهم حينما يخافون من التحرك الإسلامي.

٣ ــ الاختلاف والنزاع بين أبناء الأمة الإسلامية.

٤ ــ تعدد القيادات وهذا الأخير من أخطر الأمور.

* * *

الفصل الثالث

العبادات مصدر أخوة بين المسلمين

ولقد شرع الله سبحانه من العبادات ما يصلح ذات بين المسلمين، فكل عبادة جاءت لتؤدي دوراً هامًّا في هذا الجانب، لتكون مجموع هذه العبادات في الأخير أمة متماسكة متحابة تسودها المودة والإخاء، وإليك بعض النماذج لهذه العبادات ودورها في الإصلاح وربط قلوب المسلمين على منهج صحيح يلتقي فيه جميع المسلمين:

١ ــ الصلوات الخمس، وهي تكوّن أفضل رابطة في حياة الناس، لا سيما صلاة الجماعة، وهي ترص المسلمين في صف واحد يستوي فيه الصغير والكبير، والسيد والرقيق، لا يتقدم أحدهم على الآخر، كما هو المنهج الصحيح في تسوية الصفوف ورصها، وهذه الصلاة أيضاً كما توحد الصف هي أيضاً توحد التحرك، فلا يتقدم أحدهم الإمام بركوع ولا سجود ولا قيام، ويعتبر هذا السبق من مبطلات الصلاة، حتى تتوحد الحركة بالنسبة للمصلين جميعاً، كما يتوحد الوقت بالنسبة لإقامة الصلاة، فلا يجوز التقدم عليه ولا التأخر، وهذا كما أن له الأثر في توحيد الأمة هو أيضاً في الأصل استجابة لأمر الله سبحانه وأمر الرسول ﷺ لذا تعتبر الصلاة أفضل طريق إلى تربية الأمة الإسلامية وتوحيد كلمتها ولم شعثها. كما يعتبر المسجد هو المكان المناسب الذي يلتقي فيه المسلمون، خصوصاً أهل الحي الواحد بحيث يعتبر المسجد ملتقى الأفئدة والأجسام، فهو المؤتمر المناسب وهو

بيت من بيوت الله يلتقي فيه المسلم بأخيه المسلم يأنس به ويشكو إليه حاله، يفقد المريض فيزار، وتعرف حال الفقير فيتصدق عليه، ويتقوى من خلاله المسلم بالمسلم، فيه يقضي على الأحقاد والضغائن، ومنه يتفرق المسلمون أخوة في الدين متحابين، إذا هو قطب رحى الحياة ومركز الحي والمنتدى الذي يجمع القلوب والأجسام على طاعة الله سبحانه، وهو المركز الروحي يربط أفراد الأمة برباط روحي سليم.

٢ ــ صلاة الجمعة، وهي ملتقى أكبر من صلاة الجماعة يلتقي فيه أهل الأحياء المتفرقة، أو أهل القرية والمدينة، على العبادة العظيمة والموعظة الحسنة، فيها تصفو القلوب، ويتجرد من كل شيء سوى الله سبحانه، وهي عيد الأسبوع ويومها يوم عظيم، يجيء إليه المسلم طيلة أيام الأسبوع ليلتقي بإخوانه يحلون مشاكلهم ويدرسون أمورهم من خلال الخطبة، ثم يتفرقون أخوة متحابين حتى الجمعة القادمة ليلتقوا على مثل ما كان في الجمعة السابقة.

٣ ــ وتتسع الدائرة في صلاة العيدين، التي تجمع العدد الأكبر في يوم الزينة، حينما يخرج المسلمون إلى المصلى فرحين بإتمام العدة وآداء الواجب، كل واحد منهم يهنىء الآخر بهذا العيد السعيد، تعلو الجميع فرحة وسرور، كل يصالح أخاه ويعانقه ويدعو له بالبركة بهذا العيد.

٤ ــ والصوم، يكون عاملاً مهمًّا من عوامل هذه الأخوة الكريمة، حينما يتوقف المسلمون جميعاً في لحظة واحدة عن الطعام والشراب والشهوة، يتساوى فيهم كل الأصناف من البشر، ليتناولوا الطعام جميعاً في لحظة واحدة، وحينئذٍ تتحقق المساواة، التي هي أهم عناصر هذه الأخوة ومقوماتها، لذلك راعى الإسلام ساعة السحور وساعة الفطر، فلا يجوز التقدم ولا التأخر. يضاف إلى ذلك تجويع النفوس وإعطاشها ومنعها من شهواتها المألوفة بطريقة جماعية، يلتزم بها الجميع ثم يترتب على ذلك

شعور الأغنياء بألم الجوع، الذي لربما لم يشعروا به أبداً في غير أيام الصيام، ليعرفوا نعمة الله في هذا المال، ويدركوا ما يصيب إخوانهم الفقراء دائماً من الفقر والحرمان، فيفيضوا عليهم شيئاً مما أفاء الله عليهم من هذا المال، كيلا يكون دولة بين الأغنياء منهم، ليحرموا منه الفقراء، لذلك يلاحظ كثرة الصدقة في رمضان، وكيف يمتاز عن غيره من الشهور بالبذل والصدقة والإحسان ابتغاء مرضات الله سبحانه، يضاف إلى ذلك ما يحدثه الصيام من تقوى الله سبحانه وإنابة إليه، فالصيام إذا هو مؤدب للأغنياء وموثق للعلاقة بين الطبقتين المتباعدتين، سائر أيام السنة، ومن خلال الإحسان والبذل تتولد المحبة، حيث بالإحسان يستولي المحسن على قلب المحسن إليه فطرة بشرية وسنة لا تتخلف كما قال الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان

٥ ــ أما الزكاة، وهي جزء من مال الأغنياء يبذلونه للفقراء والمحرومين، فهي أعظم وثاق يضمن سعادة الفقير، وعيشه من مال الأغنياء ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ۝ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝﴾[١] والمحروم هو المتعفف عن سؤال الناس، وهذا الحق وإن كان قليلاً لكنه حق ثابت يؤدي بمجموعه إلى إسعاد الفقير وحبه للغني، وبمقدار ما يؤدي الأغنياء هذا الحق يتودد إليهم الفقراء ويشعرون تجاههم بالارتياح، ولعل من أعظم النكبات التي حلت بالعالم الإسلامي وانتشار الأفكار المنحرفة من شيوعية واشتراكية وغيرها إنما أصاب الأمم بسبب تعطيل هذه الشعيرة العظيمة الزكاة، فانتشرت المبادىء الضالة بسبب الحرمان، فجاءت الشيوعية لتنقذ الناس من الفقر كما تزعم، لكنها لم تزد الفقر إلا فقراً ومسغبة، سنة الله في الحياة لا تتخلف ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[٢] إضافة إلى انتشار اللصوص

---

(١) سورة المعارج.

(٢) سورة طه.

والغصب والاختطاف، وكثرة قطاع الطريق والمتسلطين، الذين يكثرون في بلد تنتشر فيها الطبقية المترامية الأطراف، حينما تكون هناك هوة سحيقة بين الطبقات، كما يوجد في البلاد التي فيها الثراء الشديد والفقر المقذع. وبمقدار ما تمنع الزكاة عن الفقراء يكون نصيب الأمة من الكراهية والأحقاد والنهب وبيع الأعراض والفساد العريض، الذي تعجز الأنظمة والقوانين عنها مهما كانت قاسية رهيبة، وقد فكرت الشيوعية بجمع الشمل ورأب الصدع لهاتين الطبقتين وجمعهما على مبدأ المحبة، فوعدت الفقراء بجنة في الأرض لكنها لم تزد الفقراء إلا فقراً ومسغبة، فانهارت في لحظات وكفى الله المؤمنين القتال، ثم تلتها أفكار أخرى زعمت أنها سوف توحد هذا العالم وتقضي على الفوضى والاضطراب، فإذا بها تزيد الطين بلة والخراب دماراً، وتشتت الشمل بصورة لا يتصورها العقل، فقد فرقت الأمة وزادت الغمة، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها.

٦ ــ بر الوالدين وصلة الرحم، ولها أثر كبير في بناء الأسرة على قواعد ثابتة متينة، من المحبة الفطرية الواجبة الرعاية، طاعة لله أولاً ثم استجابة للفطرة، التي كُوِّن عليها هذا الإنسان، فهما صمام الأسرة وقاعدة المجتمع السليم، فالأفراد الصالحون هم عناصر الأسرة الكريمة، والأسر المحافظة هي مقومات المجتمع المتآلف المتحاب، إذاً لا بد من إصلاح القاعدة وبناء الفرد على طاعة الله سبحانه ليتكون الشعب المتلاحم المتماسك المستقيم.

٧ ــ أما علاقة الجوار بين المسلمين، وهي عبادة لله وواجب من واجبات الدين فهي من أفضل العلاقات التي يحترمها الإسلام ويقوي أواصرها، على قاعدتي الإحسان والمحبة وقد أوصى الله سبحانه بحق الجوار فقال ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾[1] كما أوصى الرسول

---

(١) سورة النساء.

الكريم ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره. من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره»[1] واحترام حق الجار يعني احترام كل أفراد المجتمع لبعضه لأن المجتمع كله يتكون من هؤلاء الجيران لا سيما وأن الجوار يمتد إلى أربعين داراً، وهكذا أربعون داراً بعد أربعين إلى أقصى أطراف المجتمع الإسلامي كله، حلقات متماسكة لا يدري أين أطرافها فقد أمر الرسول ﷺ باحترام هذا الحق العظيم، حتى أن جبريل كرر الوصية إلى الرسول ﷺ بالجار حتى ظن الرسول ﷺ أن الجار يكاد يرث جاره إذاً كادت أن تكون صلة قرابة وثيقة متينة، فيلزم المسلم مراعاتها وأعظم خيانة عرض هي خيانة الجار لمحارم جاره.

* * *

(١) متفق عليه.

الفصل الرابع

أثر المعاملات في تقوية أواصر المحبة

فكما تؤدي العبادات التي شرعها الله سبحانه دوراً هامًّا في سبيل ربط القلوب وألفتها، وكذلك ما شرعه الله سبحانه لهذه الأمة من معاملات، هي أيضاً تحرس جانب المحبة في قلوب الناس وتؤلف بينهم، فما من معاملة تجذب القلوب وتصفيها إلا وقد أمر بها الإسلام، وما من معاملة تكدر هذا الصفو إلا وقد حرمها سبحانه. وإليك بعض المعاملات التي شرعها الإسلام لتحبب النفوس إلى بعضها:

١ ــ الصدق في التعامل بيعاً وشراءً وأخذاً وإعطاءً ووفاءً واستيفاءً، يقول ﷺ: «فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما وإن كذبا وكتما محقت بركة بيعهما»[1] فالصدق في المعاملة يطيب قلب البائع والمشتري والآخذ والمعطي، بحيث لا يجد في قلبه حرجاً من صاحبه ولا حقداً عليه، والكذب يهدي إلى الفجور، وأعظم الفجور تلك الكراهية والبغضاء التي تنغرس في المجتمع بسبب الكذب.

٢ ــ تبيين العيوب الموجودة في السلعة، تبييناً تظهر معه الحقيقة

(١) في الصحيحين. البخاري كتاب البيوع باب إذا بين البيعان. ومسلم كتاب البيوع باب الصدق في البيع.

جلية، بحيث يدخل معه على بصيرة منها، كما أشار الحديث السابق (وبينا) فيذكر له عيوب السلعة مفصلة غير مجملة، فلو أجملها وبرأها من كل العيوب لم يبرأ منها أبداً كما ذكره الفقهاء، لما يترتب على ذلك من الغرر والخسارة، ويلاحظ أهمية هذا التعامل حينما تنكشف عيوب في السلعة، فيندم المشتري ويشعر بالخدعة من قبل البائع، فتتولد الكراهية بينهما بسبب ذلك المال الذي خسره لهذا الغاش للمسلمين، الذي يتعامل معهم بالكذب والخيانة، لكن الصدق يهدي إلى البر ومن أهم جوانبه المحبة.

٣ ــ الخيار، وهو فرصة تضرب بين المتعاقدين لمدة معلومة، كخيار المجلس وخيار الشرط، لتكون فرصة لكل واحد منهما ليختار أفضل الأمرين إمضاء العقد أو فسخه، علماً أن خيار المجلس فرصة إجبارية لهما جميعاً، ولها مدة كافية للتفكير تضرب حسب مصلحة الطرفين، وهذا الخيار أفضل طريقة لمحاربة الندم في التعامل، لأن الندم يحدث غالباً في المعاملات الفورية التي لا خيار فيها ولا تفكير ولا استشارة ولا استخارة، فضرب الإسلام هذه الفرصة للمتعاقدين لتكون مجالاً للتفكير في اختيار الأفضل، وقد تمتد مدة الخيار إلى أشهر أو سنوات، وكلما زادت الفرصة كان الأمر أوضح للمتعاقدين، إذاً لا ندم يحدث غالباً بعد هذه الفرصة الطويلة، ولربما يكون هناك تغير بالأسعار خلال هذه الفرصة خيار الشرط، حتى لا يكون هذا التغير بعد انتهاء فرصة البيع فيؤدي إلى شيء من الخلاف.

٤ ــ العلم بالبيع، لأن الجهل به يؤدي إلى الغرر المذموم، والغرر يؤدي إلى الندم والكراهية بين المتعاقدين، فيؤدي إلى تفكك المجتمع وتفصم عراه، فلا يجوز بيع المجهول أبداً إذا لم ينضبط بالوصف، ويتم الوصف بطريقة كافية في العلم، أما ما ينضبط في الوصف فيجوز بيعه بوصفه بهذا الشرط.

٥ ــ القدرة على التسليم، فلا يجوز بيع ولا تأجير ما لم يقدر على تسليمه، كالطير في الهواء والسمك في الماء، وما لم يملكه الإنسان، لأن

ذلك قد يؤدي إلى العجز عن التسليم. فتكون النتيجة سلبية أمام المتعاقدين لأن هذا البيع غير مقدور عليه.

٦ ــ العلم بالثمن، فلا تباع السلعة بثمن مجهول. كقوله كما باع به زيد، وما أشبه ذلك، لأنه لم يعلم الثمن، فيؤدي إلى النزاع والخلاف ويجوز البيع بالرقم لأن الرقم يرى.

٧ ــ كمال الملك، فلا يبيع ملك غيره وما لا يملكه، لأنه وسيلة أيضاً إلى الاختلاف، ولذلك نهى الرسول ﷺ عن بيع السلع حتى يحوزها التجار إلى رحالهم، أما البيع الفضولي فغير ممكن لعدم الملك، ويدخل في هذا الأمر بعض المعاملات التي يتكرر فيها البيع بلا حيازة صحيحة.

٨ ــ حث الإسلام على التأجيل في البيع والتقسيط فيه مراعاة لظروف العاجزين، وبه يكسبون رضاهم، وقد ذكر الرسول ﷺ أن ثلاثة فيهن بركة (منها البيع إلى أجل) لما يترتب عليه من مراعاة حال المساكين.

٩ ــ إنظار المعسر والحط عنه، يقول سبحانه: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾[1] وإنظاره إمهاله حتى ييسر الله عليه بحيث لا يضغط عليه ويطالبه بالوفاء وهو عاجز عنه، فلا يزعجه ولا يطالب بسجنه أو أذيته، هذه هي حقيقة الإنظار (ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة)[2] كذلك الحط عنه ومسامحته ببعض المال وهو التصدق المذكور في الآية، وأن هذه من أفضل أنواع الصدقة حيث العجز عن التسديد.

١٠ ــ الحوالة، ومعناها انتقال المال من ذمة إلى ذمة أخرى، بحيث يقبل أن يرجع إلى رجل آخر يستقضي منه حقه بدل غريمه بشروطها، حيث

---

(١) سورة البقرة.
(٢) صحيح البخاري.

يكون المحال عليه مليًّا بنفسه وماله، أما المماطل والعاجز عن الوفاء فلا يلزم فيه قبول الحوالة، وكذلك من لا يستطاع إحضاره مجلس الحكم، كالقريب الذي لا يجوز أخذ الحق منه بالقوة. والحوالة هذه فيها فك للذمم بحيث يتحول الدينان إلى دين واحد فقط، وتكون براءة الذمة ميسرة وبه يكسب رضا أخيه المسلم ويخلص ذمته، يقول عنها الرسول ﷺ: «وإذا أتبع أحدكم على مليء فليتبع»[1].

١١ ــ القرض، وقد حث عليه الإسلام لقضاء حوائج الناس دون أرباح، فقال عنه ﷺ: «ما من مسلم يقرض مسلماً قرضاً مرتين إلا كان كصدقة مرة»[2] ففيه تحبيب للنفوس وربط لأواصر المحبة، وفيه إغناء للمسلمين من التعامل الربوي الذي اضطر إليه الناس حينما فقدوا القرض الحسن، كذلك حرم الإسلام معاملات لما يترتب عليها من خلاف وشقاق، أو لأنها تحدث هوة سحيقة بين طبقات المجتمع وأفراده وأهم أنواعها:

١ ــ حرم الإسلام الربا، واعتبره أعظم الذنوب عند الله سبحانه بعد الشرك بالله سبحانه، وأخبر عنه أنه سوف يمحقه الله ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ ﴾[3] فهو تلف للمال يفسده ويعرضه للهلاك العاجل، كما توعد آكله حينما يبعث أنه يبعث كالمجنون، يقول سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّۚ ﴾[4] وقال بعض المفسرين يبعث مجنوناً يصرع كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، كذلك توعد الله سبحانه المصر على أكل الربا بالخلود في النار التي لا يخلد فيها إلا الكافرون، فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا

(١) في الصحيحين.
(٢) ابن ماجه وحسنه الألباني.
(٣) سورة البقرة.
(٤) سورة البقرة.

خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾[1] وعلى كل فالربا هو أخطر الأمور التي تفسد نظام المجتمع وتفرط عقد محبته، حيث يؤدي إلى تكدس الأموال لدى طائفة من الناس وهم مصاصو دماء العالم لتحرم منه طائفة أخرى لا تجد قوت يومها، وهذا أخطر سبيل لوجود طبقتين متفاوتتين في مجتمع واحد، إضافة إلى أن الربا نظام رأسمالي ضد مصلحة الجماعة، فهو عنصر مؤكد من عناصر التفرقة حيث تذوب الجماعة في الفرد وتتمزق المصلحة العامة لمصلحة الفرد، ولا نجد ذنباً حاربه الإسلام كما حارب الربا، وشدد في عقوبته لتلك النتائج السلبية التي تضر المجتمع إضراراً واضحاً.

٢ ــ البيع على بيع المسلم والشراء على شرائه، بحيث إذا تم بيع السلعة لأحد زاد فيها بعدما يتم البيع، أو يقول للمشتري عند لك سلعة بأقل من هذه ثمناً، لينقص البيع ببيع آخر وقد حذر الرسول ﷺ من ذلك لما يترتب عليه من الضرر والأحقاد فقال ﷺ: «ولا يبع بعضكم على بيع بعض»[2] كذلك الخطبة على خطبة أخيه حتى يرد فإذا علم أن فلاناً خطب فلا يقدم على هذه الخطبة حتى يتأكد من رد الخاطب الأول.

٣ ــ النجش، وهو الزيادة في السلعة وهو لا يريد شراءها، وقد حرمه الرسول ﷺ وقال: «ولا تناجشوا»[3] لما يترتب عليه من الغرر والخداع حينما يرتفع سعر السلعة عن ثمنها الحقيقي ارتفاعاً فاحشاً بسبب النجش، إضافة إلى أنه أكل لأموال الناس بالباطل، وقد حرمه الله سبحانه وقد حرم الله أكل أموال الناس بالباطل فقال: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[4].

---

(١) سورة البقرة.
(٢) صحيح البخاري.
(٣) في الصحيحين.
(٤) سورة البقرة.

٤ ــ الغش، وهو إظهار السلعة بصورة جيدة ولو كانت رديئة، وذلك بتغيير صورتها الأصلية أو إخفاء ما فيها من عيوب ونقص، بحيث ينكشف بعد ذلك فيكون سبباً للفرقة بين المتعاقدين، بسبب ما فيها من عيوب وفي الغش وعيد شديد يقول ﷺ: «من غش فليس منا»[1] وهذه البراءة وعيد شديد للغاش الذي يظهر سلعة جيدة ويخفي ما فيها من عيوب لينخدع الناس بها يحسبونها من النوع الجيد.

٥ ــ الخداع في البيع والشراء، بإخفاء العيب وإظهار حسنها بشكل يخدع المشتري، وهذه صفة ذميمة لا تليق بالمسلم، إضافة إلى ما يترتب عليها من سلبيات خطيرة، ولذلك أمر الرسول ﷺ الرجل الأبله الذي لا يحسن التعامل أن يقول عند العقود لا خلابة أي لا خديعة، وحينئذٍ لا يثبت البيع بالخديعة مع السذج والضعفاء الذين لا يحسنون التصرف مع هؤلاء المخادعين، الذين يمتصون دماء الناس حتى المستضعفين منهم الذين لا يحسنون التخلص من عدوهم، كما أن المخادعة صفة المنافقين، فهم الذين يخادعون الله وهو خادعهم، والمسلم صريح واضح مع الناس لا يخفي الحقيقة ولا يظهر ما لا وجود له.

٦ ــ حرم المماطلة، وحقيقتها منع الحق اللازم مع القدرة على سداده، وقد أخبر عنها الرسول ﷺ أنها ظلم كما في الحديث الصحيح «مطل الغني ظلم»[2] أي تأخير السداد مع الغنى والقدرة ظلم لصاحب الحق المطالب به، كما أن المماطلة تفتيت لوحدة هذه الأمة ونشر للفرقة بسبب تعطيل الحقوق وضياعها، وكم من الأغنياء من تحول إلى فقير بسبب هذه المماطلة الكريهة.

---

(١) مسلم كتاب الإيمان.

(٢) في الصحيحين.

٧ ـ كذلك تطفيف المكاييل والموازين وبخس الناس أشياءهم، لما فيه من ظلم الناس وأذيتهم فقد حرم الله تعالى ذلك أشد تحريم وقال: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝﴾[1] فانظر يا أخي كيف توعدهم الله سبحانه بالويل وهو عذاب شديد، ثم أخبر سبحانه أنه أهلك أمة بهذا الذنب العظيم، أصحاب الأيكة حينما بخسوا الناس أشيائهم وعثوا في الأرض مفسدين، ولا شك أن هذا الظلم من أعظم الأسباب التي تورث الحقد بين المسلمين دفاعاً عن حقوقهم، وما ذنب ذلك المسكين الذي بذل ماله لشراء قدر معين لسلعة من السلع ليأخذ أقل من حقه الذي اتفقا عليه، وهذا المال محترم لا يجوز أخذه بغير حقه أبداً، وهذا التعامل يقضي على الثقة المعلومة بين المتبايعين لأن عملية الكيل والوزن مبنية على ثقة كاملة، فإذا تزعزت هذه الثقة فقدت الثقة بين الناس عامة.

وعلى هذا يعتبر الإسلام بكل معاملاته وأخذه وإعطائه يشكل خطوة فعالة في سبيل بناء المجتمع وشد عضلاته، وما من مبايعة سليمة إلا وهي جزء من هذا الدين، وما من معاملة رديئة تفكك حلقات المجتمع وتشتت شمله إلا وقد حاربها هذا الدين حرباً لا هوادة فيها، لذلك يقول الرسول الكريم ﷺ: «رحم الله امرءاً سمحاً إذا باع سمحاً إذا اشترى سمحاً إذا قضى سمحاً إذا استقضى»[2] فالتسامح في كل هذه الأمور يؤدي إلى تكوين المجتمع المتحاب المتآلف في ظل عقيدة سمحة تدعو إلى الأخلاق الحسنة والأفعال الحميدة، ولا عجب فهو الدين الخاتم وهو الدين الخالد الذي كون في مدة وجيزة أمة مهيبة الجانب يشعر فيها الفرد بشعور الجماعة، يقدم نفسه فداءاً لأخيه المسلم، حتى تنازل لأخيه في المدينة عن نصف ماله وعن

---

(١) سورة المطففين.

(٢) البخاري كتاب البيوع.

إحدى زوجاته ليتزوجها الوافد المهاجر حبًّا في الله وحبًّا في دينه وإيثاراً للغير على النفس. أما حينما تمزقت هذه الأواصر في عصر التفكك والأنانية فقد رأينا من المسلمين من يتمنى ليعيش مرفهاً ولو على هلاك العالم، وهذه الأنانية هي الداء العضال، سيطرت حينما غاب الإسلام عن قيادة الحياة، سواءاً في السياسة أو الاقتصاد أو الحياة الاجتماعية أو المعاملات أو حب الذات، إذ المجتمع الإسلامي منهجه (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)[1] (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً)[2] إن مجتمعاً نظامه الاقتصادي يقوم على الربا، لتكدس الأموال بأيدي طائفة لتموت البقية جوعاً، وهم الآن بمئات الملايين، ونظامه الاجتماعي تفكك وضياع وأنانية ضربت أطنابها في الأرض، والعلمانيون هم الذين يقودون الحياة في شتى مناحيها إلا ما شاء ربك، يتحكمون في مصير الأمة ويسومونها سوء العذاب ويساومون عليها كل أفاك أثيم ويفكرون في تنحية الإسلام حتى عن بقائه كمنهج عبادة في المسجد، إن أمة لا يشعر أغنياؤها بحاجة فقرائها وقد لا يؤدي كثير منهم فريضة الزكاة الواجبة، أمة تعيش في عالم الوحوش الكاسرة وتحت ظل شريعة الغاب، وعلى هذا يتبين لك مدى حاجة العالم إلى نظام الإسلام في كل أمر، لا سيما في أمور الاقتصاد والتعامل التجاري بيعاً وشراءاً وأخذاً وعطاءاً، وفق منهج مرسوم من لدن حكيم خبير، ومن هنا تصلح الحياة وتستقيم وتنعم الحياة كلها بأحسن نظام يكفل لها سعادة الدنيا والآخرة.

* * *

---

(١) البخاري ومسلم كتاب الأيمان.

(٢) البخاري كتاب المساجد. ومسلم كتاب البر والصلة.

الفصل الخامس

سلوك المسلم وأثره في غرس المحبة

ولهذا رسم الإسلام للمسلم أفضل سلوك يهدي للتي هي أقوم، ويضمن للأمة الإسلامية الرقي والتقدم والرفاهية والألفة والمحبة. والحديث الذي رواه البراء بن عازب رضي الله عنه وضع فيه أسساً لسلوك المسلم بحيث لو طبقت لسادت المحبة بين الناس. روى البراء بن عازب رضي الله عنه قال: (أمرنا رسول الله ﷺ بسبع أمرنا بعيادة المريض واتباع الجنازة وتشميت العاطس ونصر المظلوم وإجابة الدعوة وإفشاء السلام وإبرار القسم)[1] وهذه السبعة كل واحد منها أصل في تلاحم الأمة الإسلامية وتعاطفها، وسوف نتناول كل واحد منها بشيء من التفصيل إن شاء الله.

١ ـ عيادة المريض، وهي تهدف مع ماسبق من ربط القلوب إلى التخفيف عن المريض وهو في أضعف حالاته، فزيارة إخوانه له تكسبه محبتهم، وهو يستفيد من دعائهم له، كما كان الرسول ﷺ يزور أصحابه ويدنو من المريض ويقول له لا بأس طهور إن شاء الله، وحينئذٍ يشعر هذا المريض بأن الزائر يخفف عنه ألم المصيبة ويواسيه بزيارته ، ويتحمل عنه بعض الألم ويشاطره إياه، ولربما يصف له بعض العقاقير والأدوية التي تخفف مرضه، ولربما يكون في ساعة الاحتضار فيذكره بالشهادة.

---

(١) صحيح البخاري كتاب البر والصلة.

٢ ــ واتباع الجنازة، مساهمة من المسلم في شطر من المصيبة لإخوانه أقارب الميت حيث أصيبوا بحبيبهم، كما أنه إحسان إلى الميت نفسه بما يناله من دعاء المشيعين وتعزيتهم، مع ما يغرسه ذلك من محبة في قلوب أوليائه، يضاف إلى ذلك الصلاة عليه التي هي حقيقة دعاء للميت.

٣ ــ تشميت العاطس، معناه إزالة الشماتة عنه، حيث إن العطاس في أصله تفكك أعضاء الرأس بسبب العطاس، والتشميت دعاء له بعودة أعضاء الرأس إلى مواقعها، إذ التشميت بالشين هو إزالة الشماتة عنه بطلب الشفاء له.

٤ ــ أما نصر المظلوم، فهو حق للمسلم، لأن وقوع الظلم على واحد من المسلمين يعتبر تعدياً على الأمة الإسلامية بمجموعها، وعليها أن تنتصر للمسلم خصوصاً إذا قصد المتعدي إذلاله أو إذلال المسلمين، وعلى الأمة نصر المظلوم برفع الظلم عنه، وتأثم كل الأمة إذا تركت مسلماً يُظلم فيهم وهم قادرون على نصره، ونصره يعني كسبه في صف الأمة الإسلامية، ليكون عضواً فعالاً في جسم الأمة، وقد أمر الرسول ﷺ بنصر المسلم ظالماً أو مظلوماً، فقيل كيف يا رسول الله أنصره ظالماً فقال: «تمنعه من الظلم»[١] إذاً نصر الظالم منعه من الظلم ولو بالقوة، يعتبر نصراً له على نفسه وشهواته فعلى الأمة نصر المظلوم وكذلك الظالم، بالأخذ على يده ومنعه والدفاع عن حرمات المسلمين.

٥ ــ وإجابة دعوة المسلم، أمر لازم قد يصل إلى درجة الوجوب، وأقل ما فيه أنه سنة مؤكدة، لأمر الرسول ﷺ: «من دعاكم فأجيبوه»[٢] ويقول ﷺ: «لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت»[٣] وفي إجابة دعوة

---

(١) متفق عليه.
(٢) البخاري بنحوه كتاب النكاح باب إجابة الداعي في العرس وغيرها.
(٣) البخاري كتاب الهبة.

المسلم تطييب لخاطره وبعث الأنس في قلبه، وبعث المحبة بينه وبين المجيب للدعوة، ورفضها يثير الوحشة والتساؤل بين الناس، لماذا يجيب دعوة فلان ولم يجب دعوتي، فيثير الخلاف لا سيما بين أفراد العشيرة الواحدة أو الجيران، كما أن إجابة الدعوة ترمز إلى التواضع وخفض الجناح للمؤمنين، كما أن في إجابة الدعوة تحقق لقاءات بين المسلمين، ولربما تكون لها نتائج مفيدة، لا سيما في حفلات الزواج الجماعية وما يتخللها من علم وتوجيه.

٦ ــ وإفشاء السلام، معناه إظهاره ونشره بين الناس، بحيث يقابل المسلم أخاه بهذه التحية الكريمة، فإذا قابله قال له السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ويجيب الثاني وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، هذه هي تحية الإسلام التي يقول فيها سبحانه: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾[١] فهي أمان يقابل بها المسلم أخاه المسلم، ليزيل الوحشة بينهما ليعرف أنه أخوه، وهذا السلام لا يكون لغير المسلم، ففي الحديث (لا تبدؤا اليهود والنصارى بالسلام)[٢] كما أنه مصدر الأخوة بين المسلمين ومصدر المحبة بينهم، كما في الحديث (والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أفلا أدلكم على شيء لو فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم)[٣] إذاً هو مصدر التحابب، وإفشاؤه سنة ورده واجب وانتشاره بين المسلمين أمان من الخوف، فلا تكاد تفرق بين الصديق والعدو حين المقابلة إلا بالسلام، الذي هو شعار الصداقة والمحبة وعنوان الألفة والإخاء.

٧ ــ وإبرار القسم، ومعناه عدم تحنيثه أي تأثيمه بسبب اليمين، فإن

(١) سورة النساء.
(٢) مسلم كتاب السلام.
(٣) مسلم كتاب الإيمان.

من حلف على يمين بفعل أو ترك لزمه الوفاء بذلك، والمسلم يساعد اخاه على البر بقسمه، بحيث يستجيب لطلبه إذا حلف عليه بأن يفعل أو لا يفعل، فلا يرفض مما يكون سبباً في حنثه. وهذا العمل الذي هو إبرار المقسم أو القسم كما في رواية إحسان إلى المسلم، وتكريم له، وصيانة لدينه عن الحنث، وماله عن الكفارة التي تترتب على الحنث، وفي كل منها جذب لقلبه وتطهير له من الحقد والضغينة، وعلى هذا فإن المسلم يستجيب لطلب أخيه ما لم يكن هناك ضرر عليه لا سيما إذا كان الطلب مؤكداً بيمين.

وقد حرم الإسلام أموراً تثير الحساسية بين المسلمين، وتثير نعرة الجاهلية والطبقية البغيضة. أمثلة ذلك:

١ ــ لبس الحرير والديباج والإستبرق والقسي للرجال، والمياثر والجلوس عليها، ولبس الذهب للرجال وكذلك الفضة، والأكل والشرب بأواني الذهب والفضة للرجال والنساء جميعاً، لما يترتب على ذلك من كسر قلوب الفقراء وأذيتهم، حينما لا يجدون قوتهم الضروري، ليروا بجوارهم من يأكل في مثل هذه الأوعية المحرمة وما فيها من الإسراف والبذخ، وحينئذٍ لا تسأل عما يحدث من جراء ذلك من شقاق بعيد بسبب هذا التفاوت الكبير من هاتين الطبقتين. إضافة إلى أن استعمال النقدين أواني للاستعمال تقلل تواجدها عملة للبيع والشراء، ولذلك جاء الحديث الذي رواه البراء بن عازب رضي الله عنه (ونهانا عن سبع وذكر لبس الحرير والديباج والإستبرق والقسي والمياثر الحمر والذهب)[1] والحرير والديباج فيهما من الرقة والترف ما لا يليق بالمسلم إضافة إلى الإسراف.

٢ ــ كما حرم الإسلام التكبر والتطاول على الناس، لما يحتويه هذا السلوك من احتقار لخلق الله سبحانه وتطاول عليهم، وازدراء للحق وغمط

---

(١) صحيح البخاري.

للناس، مما يسقط المتكبر من عيون الناس كافة، لذلك حرم الله سبحانه الكبرياء، فقال سبحانه في الحديث القدسي (الكبرياء ردائي والعظمة إزاري من نازعني شيئاً من ذلك عذبته)[1] ويوم القيامة يتحول هؤلاء المتكبرون أحقر الناس، كما في الحديث (المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر يطأهم الناس بأقدامهم)[2] لذلك تلاحظ يا أخي كيف يسقط هؤلاء المتكبرون من أعين الناس، حتى لا تبقى لهم أية أهمية في نفوسهم بمقدار تكبرهم على الله وعلى خلقه، إذ سلوك المسلم يبدأ من التواضع وينتهي بذلك، والتواضع وخفض الجناح صفتان كريمتان لبناء المجتمع السليم، الذي يعتبر أسرة واحدة في تلاحمها وتوادها في ذات الله، ليس فيه عظيم ولا سوقة لكنهم أخوة متحابون، يشعر كل واحد منهم بالعطف والحنين إلى كل فرد من أفراد المجتمع. أما المجتمع الذي يقوم على التفاوت الطبقي المتباعد الأطراف ففيهم الثراء الفاحش الذي يأكل ويشرب في أواني الذهب والفضة ويجلس على الحرير ويفترش الديباج، وبجواره طبقة تعيش على الأرصفة لا تجد قوت ليلة، إن مجتمعاً هذا نوعه عرضة للفتن والدمار والفواحش، فيه تباع الأعراض بثمن بخس.

* * *

---

(١) أحمد ٣/٢٤٨. وأبو داود في كتاب اللباس. وابن ماجه في الزهد.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة حسنه محقق شرح السنة.

الفصل السادس

في العلاقات المالية بين المسلمين

ويعتبر الإسلام المال المتواجد بأيدي الناس هو ماله، استخلف فيه البشر استخلافاً مؤقتاً في زمن محدود، ثم يعود المال إلى مالكه الأصلي، فقال سبحانه: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾(١) ثم يقول سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝٤٠﴾(٢) إذاً المال لله سبحانه، ويتمتع به هذا الإنسان فقط يتوارثه الناس ويتعاملون به تعاملاً مؤقتاً بطريقة مرسومة من عند الله، يلتزم كل واحد منهم بحفظ ما في يده، سواءاً كان ملكاً خاصًّا به أو ملكاً عامًّا للدولة، أو ملكاً استحفظ عليه من مال يتيم يقوم بالمحافظة عليه كماله، بل سماه الذين ماله فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾(٣) فقال أموالكم بضمير المخاطب، علماً أنها أموال اليتامى، لكن ذلك في سبيل الحث على احترامها كأموالكم إذ تلزم المحافظة عليها محافظة تامة كالمال الخاص. كما احترم مال الدولة وبيت المال، فلا يجوز التعدي عليه بحال من الأحوال لأنه ملك الجميع، والتعدي عليه يعتبر غلولاً يأتي به الغال يوم القيامة، يقول سبحانه: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾(٤)

---

(١) سورة الحديد.

(٢) سورة مريم.

(٣) سورة النساء.

(٤) سورة آل عمران.

ويقول الرسول الكريم ﷺ «ألفى أحدكم يجيء يوم القيامة وعلى رقبته شاة لها ثغاء أو بعير له رغاء إلخ فيقول يا رسول الله أنقذني فأقول لا أملك لك من الله شيئاً»[1] هؤلاء هم الذين يتخبطون بمال الله تعالى، ويتلاعبون بأموال المسلمين، ويعتبرونها مغنماً يتمتعون بها، بعد أن جعلوا أمر المسلمين كالوسادة، حيث وسد الأمر إلى غير أهله، فإذا تخبطوا في هذا المال فلهم النار يوم القيامة، كما جاء في الحديث عنه ﷺ أنه قال: «إن رجالاً يتخبطون بمال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة»[2] وهؤلاء القوم كثيرون في دنيانا اليوم، فكم من دينار ينفق بدون حق من بيوت أموال المسلمين، وجزء كبير منها يصرف في أمور محرمة جاءت لمحاربة هذا الدين، أما مال الأفراد فقد حرم الله أكله بالباطل، فقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾[3] وهو تشغيله في المحرمات ومنع الواجبات كالزكاة والنفقات الواجبة والكفارات وغيرها من الحقوق الواجبة، والنفقة في سبيل الله تعالى وفي طرق الخيرات الكثيرة، التي أمر الله سبحانه في الإنفاق فيها لحماية البشرية من الفقر والجهل والمرض والتكفير على أيدي الحاقدين من الكفرة الذين يصطادون المسلمين على الحب بسبب فقرهم وجهلهم، كما هو الآن في أفريقيا وجنوب شرق آسيا وغيرها من المناطق التي تسلط عليها العدو منطلقاً من فقرهم الذريع، إنها أمم تتفلت من الإسلام بسبب الشح بهذا المال الذي هو وسيلة إلى حياة أفضل، وبجوار ذلك تنفق المليارات في سبيل الشيطان والمحرمات، وكان الأصل أن تنفق هذه الأموال في سبيل الله.

المال في مورده وطريقة تشغيله:

ولقد اهتم الإسلام بهذا المال الذي يتداوله الناس في موارده

---

(١) البخاري ومسلم كتاب الزكاة.

(٢) البخاري كتاب الخمس باب فإن لله خمسه.

(٣) سورة البقرة.

ومصادره وتشغيله، ليكون مصدر مودة وإخاء لا مصدر تشاحن وتقاطع وبغضاء، وما حرمت معاملة في الإسلام إلا لما يترتب عليها من خلاف وشقاق بين المسلمين، وقد صار المال في أيامنا الحاضرة مصدر تقاطع في كثير من الأحيان حتى بين أبناء الرجال الواحد بسبب ميراث تافه أو وقف لا يستحق.

موارده:

أمر الله سبحانه المسلمين بالضرب في الأرض لطلب الرزق الحلال، فقال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾[1] فأمر بالمشي في الأرض أي السير الطبيعي، كما أمر بالسرعة باغتنام الصالحات، فقال سبحانه: ﴿ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[2] ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾. لكنه سبحانه قدم الضرب في الأرض لطلب الرزق الحلال حتى على الجهاد في سبيله في سورة المزمل، ليحث الناس عليه حتى لا يكون المسلم عالة على غيره، فقال: ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[3] فالسعي لطلب الرزق الحلال أمر مطلوب، والتواكل وتكفف الناس والحياة على الصدقة وما في أيدي الناس سفه وذلة، إذاً لا بد من السعي للرزق، مع أنه سبحانه قد تكفل لكل دابة في الأرض برزقها لكن ذلك لا يمنع السعي ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾[4] وقد شرع سبحانه طرقاً كثيرة للكسب الحلال كالبيع والشراء، والحرف والمهن المتعددة، والصناعة والزراعة وغيرها، وقد حث عليها لأن كل حرفة من هذه الحرف تجمع كمية من البشر متماسكي الأيدي ليقوموا بها مجتمعين.

---

(١) سورة الملك.

(٢) سورة الجمعة.

(٣) سورة المزمل.

(٤) سورة هود.

الزراعة: حث عليها الإسلام وأخبر الرسول ﷺ بتعدي منفعتها إلى الغير حتى الحيوان والطير، يقول عليه الصلاة والسلام: «ما من مسلم يغرس غرساً فيأكل منه إنسان أو حيوان إلا كان له أجر»[1] إضافة إلى أن عمل الزراعة بطبيعته يشغل أيدي عاملة كثيرة تستفيد منها الأمة، إضافة إلى ما تقدمه الزراعة من أرزاق للبشر يستغنون بها عن غيرهم.

الصناعة: الصناعة مهنة شريفة تستهلك كثيراً من الأيدي العاملة، وتوفر الحاجيات للناس، وقد أخبر سبحانه أن من رسله من قام بهذه المهمة فنوح ﷺ كان نجاراً وداود كان حداداً وقد أرشده الله سبحانه إلى أفضل طريق لصناعة الدروع، فقال سبحانه: ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾[2] أي قارب حلق الدروع لتكون أقوى، وهذه المهنة ـ الصناعة ـ تزيد أهميتها اليوم حينما صارت الضرورة ملحة لها في عالم التقنية الحديثة، لا سيما صناعة السلاح إعداداً للقوة.

وكذلك **التجارة**: حيث توفر السلع للناس، وقد حث عليها الرسول ﷺ ولا تخفى قصة الرسول ﷺ مع (الرجل الفقير الذي جاء يسأل الرسول ﷺ صدقة فقال أما في بيتك شيء قال قعب نشرب فيه وجلس نجلس عليه فقال ائتني بهما فقال ﷺ من يشتريهما فقال رجل أنا يا رسول الله بدرهم فقال من يزيد فقال آخر بدرهمين فباعهما النبي ﷺ وأعطى الدرهمين للرجل فقال اشتر بأحدهما طعاماً وانبذه لأهلك واشتر بالآخر فأساً فوضع فيه الرسول ﷺ عوداً وقال اذهب واحتطب ولا أراك إلا بعد خمسة عشر يوماً فجاء الرجل إلى الرسول ﷺ وقد حصل على مال كثير فقال له ﷺ هذا خير لك من أن تأتي المسألة نكتة في وجهك)[3] هكذا يعلم الرسول ﷺ أمته

---

(١) البخاري كتاب الزراعة. ومسلم كتاب المساقاة.

(٢) سورة سبأ.

(٣) أحمد م/٣ ص ١١٤.

طريق الكسب الحلال بدلاً من الحرام، فطريق الحرفة والتجارة والصناعة والزراعة من أفضل طرق الكسب، وكان الصحابة يشتغلون في هذه المهن ما تمنعهم عن مهنتهم الكبرى في الدعوة والجهاد، وكانوا يحثون الناس على هذه المهن، وكان عمر رضي الله عنه إذا أعجبه الرجل سأل هل له مهنة فإن قيل لا سقط من عينه. أما الرسول ﷺ فقد حث سعد بن أبي وقاص على إغناء أولاده وقال له: (إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير لك من أن تذرهم عالة يتكففون الناس)[1] وقال ﷺ: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله»[2] وكان لكل واحد من أصحاب الرسول ﷺ وسيلة لكسب العيش، فما كانت الدعوة ولا الخلافة ولا الجهاد مهنة، إنما كانت عملاً يتقربون به إلى الله سبحانه. كان أبو بكر رضي الله عنه بزازاً يبيع الأقمشة، وكان عثمان رضي الله عنه صاحب شراء واستيراد وتصدير، وكان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه كذلك.

نصيحة نوجهها للدعاة:

وإننا في وقت زادت فيه المساومة على دين الله تعالى، حتى إن الدعاة من خلال الوظيفة الحقيرة التي هي أبسط وسائل الرزق صاروا يساومون على رزقهم ومنهجهم، ولربما يرجع بعضهم من منتصف الطريق حبًّا للمال الذي استعبد به من أجل الوظيفة التي صارت قيداً في رجليه، ننادي من خلال هذا الواقع أن ينطلق الدعاة من منطلق القوة، بحيث تكون لهم أعمال حرة يقتاتون من كسبها وينفقون على أسرهم من إنتاجها، حتى يرفعوا رؤوسهم ولا يحنوها لغير الله سبحانه فهو الذي وحده عنت له الوجوه . وحرم الإسلام كثيراً من المعاملات لما فيها من امتصاص الأموال لطبقة معينة، أو لما يترتب عليها من تفكيك لأواصر المجتمع، ولما يعود من أضرارها على

(١) في الصحيحين.
(٢) البخاري ومسلم وأحمد والترمذي وغيرهم.

الناس، مثل الربا الذي هو من أعظم المحرمات بل هو أعظمها بعد الشرك بالله تعالى، فهو أعظم من الزنا والسرقة، فهو حرب لله ولرسوله وامتصاص لدماء الناس وأموالهم، كذلك بيع الغرر والمجهول والنجش والغش وتطفيف المكاييل والموازين، وغير ذلك من المعاملات الفاسدة التي تستهلك أموال الناس وتحوزها إلى قوم لتعيش أمة كبيرة في فقر ومسغبة، ويكون المال دولة بين الأغنياء فقط، كماحرم الإسلام احتكار السلع وحبسها لتغلى على الناس (المحتكر خاطىء والمحتكر ملعون)[1] وهذا وعيد شديد لما يترتب على الاحتكار من ظلم للناس، وإضعاف للتجارة وتقليل للسلع والأطعمة بين الناس، وغلاء في الأرزاق وشدة في المؤونة، حتى إن المجاعة لتعم والسلع مخزونة في المستودعات لمصلحة فرد أو أفراد. كذلك حرم الإسلام الغصب والسرقة واللصوصية وابتزاز المال، وأمر بقطع يد السارق بالرغم من نفاسة الإنسان وأعضائه، لكنها تهون حينما تكون خائنة ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾[2] محافظة على المال والأمن بين الناس. وأشد من هذه معاملة الإسلام لقطاع الطريق ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾[3] (ومن اغتصب شبراً من الأرض طوقه من سبع أرضين يوم القيامة)[4] فاحترم الأموال وعظم التعدي عليها، وحرم الإسلام تلقي الركبان وأن يبيع حاضر لباد، والسر واضح في ذلك حيث إن عدم بيع البدوي سلعته بنفسه يضر بالحاضرة ويزيد الأسعار على الناس، لكن حقه لا يضيع بالنسبة لبيع سلعته بسعر أفضل، فلا يجوز تلقيه خارج المدن حتى لا ينخدع بالسعر، فيبيع بالأرخص حيث لا يستفيد هؤلاء الذين سوف يبيعونها بسعر

---

(١) مسلم كتاب المساقاة بلفظ لا يحتكر إلا خاطيء.

(٢) سورة المائدة.

(٣) سورة المائدة.

(٤) البخاري كتاب بدء الخلق بلفظ (من أخذ) وبلفظ (من ظلم) ومسلم كتاب المساقاة.

أعلى، وهكذا يعتبر الإسلام قد أعطى الرقم القياسي بالتعامل التجاري ووضع قواعد للحياة التجارية بعيدة عن الخداع، لكنها تراعي وضع المستهلك أكثر من المنتج والبائع، تقديماً للمصلحة العامة على الخاصة مع مراعاة مصلحة الطرفين، لكن كثيراً من الناس يسيئون التعامل من منطلق شهوة حاضرة وينسبون ذلك للإسلام ليشوهوا سمعته، ولربما يتعدون الحدود التي شرعها الله سبحانه، فيقعون فيما حرم الله فيجرون الوبال الشديد على مجتمعهم والله المستعان.

وأخيراً نقول:

إن هذا المال ابتلاء وهو فتنة هذه الأمة، فما على الناس إلا أن يأخذوا منه بالنصيب الطاهر النقي، وسوف يسأل هذا الإنسان يوم القيامة عن هذا المال، من أين اكتسبه ولا يظن أنه حر التصرف مفلت من القيود، وأخطر شيء على حياة البشر هو الرزق الحرام (وأي جسم نبت من سحت أو ربا فالنار أولى به)[1] الرزق الذي يكسبه الإنسان من ربا أو خداع أو غصب أو احتكار سلعة أو ما أشبه ذلك ليكسب مالاً كثيراً، فلربما لا يتمتع به في حياته فهو لا يعدو أرصدة وأرقاماً لا يعلم عنها لكنها عبء ثقيل وحساب عسير يوم القيامة.

أما مصادر المال:

فقد شرع الله سبحانه طرقاً للإنفاق الحلال، وحرم طرقاً أخرى لما يترتب عليها من الضرر في حياة الناس، ونهى أن يحبس هذا المال فلا ينفق منه حيث أمر الله سبحانه بالنفقة على الأهل والأولاد والزوجة حسب القدرة والاستطاعة، يقول سبحانه: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ

(١) البيهقي وأبو نعيم.

﴿مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾[1] فالنفقة على هؤلاء أمر واجب، وهو أفضل طريق لتقوية الصلة بين أفراد الأسرة، كذلك شرع الزكاة الواجبة، ليتعدى هذا المال الأسرة الصغيرة إلى الأسرة الكبيرة الأمة الإسلامية، فالزكاة تؤخذ من أغنياء المسلمين لترد على فقرائهم، وهي جزء بسيط من أموال الأغنياء تسد حاجة الفقراء وعوزهم، وفيها الأجر العظيم، وهي حصانة للمال من الفساد والهلاك وكذلك، الكفارات التي تكفر ذنباً اقترفه هذا الإنسان، حيث الصدقة تطفيء الخطيئة سواء كانت كفارة يمين أو قتل خطأ أو نحوها، فهي إلى إضافة وجوبها هي أيضاً ضمان للفقراء والمعوزين، كذلك النفقة المستمرة في سبيل الله تعالى، للجهاد ونشر العلم والدعوة إلى الله سبحانه ونحو ذلك من الأمور التي لا تقوم حياة الناس بدونها، فالنفقة على الدعوة إلى الله والدعاة والجهاد في سبيل الله والمجاهدين نفقة مضاعفة إلى أضعاف كثيرة إلى سبعمائة ضعف وأكثر من ذلك، وعلى هذا تتضح الرؤية بالنسبة لنظرة الإسلام إلى المال واحترامه ودورته بين الناس بطريقة منظمة تكفل للناس جميعاً السعادة المؤقتة في ظل الدين الحنيف، ليصير هذا المال بعد إلى مالكه الأصلي الله سبحانه وليتخذه هؤلاء الأتقياء الذين يدركون سر الحياة سبيلاً إلى حياة أفضل ومطية إلى سعادة خالدة (نعم المال الصالح للرجل الصالح) وهو سلاح ذو حدين يمكن استعماله لعمارة الحياة الآخرة، ويمكن بطريقة عكسية ليكون زاداً إلى النار، فمن أخذه من حله وعرف حق الله فيه وأنفقه في طريق الحلال وأدى الواجبات وأنفق في الليل سرًّا وعلانية كان له مصدر سعادة، أما إذا اتخذه وسيلة للرياء والسمعة والبذخ والإسراف واستعباد البشر واستذلالهم كان زاداً له إلى النار، وسوف يسأل عنه يوم القيامة كيف أنفقه، فالدنيا حلوة خضرة إستخلف الله هذا الإنسان فيها لينظر كيف يعمل، وجعل هذا المال وسيلة إلى حياة أفضل فليتق الله فيه هذا الإنسان.

---

(١) سورة الطلاق.

وبعد:

نقول للذين من الله عليهم بهذا المال اتقوا الله فيه، فهو وسيلة لا غاية وسيلة إلى الجنة، ووسيلة إلى امتلاك قلوب الناس، ووسيلة إلى سعادة أفضل، فلا تغتروا بما خولكم الله سبحانه فالله يبتلي عباده بالمال كما يبتليهم بالفقر ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾[1] فاعرفوا قدر هذا المال فلا تكسبوه إلا من طريق حلال ولا تنفقوه إلا في حلال، وكم من إنسان بخل به ومنع حقوقه فترك هذا المال أو سلط الله عليه آفة من الآفات فأهلكته، فصار الغني فقيراً والموسر معسراً، وعلى هذا يعتبر هذا المال وسيلة للأخوة والرابطة بين المسلمين، به يتواصلون ويتهادون وبه يسخر بعضهم بعضاً، هذه هي الحكمة التي من أجلها فاوت الله بين الناس بالأرزاق ليكون المال وسيلة سعادة الحياة من جانب ومن جانب آخر ليكون مصدر أخوة لا مصدر علو وكبرياء وتسلط، يقول سبحانه: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[2] فجرت حكمته سبحانه أن يكون هناك تفاوت في الأرزاق لعمارة هذا الكون ولو كان الناس طبقة واحدة وعلى مستوى واحد لتعطلت الخدمات بين الناس.

* * *

---

(١) سورة الأنبياء.

(٢) سورة الزخرف.

الباب الخامس

- حقوق الإنسان
- العلاقات الفردية بين المسلم والكافر
- العلاقات الدولية بين المسلمين والكفار.
- تنظيم السلم والحرب بين المسلمين والكافرين.

الباب الخامس

في العلاقات الإنسانية

(وفيه أربعة فصول)

مقدمة:

البشر جميعاً يرجعون إلى أصل واحد، أبوهم واحد، وأمهم واحدة، فهم يرجعون إلى أصل واحد، يربطهم النسب، وتوحد بينهم المصالح، لولا ما حدث ما تفرق بسبب الإيمان والكفر. فقد كانوا أصحاب عقيدة واحدة، هي عقيدة الإيمان والتوحيد: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾[1]، وفي الحديث القدسي: (خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالوهم عن دينهم)[2]. وبقيت هذه العقيدة سليمة حتى تسلطت عليهم الشياطين بعد الإهباط إلى الأرض، ثم قتل ابنا آدم أحدهما الآخر، ثم بدأ الانحراف عن التوحيد. ثم بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، فكان التفرق: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ﴾[3].

فقد أشارت الآية إلى سر الاختلاف وهو بعث المرسلين مبشرين ومنذرين، حيث آمنت فرقة بالمرسلين، وكفرت فرقة أخرى فكان العالم

---

(١) سورة الأعراف.

(٢) مسلم حديث ٢٨٦٥.

(٣) سورة البقرة.

قسمين، مؤمن وكافر. إذاً هناك علاقة وثيقة بين الإنسان وبين جنسه لولا، هذا التفرق الذي جعل الناس قسمين، فتأثرت هذه العلاقة بالعقيدة تأثراً هامًّا، فلم يعد الإنسان أخاً للإنسان ما لم تكن العقيدة واحدة، فذلك الأصل منسوخ بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1]، أما المؤمن فليس أخاً للكافر، ولو كان هناك نسب عريق وقرب بينهما، لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾[2]. أما علاقة الكافر بالكافر، فهي وإن كانت في الأصل موجودة ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ لكنها في الحقيقة هزيلة لضعف الرابطة وعدم أصالتها: ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾[3] وفي الآخرة تنهار هذه الرابطة بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾[4].

ومن هنا ندرك أصالة المبدأ الذي يقوم على عقيدة عن غيره، فالأولى علاقة وثيقة مرتبطة بالله سبحانه، هو الذي شد وثاقها، والثانية علاقة مادية مصطنعة، تقوم على مبادىء متهاوية، سرعان ما تنهار أمام الأحداث، والأولى تزيد أصالة على مرور الأيام والأحداث.

وعلى هذا فإننا نشاهد اليوم تنكراً شديداً، وخروجاً على هذه الرابطة المتينة، بصنع روابط تافهة، لا صلة لها بالعقيدة والدين، وإنما تقوم على مصالح مشتركة، أو قوميات جاهلية، جل اهتمامها بالدم والتراب ونحوهما.

---

(١) سورة الحجرات.
(٢) سورة الأنفال.
(٣) سورة البقرة.
(٤) سورة الأحزاب.

الفصل الأول

حقوق الإنسان:

الإنسان هو أحد تلك المجموعة التي نسلت من ذرية آدم وانتشرت في الأرض، ويطلق على المجموعة الناس، ويخص من الثقلين الإنس. ولعل الناس مأخوذ من الإنس، لأن كل واحد يأنس بالآخر، وواحده إنسان.

يقول الله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾[1]. والإنسان هو ذلك النوع الكريم من خلق الله سبحانه، الذي سخر كل شيء لأجله، ومن أجل خدمته، حتى الملائكة أسجدهم لأبيه الأول، وجعلهم في خدمته حفظة وكتبة.

الإنسان هو ذلك المحترم، الذي ميزه الله بالعقل، وشرفه به من بين سائر المخلوقات. هو ذلك الإنسان الذي جعل كل المخلوقات مذللة له، يأكل من لحمها ويركبها ويلبس من صوفها، ولولا العقل لما كان هذا الإنسان سيد هذه المخلوقات والمسيطر عليها. يقول الشاعر:

لولا العقول لكان أدنى ضيغم ... أدنى إلى شرف من الإنسان

هذا هو الإنسان في اختيار الله تعالى له، أما في نظر الملاحدة فهو كما

---

(١) سورة الإسراء.

قال دارون: إن الإنسان ولد نتيجة التفاعل الكيماوي الحيوي، كان حشرة تعفنت على وجه الأرض، فتطورت هذه الحشرة حتى وصلت إلى الإنسان. وهذه النظرية هي النظرية السائدة عند الملاحدة عن الإنسان، حتى كان من آثارها إبادة الإنسان كما تباد الحشرات بناءاً على الأصل والنشأة.

الإنسان في نظر الإسلام كما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾[1]، فهو أعظم المخلوقات، والتعدي عليه أعظم من التعدي على كعبة الله، كما كان ابن عمر رضي الله عنه يطوف حول الكعبة ويقول: ما أعظمك، وأعظم قدرك، ولقتل مسلم أعظم من الله من هدم الكعبة.

هذا الإنسان يرتفع إلى هذا المستوى حينما يعرف ربه، ويخضع لدينه، أما إذا انحرف فهو أخس من الحشرات السامة والخنافس والجعلان، بدليل قوله تعالى: ﴿ ۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝٢٢﴾[2]، ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٥﴾[3]. فانظر إلى الفارق البعيد بين المؤمن والكافر، كما بين السماء والأرض، فالمؤمن أعظم المخلوقات، والكافر شر المخلوقات، والفرق بينهما بعيد.

منظمة حقوق الإنسان:

تدعي الحضارة الغربية أنها تكرم الإنسان، وتتبنى قضاياه الراهنة، ومن هذا المنطلق تأسست فيما يسمى هيئة الأمم، منظمة باسم منظمة حقوق الإنسان، هدفها المحافظة على الإنسان، والدفاع عنه، ومحاسبة الدول التي تبيد البشر وتتعرض لهم بالأذى، ولها فروع تهتم بهذا الجانب، مثل محكمة العدل الدولية، وجمعية العدل الدولية، ومنظمة العدل وغيرها.

---

(١) سورة التين.
(٢) سورة الأنفال.
(٣) سورة الأنفال.

وإذا نظرنا إلى هذه المنظمة، التي تنطلق من بلاد كافرة تحتضنها، وأيضاً المراقبون والمنفذون هم كفار أيضاً، ينطلقون في تصرفاتهم من نفس المنطلق، فلا نتفائل من إنتاجها. ثم إذا نظرنا إلى واقع هذه المنظمة لم نجدها تعطي الإنسان جزءاً بسيطاً مما أعطاه هذا الدين.

حقًّا لقد شرد المسلمون وأوذوا وأبيدوا في نفس الفترة التي وجدت فيها هذه المنظمة. فكم قتل من المسلمين في التركستان، وفي أفغانستان، وفي فلسطين، وفي أريتريا والحبشة على يد السفاح هيلا سلاسي (شرطي البحر الأحمر). وفي البلاد العربية، وفي الصومال، هل تعلم أيها الأخ الكريم أن عشرة من أفاضل علماء المسلمين، أحرقوا بالنار علناً أمام الناس يوم الجمعة، حينما اعترضوا على السفاح زياد بري الهالك ملكه. فماذا عملت هذه المنظمة لهؤلاء؟ أم هل تعلم أنه في يوم واحد قتل عشرة آلاف مسلم في إريتريا، ولم تتحرك هذه المنظمة الكافرة لهم. ولو كانت هذه الإبادة لعشرة آلاف كلب لتحركت جمعية الرفق بالحيوان. أم هل تعلم أن مدينة واحدة في الشام قتل فيها ما يزيد على ثلاثين ألف مسلم يطالبون بتطبيق الإسلام في بلادهم، وكان أحد زعمائها وهو يهد عليهم بيوتهم يقول سوف نحول هذه المدينة إلى مزارع للباقدونس. وفعلاً تتحول هذه المدينة الآن إلى ميادين فارغة. أم هل علمت ما فعل طاغوت مصر وسفاحها بالإخوان المسلمين، حيث أبادهم، وخص بذلك العلماء والمصلحين. وغير هؤلاء كثير جدًّا لا ينحصروا أبداً، والله المستعان على ما يصفون.

أين منظمة حقوق الإنسان من هذه التصرفات، ثم هل نرجو من منظمة كافرة أن تدافع عن حقوق المسلمين وهم لهم عدو لدود. أما حقوق الإنسان الحقيقية فلم تقررها هيئة الأمم، الذي قررها هو الإسلام، حينما قرر تكريم

بني آدم وقال: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾[1]. وقررها الرسول ﷺ يوم عرفة وهو واقف على بعيره يقرر حقوق الإنسان: (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا)[2].

لقد قررها ﷺ ونفذ هذا القرار، والمسلمون من بعده، حينما تحركت جيوشهم في أرجاء العالم، يدافعون عن البشر المستضعفين في الأرض، استجابة لأمره سبحانه: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ ﴾[3]، حتى قال عمر رضي الله عنه: (لو عثرت بغلة في العراق لسألني الله عنها لِمَ لَمْ تصلح لها الطريق يا عمر)، أما الآن، فيعثر خيار البشر، يبادون ويسجنون حينما يقولون كلمة الحق بشيء من الحرية. فأين هيئة الأمم؟

أعتقد أن هيئة الأمم تؤدي دورها لو كان هذا الإذلال لغير المسلمين. بل لا شك في ذلك، لو أُعتدي على يهودي أو نصراني لقامت الدنيا ولم تقعد، وإذا أردت الدليل على ذلك فاقرأ أسباب استعمار بلاد العرب.

استولى الإنجليز على مصر واستعمروها سنين طويلة، بسبب كافر تابعه الفلاحون حينما كان يزعجهم ببندقيته، وهو يتابع الصيد ويهلك محاصيلهم، فيلاحقونه ثم يهلك في الصحراء. وبناءاً على هذه الجريمة يستولي الإنجليز على مصر سنين طويلة ولا يخلصهم إلا الإسلام،، وذلك في عصر حقوق الإنسان.

أما الجزائر فقد استعمرها الفرنسيون ما يزيد على قرابة قرن وربع من الزمان، أسوأ أنواع الاستعمار، حتى أبادوا أمماً، ومسخوا أمماً أخرى،

---

(١) سورة الإسراء.
(٢) البخاري كتاب الحج ومسلم كتاب الإيمان.
(٣) سورة النساء.

وغيروا معالم المسلمين، واللغة كادوا يفرنسونها لولا لطف الله سبحانه. أما السبب فقد ذكره المؤرخون، حيث أشار الداي حاكم الجزائر المسلم إلى المندوب الفرنسي بعود المروحة التي كان يروح بها، فزعم المندوب أنه إهانة، وهكذا البقية.

إذا كان هناك حقوق للإنسان فهي هذه. أما هذه الإبادة الجماعية للمسلمين، كما تُباد الحشرات، فلا دخل لها في ملف هذه المنظمة الكافرة. مليون ونصف أفغاني أبيدوا وهم يدافعون عن دينهم وحريتهم، ومثلهم مقطع الأعضاء، لا وزن لهم في منظمة حقوق الإنسان. ولو أوذي يهودي واحد أو نصراني واحد لكان الأمر خطيراً جًّدا.

فهل نتطلع لمنظمة حقـوق المسلمين تنبثق فكرتها من مكة المكرمة أو المدينة، لا من واشنطن، لترحم هؤلاء المسلمين المستضعفين الذين لا وزن لهم في الحياة. فدماؤهم أرخص الدماء، وأعراضهم أرخص الأعراض، وهم أقلية في ألف مليون مسلم، وغرباء بين أهليهم وعشيرتهم وفي ديارهم.

ماذا فعل السفاحون بالفلسطينيين في صبرا وشاتيلا وتل الزعتر؟ أمن هذه المنظمة؟ ماذا يعيش الأن في سجون الطغاة التي تحولت إلى معتقلات. سجن بأكمله يُهد على أصحابه في وضح النهار بالمجنزرات، فيه أبرياء لا يعرفون ماذا حدث، حتى صار هو مقبرتهم، دون نكير ولا ناصح، فأين هيئة الأمم؟

* * *

الفصل الثاني

في العلاقات الفردية بين المسلم والكافر

يقول الله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾[1]، ويقول سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾[2]. اقتضت سنة الله سبحانه في هذه الحياة، أن ينقسم الناس إلى قسمين، مسلم منقاد إلى أمر الله سبحانه، مطبق لتعاليم هذا الدين، وكافر رفض هذا الدين الذي أنزل لهداية البشرية. وكلمة مسلم لها معنيان:

١ ـ المسلم يطلق على المنقاد لأمره سبحانه، وهذا الإسلام هو الذي قال الأنبياء جميعاً ومن اتبعهم: ونحن له مسلمون. فهو الانقياد لله تعالى بالطاعة، وعلى هذا يكون الإسلام بمعناه اللغوي أي الانقياد لله تعالى بالطاعة.

٢ ـ كما يطلق الإسلام في معناه الاصطلاحي على اعتناق دين الإسلام الذي جاء به إبراهيم ﷺ من عند ربه، وحدده محمد ﷺ: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا ﴾[3]، وهو، إضافة إلى المعنى السابق الانقياد، هو أيضاً مجموعة تشريعات سماوية، وأركان تعبدنا الله تعالى بها،

---

(١) سورة الحشر.
(٢) سورة التغابن.
(٣) سورة الحج.

وهي الأركان الخمسة، شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، والصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، وهو المقصود به سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[1]. ومعلوم بالضرورة التناسخ في هذه الأديان، فقد نسخ بعضها بعضاً، وآخرها الإسلام الذي هو الدين الخاتم، لا يقبل الله سبحانه ديناً غيره، حتى يرث الله الأرض ومن عليها. ويقول الرسول ﷺ: (والذي نفسي بيده لا يسمع بي يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بالذي جئت به إلا كان من أصحاب النار)[2]. والبحث في أصحاب الفترة وأبناء الكفار يحتاج إلى طويل بحث، ولا يدخل في موضوعنا هذا، إنما الذي يهمنا هنا هو تحديد الكافر في معناه الشرعي، وهو من رفض دين الإسلام، ومن لم يؤمن برسالة محمد ﷺ من اليهود والنصارى والوثنيين والملاحدة والزنادقة والمارقين. ويدخل هنا أيضاً المنافقون الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، كما يدخل فيهم العلمانيون، كفار هذا العصر، وهم الذين يجردون الإسلام من صلاحيته لقيادة الحياة، حيث يعتقدون أنه منهج عبادة لا منهج حياة اقتصادية واجتماعية وسياسية وحكم إلخ...

وهؤلاء العلمانيون هم أكبر خطر على هذه الأمة، لأنهم يضربونها من الداخل، ويصعب التحرز منهم، لأنهم من أبناء جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا، لكنهم دعاة على أبواب جهنم. كما يدخل في هذا الحكم القوميون الذين يقدمون الوطن على الدين، ويعتبرون الرابطة بين البشر هي رابطة الدم والوطن والتراب، حتى قال قائلهم قاتله الله:

بلادك قدمها على كل ملة ومن أجلها أفطر ومن أجلها صم[3]

تصور يا أخي المسلم هذا الكفر الصريح، وهل يمكن أن يكون هناك

---

(١) سورة آل عمران.

(٢) مسلم كتاب الإيمان حديث ٢٤٠.

(٣) الأخطل الصغير.

كفر فوق هذا الكفر، يعبد الوطن، ويقدم حبه على كل الملل، وله يصوم وله يفطر، فماذا بقي لله سبحانه وتعالى من حق العبادة، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيراً. وهذا النوع من البشر مرت به فترة وله صولة وجولة، حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون. ولقد عجبت كثيراً حينما قرأت لدكتور في إحدى الجامعات يشكك في كفر النصارى، ويقول إنهم أرباب دين سماوي فكيف نكفرهم. هكذا يبلغ الجهل بالإسلام في بعض المثقفين، ولا أظنه جهلاً، بل هو عناد لهذا الدين، وطعن في تعاليمه، وردة عن الإسلام، ولا أبا بكر لها نقول أيضاً حتى اليهود أصحاب دين سماوي قبل النصارى، إذاً هم مسلمون؟ فليس من المعقول أن يشك مثل هذا بمثل هذه القضية البديهية، وهو دكتور وأستاذ جامعة، وفي بلد الإسلام الأول.

إذاً دين الإسلام ليس ناسخاً للأديان في مفهوم هؤلاء ما دامت النصرانية ديناً صحيحاً. أما المسلم فلا يشك في كفر كل هؤلاء، ومن شك في كفرهم فليراجع دينه لأن ذلك معلوم من الدين بالضرورة القاطعة. فمن لم يكفر النصارى فهو مرتد لا دين له.

بقي أن نحدد ما تعريف الدولة الإسلامية، وما ميزتها عن الدولة الكافرة؟ يمكن أن نرجىء هذا البحث في الفصل الثالث في العلاقات بين المسلمين والكافرين.

وهناك سؤال يفرض نفسه. . هل الزعيم الذي يحكم بغير ما أنزل الله كافر أم لا؟ وهل يدخل ضمن الفئات السالفة الذكر؟ الحقيقة أن أي مسلم يتتبع نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة لا يشك في كفر هؤلاء، حيث جاء بنص القرآن الكريم: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾[1]، ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾[2]، ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ

(١) سورة المائدة.
(٢) سورة المائدة.

﴿ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾[1]، ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾[2]. فالآية الأولى حكمت بكفرهم، ولا حاجة إلى القول بكفر دون كفر، لأنه ليس هناك إلا الحق أو الضلال. والكفر بمعنى الخروج من الملة هو المتبادر للذهن، وإخراجه عن معناه الأصلي يحتاج إلى دليل خاص. أما الظلم فهو واضح لأنه تعدي على مصلحة البشر. كما أن الظلم يطلق على الكفر والشرك ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾[3]. وكذلك الفسق يطلق على الكفر، ولذلك سمى الله تعالى إبليس، وهو أكفر الكافرين، فاسقاً فقال سبحانه: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[4].

وهناك تحليل لسيد قطب رحمه الله لهذه الآيات الثلاث، يقول ما مضمونة: إن الله تعالى لما ذكر الإعراض عن تحكيم القرآن ذكر الكفر، فالمعرض عن تحكيم القرآن كافر. ولما ذكر الإعراض عن تحكيم التوراة ذكر الظلم ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ ثم قال الظالمون: ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾، فالإعراض عن تحكيم التوراة في وقتها ظلم، ويكون دون الكفر. ولما ذكر الإعراض عن تحكيم الإنجيل ذكر الفسق ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾. إذ الإعراض عن تحكيم الإنجيل في وقته فسق. انتهى كلامه. وهذا كلام جيد يناسب هذا التوزيع في الآيات الثلاث فليعلم.

بقيت الآية في سورة النور: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ... إلى قوله... أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾[5] ويمكن أن يرد الظلم إلى الكفر كما سلف، ويمكن أن

---

(١) سورة المائدة.
(٢) سورة النور.
(٣) سورة لقمان.
(٤) سورة الكهف.
(٥) سورة النور.

نقول إن المعرضين الآن عن تحكيم القرآن لا يعتقدون صلاحيته لحياة الناس، وهذا أكفر الكفر.

أما الشعوب:

أما الشعوب المغلوبة على أمرها حينما تتحاكم إلى هذا الطاغوت مقتنعة بهذا الحكم فلا شك في كفرها إذا اعتقدت عدم صلاحية هذا الحكم لحياة البشر اليوم، لذلك حكم الله تعالى بكفر هؤلاء فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [(1)].

انظر يزعمون أنهم آمنوا، يتحاكموا إلى الطاغوت، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً، وهذه كلها تدل دلالة واضحة على مروقهم من الدين القويم.

أما الشعوب المغلوبة على أمرها، إذا أنكرت بقلبها، ولم تستطع الإنكار بوسيلة أخرى، لكنها لم تتحاكم إلى هؤلاء الطواغيت، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وعليها الصبر والاحتساب حتى يأتي الله بالفتح أو بأمر من عنده ويظهر الحق.

بعد هذه الجولة الطويلة في بيان فئات الكافرين، يمكن أن نعود إلى صلب الموضوع، ما هي العلاقة بين المسلم والكافر؟ والجواب: لا علاقة بينهما حيث التفاوت في الدين، وهو أعظم سبيل يفرق بين الناس: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾. إذاً لا علاقة بين المسلم والكافر، سوى علاقة النسب التي يجب أن ترعى بحدود محدودة فقط، وتنحصر في جانب الصلاحية للوالدين والإحسان إليهما، وعدم التعدي على كافر مسالم بدون سبب، ما لم يكن حربيًّا أو مرتداً أو مفسداً في الأرض. يقول الله سبحانه:

---

(١) سورة النساء.

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾[1]. وحدد المقدار الذي لهما بالآية الأخرى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴾[2].

كذلك الصلة بالمعروف، سألت أسماء رسول الله ﷺ عن أمها حينما قدمت إليها وهي راغبة (قالت: أفأصلها؟ قال: نعم). وهذه الصلة هي بذل المعروف دون مصاحبة أو محبة. كما أمر الله تعالى بالبر والإقساط للكافرين، والبر هو بذل المعروف، والإقساط العدل في الحكم بحيث يأخذ الكافر حقه في الإسلام بلا ظلم ولا شطط. ولنذكر هنا قصة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه مع اليهودي، حينما فقد علي رضي الله عنه درعه في صفين، فوجده عند يهودي، فرافعه إلى القاضي شريح، فأجلس شريح القاضي عليًّا رضي الله عنه واليهودي على كراسي الحكم، والتفت القاضي إلى علي رضي الله عنه وقال: هل عندك بينة يا أبا الحسن؟ فقال: لا، فقال: الدرع لليهودي، وحكم ضد علي. أما اليهودي فقد اندهش لهذا الحكم، كيف يجلس مع الخليفة ويحكم القاضي له ضد الخليفة، فقال اليهودي: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، وأشهد أن هذه أحكام أنبياء، الدرع لك يا أمير المؤمنين، تبعتك يوم صفين فوجدته سقط منك. فانظر يا أخي، كيف أن هذا العدل السماوي أدخل اليهودي في الإسلام.

والناس الآن على طرفي نقيض، إما ذوبان في العالم الكافر، بحيث يعطى الكافر من الميزات التي لا يحصل المسلم على جزء منها في بلاد الكفر، وينال من الحرية الشيء الكثير، حتى صاروا يعلنون أعيادهم في بلاد

---

(١) سورة العنكبوت.

(٢) سورة لقمان.

الإسلام، ولربما يشاركهم فيها بعض المسلمين. أما الكفار فلا يسمحون لنا حتى برفع الآذان بمكبرات الصوت، وهناك من يهضمهم حقهم.

كذلك يضمن الإسلام للكفار الذين يعيشون في بلاد الإسلام الأمن وعدم التعدي، فلا يجوز التعدي عليهم وظلمهم ما داموا مستأمنين أو معاهدين أو قدموا ليفهموا الإسلام في موطنه. يقول تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾[1]. انظر يا أخي وتفهم قوله سبحانه: فأجره ثم أبلغه مأمنه، حراسة شديدة له حتى لا يتعدى عليه من يجهل تعاليم الإسلام فيؤذيه.

كما يضمن لهم العيش مقابل ما يدفعونه من الجزية، فعمر بن الخطاب رضي الله عنه لما رأى يهوديًا يتكفف الناس قال: ما أنصفناهم إن أخذنا عليهم الجزية ولم نؤد حقهم. فالإسلام يعطيهم حقًا في بيت المال ولربما في الصدقة حينما يكونون عالة في بلاد الإسلام، لكن الزكاة لا تجوز إلا لمسلم.

كذلك الإسلام يحترم دماءهم إذا كانوا معاهدين ولم ينقضوا ذلك العهد بينهم وبين المسلمين، لذلك يقول الرسول ﷺ: (من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة)[2]. أما إن كان الكافر مرتداً مارقاً من الإسلام، فإنه يفقد هذه الحرمة وحده القتل. يقول ﷺ: (من بدل دينه فاقتلوه)[3]، (لا يحل دم امرىء مسلم يشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث منها التارك لدينه المفارق للجماعة)[4]، أي جماعة المسلمين، أي المرتد،

---

(١) سورة التوبة.

(٢) لأحمد والبخاري.

(٣) بخاري كتاب الجهاد.

(٤) في الصحيحين.

فحكمه القتل بعد أن يستتاب ثلاثاً: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾[1]. أما إن كان محارباً للإسلام فإنه لا حرمة له، يقتل شر قتلة حتى يضع سلاحه عن حرب المسلمين. يقول الله سبحانه: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾[2].

والمسلم مطالب دائماً وأبداً بجهاد الكفار والمنافقين، لا يضع سلاحه على الأرض حتى يكون الدين كله لله، حتى يعود العالم جميعه إلى الدين الخالص. وما أصيبت هذه الأمة بهذا الخواء والضعف إلا بسبب تركها الجهاد، وانشغالها بأمور دنياها عن دينها.

أما ما سوى ذلك فالعلاقة بين المسلم والكافر واضحة وضوح النهار لذي عينين، فلا تجوز موالاة المسلم للكافر حتى مع أقوى أنواع القرابة كالوالدين. يقول سبحانه: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾[3]، هؤلاء هم القرابة حقيقة، فقد نفى الله سبحانه الإيمان عمن يوالي الأقارب الكفار، فكيف إذا كانوا أباعد من المسلم فهو أولى. وحينما نتابع حياة المرسلين صلى الله عليهم وسلم نجد أن هذا هو منهجهم أجمعين:

نوح عليه السلام لما قال: ﴿ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ ﴾[4] قال له سبحانه: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾[5]. وإبراهيم لما استغفر لأبيه اعتذر فتبرأ من أبيه. يقول سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن

---

(١) سورة الأنفال.

(٢) سورة الأنفال.

(٣) سورة المجادلة.

(٥) سورة هود.

(٦) سورة هود.

﴿مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾[1]. ومحمد ﷺ لما استغفر لأمه نهاه الله سبحانه عن ذلك وقال: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾[2]. وهكذا نجد أن سيرة الأنبياء على هذا المنهج الكريم.

فأبو لهب عم الرسول ﷺ لم تنفعه هذه القرابة الوثيقة لما كفر بالله سبحانه فكان فيه قرآن يتلى إلى يوم القيامة (سور المسد). وأبو طالب عم الرسول ﷺ وهو أول من كافح عنه ودافع يقول عنه الرسول ﷺ: (إنه في ضحضاح من نار عليه نعلان من نار يغلي منهما دماغه)[3]. إذاً الأنساب لا قيمة لها في عالم الدين فهي علاقة خاضعة لعلاقة الدين، فالرسول ﷺ أدنى صهيباً الرومي، وبلالاً الحبشي، وسلمان الفارسي، وهم أبعد الناس نسباً عن الرسول ﷺ.

وهكذا فهم الصحابة هذا الدين على هذا المنهج القويم، فكانت كل علاقاتهم بالصالحين، وما كان أحد منهم يعتبر رابطة النسب تساوي رابطة الدين، فكانت الأنساب خاضعة لهذا الأمر سلباً وإيجاباً.

أما محبة المسلم للكافر الفطرية إذا كانت هناك علاقة نسب فهي وإن كانت مذمومة، فإنها قد تكون إجبارية قهرية، يتسامح فيها الإنسان. لذلك يقول سبحانه: ﴿يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ولم يقل (يودون). وهناك فرق بين المودة والموادة، فالموادة مفاعلة متبادلة بين طرفين، ومن جانبين اثنين، أما المودة فهي فطرية بشرية لا يستطيع الإنسان التخلص منها. وقد حكم سبحانه بكفر من يتخذ اليهود والنصارى أولياء فقال سبحانه: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

(١) سورة التوبة.
(٢) سورة التوبة.
(٣) البخاري كتاب فضائل الصحابة، ومسلم كتاب الإيمان.

ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾[1].

بقيت علاقة الجوار بين المسلم والكافر، وهذه تراعي بحدود، فالجيران ثلاثة كما جاء في الحديث، منهم الجار الكافر فله حق الجوار.

وعلى هذا فإن الحب في الله والبغض فيه هو أوثق عرى الإيمان، والمتحابون بجلال الله على منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء. فإذا تغير هذا المعيار واتخذ الناس معايير جديدة في هذا الجانب ضاعت الحقوق إلى غير أهلها. واليوم نرى كفراً بواحاً في عالم هذا العصر، فقد رأينا أقواماً كثيرين عشقوا أخلاق الكفار، واتخذوهم بطانة، وركنوا إليهم شيئاً كثيراً دون حياء ولا مبالاة. رأينا كثيراً من أبناء الفطرة الذين ولدوا في بيوت الفطرة من أبوين مسلمين، ولربما من أبناء الأتقياء أو العلماء من يتنكر لهذا الدين، ولربما حارب الإسلام، وصار معول تخريب وهدم في هذا الدين بالرغم من انتسابه للإسلام في الظاهر، ويحمل في جيبه الهوية الإسلامية، ومـا زال يحمل اسم محمد أو أحمد أو عز الدين أو عماد الدين.

والحقيقة أن هذا النوع من البشر أخطر على الإسلام من اليهود والنصارى وجميع الملل، لأنه يهجم على هذا الدين من الداخل من حيث لا يعلم الناس، ولربما يحسنون به ظنًّا. إذاً هؤلاء المارقون من الدين ما خرجوا إلى الحياة صدفة، لقد جاؤا على موعد مع عدونا الخارجي حينما عجز عن حرب الإسلام وجهاً لوجه، فقد فشل في غزوة الأحزاب، ثم عجز أمام الفتوحات الإسلامية، ثم عجز أمام الحروب الصليبية والغزو التتري الهمجي، ثم عجز في كل المواقف حيث المسلمون لا يهينون ولا يضعفون أمام كل أعدائهم، كماعجز المستشرقون في حرب الأفكار حينما رأوا الصحوة الإسلامية تبرز اليوم أمام هذه الفتنة العمياء. فبالرغم مما يبذله أعداء

---

(١) سورة المائدة.

الإسلام من جهد كبير في سبيل حرف المسلمين عن دينهم ومنهجهم القويم، يزيد المسلمون إقبالاً على دينهم.

كل ذلك جعل العدو يفكر في طريق الخلاص من هذه الصحوة الإسلامية العارمة. إذاً السبيل هو تربية جيل جديد يخدم العدو، وينشر مبادىء الكفار من أبناء الجلدة، ومن يتكلمون بلغة القوم، ولربما يدبجون أحاديثهم بالقول الرنان والتباكي على الإسلام. إنهم هؤلاء الذين رضعوا من ثدي الغرب والشرق، وتربوا على أعينهم ليقوموا بنفس الدور وليكملوا المسرحية، ولعلهم يكونون أنكى للأمة حينما يواجهونها من الداخل لأن الشاعر يقول:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة   على الحر من وقع الحسام المهند

وفعلاً قاموا بذلك الدور ولكن انكشفت خباياهم والحمد لله. جاءت الشيوعية فتقمصوها، وسقطت والحمد لله فسقطوا معها. وجاءت القومية قبل ذلك فسقطت وسقطوا وراءها في الحضيض. وجاء حزب البعث العربي وسقط فسقطوا معه. وجاءت العلمانية وهي الآن تهتز، وسوف تسقط في القريب العاجل إن شاء الله. وأخيراً جاء حزب جديد بلون جديد يسمي نفسه بالحداثيين أو المجددين ويزعم لنفسه الرقي في الأفكار، والتجديد في العمل، قد لبس ثوباً رقراقاً جديداً من ثياب العبث والكفر. يزعم هذا الحزب أن الإسلام قد استنفد أغراضه، وأنه صار لا يصلح لعصر التقنية الحديثة، فلا بد أن يخلي الحياة لهؤلاء، يقولون انتهى دوره وانتهى دور الكتب الصفراء فلا بد من التجديد ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ۝٣٠﴾[1].

إذاً القول هنا هو ما هو موقفنا من هؤلاء المارقين؟ الحقيقة أن موقفنا منهم كموقف سلفنا الصالح حينما رأوا الأحزاب من كل فج ﴿وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ

---

(١) سورة المنافقون.

ﭐلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ﴿٢٢﴾﴾[1]. إذا وجودهم بيننا هو الذي زادنا يقيناً بصحة المسار إلى الله سبحانه. هذا هو الموقف الرجولي الحازم تجاه هؤلاء الأوباش، الذين نعتبرهم هم الغصن الذي قال عنه أحد الكافرين ذات يوم في حديثه: (إنكم لا تستطيعون أن تقطعوا شجرة الإسلام في غصن من أغصانها).

إذاً هؤلاء هم الغصن الجاف في هذه الدوحة السامقة، والله المستعان على ما يصفون. فاقتلوهم حيث ثقفتموهم ولا تأخذكم بهم رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر.

---

(١) سورة الأحزاب.

الفصل الثالث
في العلاقات الدولية
بين المسلمين والكفار

يقول سبحانه: ﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[1]، ﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[2].

الآية الأولى: أشارت إلى الكفار الذين سالموا الأمة الإسلامية وحفظوا حق الجوار. إنهم وإن كانوا أعداءاً في الدين لكنهم يستحقون البر وهو الإحسان إليهم، كذلك العدل حينما يتحاكمون إلينا سواء كان فيما بينهم، أو فيما بينهم وبين المسلمين، فلا يظلم كافر لحساب مسلم. كما يؤيد الثاني قصة المسلم المنافق أو طعيمة الذي سرق درعاً وألصق التهمة بيهودي بريء لم يسرق، وشهد مع المنافق إخوته وأقاربه فكاد الرسول ﷺ أن يقطع يد اليهودي حينما قامت عليه البينات، لولا أن الله سبحانه حذر رسوله ﷺ وأطلعه على حقيقة الأمر، ونزلت آيات تتلى في سورة النساء: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ

---

(١) سورة الممتحنة.

(٢) سورة الممتحنة.

خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ الآيات إلى قوله ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ ﴾.

فانظر يا أخي هذا الدفاع الشديد عن اليهودي مع ما فيه من لوم، وعتاب لرسول الله ﷺ، كل ذلك حتى لا يُظلم كافر في بلاد الإسلام، تقريراً لقواعد القسط في هذه الأرض بين أصحاب الملل المتفاوتة حتى يكون هذا الأمر أفضل طريق لاعتناق الإسلام، كما في قصة اليهودي في الفصل السابق مع علي بن أبي طالب رضي اللهعنه.

ثم تذكر **الآية الثانية**: المقاتلين لنا، وهم الذين لا يجوز أن يتولاهم أحد من المسلمين أي نوع من أنواع الولاية، ومن تولاهم فهو ظالم ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

إن هاتين الآيتين نزلتا في سورة الممتحنة التي نزلت قبيل فتح مكة بسبب الخطاب الذي دسه حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه يخبر أهل مكة بخبر الفتح حتى يستعدوا للرسول ﷺ وما قصد سوءاً وعفا عنه الرسول ﷺ لأنه بدري وأهل بدر لهم سابقة فضل في الإسلام. إذا لا تجوز موالاة الكافر أيًّا كان، ولا تجوز بصفة خاصة بالنسبة للمحاربين فهم أعداء ألداء مكشوفون، قد برز حقدهم فلا يجوز الإحسان إليهم بحال من الأحوال كأهل مكة قبل الفتح.

وعلى هذا نستطيع أن نعرف حقيقة موقف المسلمين من أعدائهم الكفار. إنما هي العداوة المتأصلة العميقة، الضاربة في أعماق التاريخ، التي لا هوادة فيها ولا رحمة. ولربما يبتسم الكفار في وجوه المسلمين لمصالح مؤقتة، فينخدع المسلمون بهذه الابتسامة، وهذه الابتسامة كشفها الله سبحانه بقوله: ﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ ﴾[١]، والمسلم لا ينخدع بهذه

(١) سورة التوبة.

المظاهر أبداً، فقد يشعرون بالضعف في وقت من الأوقات فيظهرون الولاء للمسلمين حتى يتمكنوا، فيكشروا عن أنياب الحقد الدفين. وهذه القضية تظهر في عالم الأقليات الكافرة في بلاد المسلمين مثل مصر وباكستان وإندونيسيا ونحوها، وهي ظاهرة مؤقتة ينخدع بها من ينخدع من الأمة الإسلامية، حتى إذا جاء الموعد المحدد يقلبون للإسلام ظهر المجن، فيضربونهم ضربة لا رحمة فيها.

مثال ذلك... نصارى لبنان، الذين كانوا يعتزون كذباً بقوميتهم وعروبتهم، ولا يخفى موقفهم من الصليبيين القادمين من بلاد الغرب، حيث اتخذوا من لبنان بوابة إلى الشرق الإسلامي، ومن نصارى لبنان حراساً لهذه البوابة الخطيرة، فجابوا خلال الديار، وهجموا على المسلمين شر هجمة.

درس آخر... نصارى الأندلس الذين انحازوا في الجبال أذلة بعد الفتح الإسلامي، واعتصموا بالجبال الشاهقة وكأنهم تركوا الأراضي السهلة للمسلمين تقريراً لهم، حتى إذا أكملوا دور البناء لدولتهم انقضوا على الأمة الإسلامية فدمروا تلك الدولة العملاقة أيما تدمير، وفرضوا محاكم التفتيش وفتكوا بالمسلمين فتك الوحوش بالقطيع من الغنم، وحولوا المساجد إلى كنائس في لحظة واحدة، وجرت أنهار الدماء كالسيل، وصارت الأندلس خبراً بعد عين. ومثل هذا في بخارى وسمرقند والتركستان وأفغانستان وفلسطين والحبشة وجميع بلاد الإسلام، حتى أن بعضها نكب بأيدي السفاحين من المنسوبين للإسلام، كما أصاب بلاد الشام ومصر والجزائر وتونس وغيرها والله المستعان.

إذاً هذه الابتسامة مؤقتة، وهي كأنياب الأسد حينما يريد أن يفترس فريسته:

إذا رأيت نيوب الليث بارزة   فلا تظنن أن الليث يبتسم

فلينتبه المسلمون في مصر، ولينتبه إخواننا في إندونيسيا، وفي

باكستان، وفي كل مكان تظهر فيه هذه الظاهرة المؤقتة، ففي الحياة دروس لا تنسى.

التعامل مع الكفار في مصالح مشتركة:

التعامل مع الكفار تعاملاً تجاريًّا جائز في الأصل بحدوده حتى لا يشعروا بالعزة في بلاد المسلمين، فقد كان النبي ﷺ يتعامل مع اليهود في المدينة وخيبر واتخذهم مزارعين بسهم مما تخرجه الأرض، وقد مات النبي ﷺ ودرعه مرهون عند يهودي بشعير لبيته. وهكذا الصحابة رضي الله عنهم من بعده، كانوا يتعاملون معهم بشرط هذا التعامل. ولعل هذا التعامل بطريقة سليمة أن يكون سبباً في هدايتهم للإسلام بسبب حسن التعامل، لكنه لا يصل إلى درجة الموالاة.

كما لا يجوز أن يصل إلى حد الثناء عليهم واعتبارهم في القمة في تعاملهم كما يقوله طائفة، يقولون إنهم يصدقون في مواعيدهم ويفون ولا يغشون. ونقول لهؤلاء ماذا يريد الشيطان من البيت الخرب.

اتخاذهم خدماً داخل البيوت:

ومن أكبر البلايا التي ابتليت بها أرض الإسلام، هذا السيل الكاسح من الخدم داخل البيوت. فقد غصت بيوت المسلمين بهؤلاء الأجانب من الكفرة الذين وصلوا إلى قعر بيوت المسلمين، واطلعوا على أسرارهم وعوراتهم، وتولوا جميع أمورهم، وأخذوا خيراتهم وأموالهم، ونقلوها إلى بلادهم يذبحون بها الإسلام، من كفار الفلبين وتايلاند، وهنادكة الهند، والبوذيين. فقد استعمل المسلمون هؤلاء الكفار، خصوصاً دول الخليج، وحرموا من هذه الخيرات المسلمين الذين يحصون اليوم بمليار مسلم يموت أكثرهم جوعاً، ويرتدون تنصيراً وتكفيراً بسبب الجوع، وعادت بيوت المسلمين يديرها النصارى والوثنيون إلا من رحم ربي، فأين الأخوة الإسلامية.

اتخاذهم مربين للمسلمين:

وأخطر من ذلك اتخاذهم مربين للأطفال، ومعلمين للأجيال، فإن بيوت المسلمين تشتكي من هؤلاء الكفرة الذين يتولون تربية أبناء المسلمين داخل البيوت، وتعليمهم داخل المدارس. وكيف يثق هؤلاء المسلمون بأعدائهم الحاقدين، ومتى كان الذئب يستأمن ليرعى الغنم. إنها فتنة عمياء، ظهرت آثارها في معتقدات الناس وسلوكهم وأخلاقهم وتصرفاتهم، فأدى هذا الواقع إلى ازدواجية في التصرفات، وتهجين في عادات المسلمين، وتذبذب في أخلاقهم كما أدى هذا التصرف إلى غسيل في أدمغة طائفة منهم، حولتهم إلى أشباه مسلمين. وناهيك عن مستقبل أمة كهذه الأمة التي اختلط حابلها بنابلها. ولولا رحمة الله بهذه الأمة وحفظه لدينها لأدت هذه الازدواجية وذاك التهجين إلى فساد عريض يهلك الحرث والنسل، ويستهلك الأخضر واليابس، لكنها رحمة الله ليبقى الخير في هذه الأمة إلى يوم القيامة، حيث تبقى تلك الطائفة الموعودة.

اتخاذهم بطانة وعاملين وموظفين:

يقول سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾[1].

هذا هو الكلام الصحيح فيما بيننا وبين الكفار، ومن زعم غير هذا فقد افترى على الله الكذب. واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين جريمة عظيمة لا تغتفر. فقد رأينا الأمة الإسلامية في عصرنا تنحي المسلمين من أبناء جنسها لتقرب أعداءها وتوليهم المناصب الحساسة، ليطلعوا على أسرارها ويكشفوا أخبارها، وهذا لا يجوز شرعاً مع ما فيه من كشف عورات المسلمين

---

(١) سورة آل عمران.

لعدوهم. وما قصة أبي موسى الأشعري منا بعيدة، فقد استخدم نصرانيًّا فعلم بذلك عمر رضي الله عنه، فكتب له كيف تدنيهم قبح الله رأيك وقد أبعدهم الله. فكتب أبو موسى لعمر رضي الله عنه يثني على النصراني، ويقول أنه يسد فراغاً لا يسده مثله، فرد عليه عمر رضي الله عنه مات النصراني والسلام.

فانظر يا أخي كيف يغضب عمر لتولية هذا النصراني مع كفاءة لا يسدها غيره، فكيف بالعمال. أما تخصيصهم بالعمالة دون المسلمين فهذا أمر خطير أيضاً، فقد رأينا جميع فئات الكفار قد رفعوا رؤوسهم في بلاد المسلمين، توظفهم المؤسسات وتعتقد أنهم خير من المسلمين، حيث لا يعطلون للصلاة ولا في رمضان وسائر المناسبات الإسلامية، وربما يطعنون بالمسلمين والإسلام ويقولون هؤلاء مخلصون أكثر من المسلمين، ويقولون عندهم صدق وأمانة ووفاء، ويقولون المسلمون خونة ولصوص وكسالى، فهذا في الحقيقة طعن بالدين، وخطر من الردة عن الإسلام. فإن كان هناك كسل أو غدر من بعض المسلمين فالإسلام غير مسئول عن ذلك، وهي أخطاء فردية.

أما المؤسسات الحكومية في الدوائر الرسمية فقد وضعت على عاتقها تنحية المسلمين من أكثر وظائفها الرسمية، لا سيما الطب والتمريض، وهما أخطر الأمور التي يجب ألا يتولاها إلا مسلم موثوق، حتى لقد اطلع هؤلاء الكفار على أقصى عورات النساء المسلمات حين الولادة والعلاج مع أن الله سبحانه لم يسمح للمرأة المسلمة أن تبدي زينتها لكافرة فضلاً عن كافر يطلع على عورتها. يقول سبحانه: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ أي المسلمات.

الاستعانة بهم ضد المسلمين:

ومن أخطر الأمور التي تمزق الدولة الإسلامية وتبيدها، استعانة الأمة الإسلامية بالكفار ضد المسلمين حيث يعتبرها أعداء الإسلام فرصة للتدخل

في شئون المسلمين ليفتتوا الأمة ويهدموها. وهناك شواهد تاريخية تثبت الدليل الواضح، وأقرب شاهد لذلك ما حدث لحكام الأندلس في آخر أيام الدولة الإسلامية هناك حيث استنجد بهم بعض ضعاف النفوس من الأمراء الذين ارتجت عروشهم بسبب الظلم والفسق والترف التي ضربت أطنابها في البلاد طولاً وعرضاً، مما سبب ارتباكاً في حكمهم، وتسلط بعضهم على بعض، تحقيقاً لوعده سبحانه ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾[1]، والأخير هو الذي حدث بالنسبة لأمراء الأندلس بسبب الخلاف، حتى أن بعضهم يكيد للبعض الآخر بواسطة أعدائهم النصارى.

فأدى هذه الخلاف إلى استعانتهم بالكفار المرابطين على الحدود ينتظرون هذه الفرصة الثمينة بالنسبة لهم، فكانت النهاية أن سيطروا على البلاد، ودمروا الأمة الإسلامية أيما تدمير في بلاد الأندلس، وعادت الحكومة للنصارى الحاقدين، وسقطت أكبر حضارة بشرية عرفها التاريخ. وهذا الدرس يتكرر دائماً وأبداً كلما ضعفت الدولة الإسلامية، واستعانت بأعدائها الحاقدين.

ومن يجعل الضرغام بازاً لصيده   تصيده الضرغام فيمن تصيدا

إن أعداء الإسلام حينما يقدمون العون للأمة الإسلامية فلن يقدموه لسواد أعين المسلمين أو حبًّا لهم، إنما يقدمونه ليفتحوا الطريق لهم ليحصلوا على مآربهم ورغباتهم الدنيئة. فكيف إذاً يستعين مسلم بكافر ضد مسلم، حيث يسلمه رقاب المسلمين بإرادته من أجل عرش يريد أن يحافظ عليه. إنه إن كان يريد المحافظة على عرشه فلن يكون ذلك إلا عن طريق حفظ حدود الله تعالى، فمن حفظ الله تعالى حفظه الله (احفظ الله يحفظك

---

(١) سورة الأنعام.

احفظ الله تجده تجاهك)[1]. إن الدولة الإسلامية لا تبقى مع الظلم أبداً خصوصاً ظلم الرعية، فالظلم أعظم ذنب يعجل عقوبة الله سبحانه، وينهي الدولة، وأهم أنواعه:

١ ــ ظلم الدعاة إلى الله تعالى بحيث تسلط عليهم الأضواء، ويوضعون دائماً في قفص الاتهام، وتكبت أنفاسهم في وقت يتحرك فيه المفسدون في الأرض كما هو في أيامنا الحاضرة.

٢ ــ الظلم في الأموال بحيث لا يصل إلى الناس بطريقة منظمة ليأخذ كل منهم بنصيب.

٣ ــ ظلم التسلط على الناس واستذلالهم لمصلحة فرد أو أفراد.

ومن هنا تتدهور الدولة ويتسلط عليها أعداؤها في الداخل، وحينئذ قد تضطر إلى الاستعانة بأعدائها ضد جزء منها لكن أعداءها لا يرحمون.

الاستعانة بالكفار ضد الكفار:

ولربما تهمل الدولة الإسلامية نفسها وتكوينها لنفسها فلا تهتم بالجيش، وتعتمد على قوة خارجية تحميها عند الحاجة، مهملة لتكوين، نفسها وحماية حدودها، لاهية عابثة، حتى إذا فاجأها العدو على غير استعداد مدت يدها إلى عدوها لتضرب به عدوها الآخر ظنًّا منها أن العدو سوف تستفيد منه لمصلحتها. وهذا خطأ فاحش لأسباب أهمها:

١ ــ أن الكفار أمة واحدة، وملتهم واحدة، وبعضهم أولياء بعض، كما أخبر سبحانه عن ذلك بقوله: ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾. وما دام الأمر كذلك فلا يمكن أن يكون أحدهم عوناً للمسلمين ضد الكافرين، وبالطبع لو مدوا يد العون للمسلمين فله ثمن، ولربما يخدعون المسلمين ليكونوا مع إخوانهم الكفار، كما فعل بنو قريظة مع الأحزاب.

(١) الترمذي كتاب القيامة.

٢ ــ نهى القرآن الكريم عن الاستعانة بهم والركون إليهم فقال سبحانه: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾[١]، وقال عن الركون إليهم ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾[٢]، وقال لنبيه ﷺ: ﴿ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ﴾[٣]. انظر يا أخي قوله سبحانه شيئاً قليلاً، ولو قليلاً فيذيقه وهو خير البشر ﷺ ضعف الحياة وضعف الممات. أي يضاعف الله له العذاب مرتين في الدنيا والآخرة. والركون معناه مجرد الميل، ولو على سبيل الاستعانة لما يترتب عليها من ضعف في شخصيته كمسلم.

٣ ــ الرسول ﷺ كان يرفض أي عون من عدوه. جاءه رجل جلد يستأذنه في الجهاد، فقال: أأسلمت؟ قال: لا، قال: لا حاجة لنا بك، ثم جاء الثانية والثالثة، وقال في الثالثة: أسلمت، فأذن له. وحينما عرض أهل بلخ أنفسهم على قادة المسلمين وهم يقاتلون في مناطقهم عرضوا أنفسهم ليقاتلوا مع المسلمين وكانوا كفاراً رفضوهم، وقالوا لا نستعين بالكفار، وهم في أمس الحاجة إليهم. هكذا يبرز المسلم في شخصية مستقلة ولا يطمئن لعدوه.

٤ ــ لا يؤمن الكفار إذا دخل ساحة القتال، فلربما يربكون المسلمين، ويشيعون الفوضى في صفوف المسلمين، كما كان المنافقون يفعلون في جيش الرسول ﷺ، كما عملوا يوم أحد ويوم غزوة بني المصطلق، علماً أن المنافقين في الظاهر أقرب إلى الإسلام من الكفار، فقد يدخل الكفار حسب الظاهر عوناً للمسلمين، فإذا أمسك بسلاح المسلمين أساء استعماله من أجل أن يرتبك الجيش الإسلامي، وتفتيت قوته وخذلانه في ساعة الصفر. هذا يشاهد

---

(١) سورة آل عمران.
(٢) سورة هود.
(٣) سورة الإسراء.

في قوم هم في الأصل مسلمون لكنهم غير مخلصين للإسلام، كما حصل من بعض الجيوش العربية المارقة في حرب ١٩٦٧ م حيث لم يتحركوا حتى دمرت أسلحتهم وطائراتهم قبل أن تتحرك، وسلموا مواقع قبل سقوطها، وأعلنوا عن سقوط مواقع قبل أن تسقط. هؤلاء محسوبون على الإسلام، فكيف إذاً بكافر لا يحسب على الإسلام.

٥ ـ قد يشتغل الكافر لمصلحته ومصلحة دينه، وهو شيء متوقع والدروس التي تلقاها المسلمون في بلاد الأندلس أقرب شاهد لذلك، فقد دخلوا باسم معاونة المسلمين والدفاع عنهم، فلما تمكنوا منهم قلبوا لهم ظهر المجن، فحولوا أرض الإسلام إلى أنهار من الدم، وفرضوا محاكم التفتيش، وعملوا من الهمجية ما لم تصنعه وحوش الغاب.

٦ ـ الدفاع عن أرض الإسلام لا يمكن إلا بدافع عقيدة، فقد أخبر الرسول ﷺ أن الذي يدافع عن دينه هو المؤمن فقط، أما القتال حمية والقتال رياء وسمعة فهي كلها غير مقبولة، وغير منتجة. إذاً الكافر يفقد هذه الدوافع الخيرة ويقاتل مجاملة. لذلك لاتنفع الوطنية في دفع العدو، وغيرها أولى في عدم النفع. ولو كانت الوطنية لها أثر في حماية بلاد المسلمين، لكان اليهود داخل المدينة أول من يمد يد العون للرسول ﷺ، لكن شيئاً من ذلك لم يقع، بل حدث العكس. فلما جاء الأحزاب من كل فج عميق وطوقوا المدينة، كانت هناك جبهات داخلية أخطر على الإسلام من الأحزاب الذين قدموا من الخارج، وهم اليهود من سكان المدينة الأصليين، والمنافقون وهم مدنيون ويتظاهرون بالإسلام. كما فعل المنافقون أيضاً في مد يد العون إلى إخوانهم اليهود ليكونوا جبهة داخلية ضد أمن المدينة. فلم تغن عنهم وطنيتهم شيئاً حيث لم يرعوا إلا ولا ذمة في مدينتهم التي هي وطنهم الأصلي. يقول الله سبحانه عن موقفهم مع بعضهم ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ

﴿فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١)﴾[1].

تصور يا أخي هذا التهور والتخريب ضد أمن مدينتهم، أناس ينتسبون إلى الإسلام، ويصلون مع الرسول ﷺ الصلوات الخمس، ثم ينضمون إلى اليهود ضد الرسول ﷺ والمسلمين، ثم يزعمون الوطنية، وهم يضعون أيديهم بأيدي اليهود أعداء الإنسانية، وأعداء الرسول ﷺ، وأعداء هذا الدين.

إذاً نتأكد أن الكفر ملة واحدة، والمنافقون دائماً هم في صف الكفار، فهم أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان، هذا ديدنهم في كل زمان.

درس من الواقع:

لما قامت حرب الخليج بين دول الخليج والعراق، التي أشعلها أكبر طاغوت عرفه التاريخ منذ زمن بعيد، وفعلاً اشتعلت الحرب، فكانت هناك جبهة داخلية من المنافقين الذين ظهروا مظهراً علمانيًّا، انضموا إلى إخوانهم الغزاة بطريقة مكشوفة، فصاروا يثيرون الفتن في ظروف قاسية ليربكوا قومهم. هنا حينما حركوا العلماء وأثاروا الدولة ضدهم من أجل التفرقة في ظروف لا تقبل التفرقة أبدًا، وحرضوا القادة ضد العلماء والمصلحين بعنوان «حتى لا تكون فتنة»، كما كان أحدهم يكتب تحت هذا العنوان، ويقصد «وقاتلوهم» حتى لا تكون فتنة، فكان يخفي ما كان قبلها حتى لا ينكشف لأنه يريد القضاء على العلماء، حتى يسقط الكيان ويخلو له الجو. يظن أن القضاء على العلماء أمر سهل بسيط.

موقف الإسلام من الكفار عموماً:

اختلف علماء المسلمين على القتال في الإسلام، هل هو هجوم أم دفاع؟ ونشأ عن هذا الاختلاف أحكام كثيرة حتى أدى هذا الاختلاف إلى

---

(١) سورة الحشر.

الشك فيما فعله الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم في فتوحاتهم بعد وفاة الرسول ﷺ.

ونحن لن نستعرض هذا الخلاف وأدلة الفريقين لأنه لا صلة له في هذا البحث، وسوف أكتفي بذكر الرأي الذي أقتنع به في هذه المسألة، وأرجو أن يوفقني الله للصواب والحق.

وأقول إن هذا الدين جاء ليعتنقه كل البشر الجن والإنس ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[1]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾[2]، ويقول الرسول ﷺ: (وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة)[3]. ومدلول هذه الآيات والأحاديث أن رسالة الرسول ﷺ لكل العالم، خلاف رسالات الأنبياء الذين يبعث في كل فترة نبي، ولربما يبعث في فترة واحدة عدد من الأنبياء مثل موسى وهارون ﷺ، وموسى وشعيب على رأي بعض المفسرين أن شعيباً هو صاحب مدين.

إذاً لا بد لهذا العالم أن يقبل جميعه هذه الرسالة الجديدة ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾[4]. وعلى هذا فمن لم يقبل هذه الرسالة طوعاً فيلزم بها قهراً ولو بطريق القوة والقسر، ولا يسمى هذا إكراهاً بعد ما تبين الرشد من الغي. وعلى هذا نستطيع أن نقسم التاريخ إلى أربع مراحل:

١ ـ المرحلة الأولى مرحلة الصبر والتحمل، وهي المرحلة المكية التي استمرت ثلاث عشرة سنة، نزلت فيها آيات كثيرة نسخت المرحلة الثانية حكمها وبقيت تلاوتها، منها قوله سبحانه: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝﴾[5]،

---

(١) سورة الأعراف.
(٢) سورة سبأ.
(٣) صحيح البخاري.
(٤) سورة البقرة.
(٥) سورة المعارج.

﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾[1].

٢ ـ **المرحلة الثانية**: مرحلة الجهاد دفاعاً عن الإسلام والدعوة فقط دون هجوم، وأول آية نزلت في ذلك في أول الحياة بالمدينة قوله سبحانه ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾[2]، فجاءت بلفظ الإذن، وأشارت إلى السبب لهذا الإذن «يقاتلون ـ ظُلموا»، وهي أول آية في الجهاد. ومنذ نزول هذه الآية والمسلمون يستعدون للجهاد في سبيل الله، وكانت فرصة سانحة لفتح الطريق للدعوة وإزالة العقبات في طريقها. وهذه الآية أشارت إلى رغبة شديدة من المسلمين، وتطلع إلى الجهاد كما أشار الله إلى ذلك بقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[3]. وكان المسلمون يتطلعون بمكة كثيراً إلى هذا الإذن، خصوصاً بعد إسلام صناديد من الصحابة كحمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما. وهذه المرحلة يُقَاتَل فيها من يقف في طريق الإسلام لفتح الطريق للدعوة، وما كان الإسلام سفاحاً، ولكنه أمر تفرضه الضرورة الملحة حتى لا تكون فتنة.

٣ ـ **المرحلة الثالثة**: مرحلة القتال هجوماً أو الجزية أو الإسلام. وهذه المرحلة أشارت إليها آيات منها قوله تعالى: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ... **إلى قوله** ... حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾[4].

فأنت تدرك في هذه الآية الإلزام من عدة فقرات:

(أ) ـ قوله لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، أي يقاتلون حتى يؤمنوا.

---

(١) سورة النحل.
(٢) سورة الحج.
(٣) سورة النساء.
(٤) سورة التوبة.

(ب) ـ ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، وذلك يعني تطبيق تعاليم الإسلام.

(ج) ـ ولا يدينون دين الحق وهو الإسلام، فالعلة إذاً ليست وقوفهم في وجه الدعوة كالسابقة، إنما هي الإلزام بالدخول بهذا الدين لأنه دين الحق.

ويلاحظ فرض الجزية على الكافر إذا صمم على البقاء على دينه لتكون هذه الجزية ضماناً لحياته مع المسلمين مقابل الزكاة على المسلمين. كما أنها حافز له على الدخول بالإسلام، علماً أنها مبلغ قليل، إذ هي مبلغ رمزي لا ترهق صاحبها بكلفة، ولربما يتسامح الإسلام مع العاجز عنها، المهم أن تكون رمزاً لذلة الكافر ما دام باقياً على دينه ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ ۝٢٩﴾ حتى لا يرفع رأسه.

٤ ــ **المرحلة الرابعة والأخيرة**: مرحلة الإلزام فلا يقبل معها إلا الإسلام، وهي آخر مرحلة استقر الأمر عليها، ويدل عليها قوله سبحانه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾[1]، **والدليل على استقرار هذه المرحلة**:

(أ) ـ ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ والفتنة هنا الكفر، أي حتى لا يبقى كافر على وجه الأرض يدين بدين غير الإسلام. إذاً ما دام هناك كافر واحد فلا بد من القتال. وقد أشارت الآية الكريمة إلى بيان خطر الكفر، فقد سماه الله تعالى فتنة لما في ترك هذا الدين من خطر، وهذا هو مفهوم الفتنة في معناها اللغوي. وكلمة ﴿حَتَّىٰ﴾ لمعنى الغاية، فغاية القتال انتهاء الفتنة، أي الكفر، وهي تشير إلى هدف القتال.

(ب) ـ ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ أي فلا يبقى نصيب لوثن يعبد من دون الله، ولا ملة غير ملة الإسلام.

ومن هنا ندرك أن الأمة الإسلامية لا يجوز لها أن تضع السلاح على

---

(١) سورة الأنفال.

الأرض وفيها كافر واحد، وإن فعلت فهي آثمة، حينما تنكس راية الجهاد والكفرة يحصون بآلاف الملايين، بل ويعتبرون المسلمين أقلية، وينالون دينهم بسوء، ويظهرون الحقد على الأمة الإسلامية، ويتربصون بهم الدوائر والفرص، ولربما ينام المسلمون ويوشك أن يأتي اليوم الذي ينقضون فيه على المسلمين دون استعداد. إذاً فالأمة الإسلامية قد استرخت ونامت في غفوة عميقة منذ مئات السنين، فكان ذلك هو السر في خذلان المسلمين، كما أخبر رسول الله ﷺ بقوله: «وما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا»[1]. وأي ذلة أعظم من هذه الذلة. مليار مسلم يهددهم ثمانية عشر مليون يهودي في كل العالم. حفنة من اليهود مشذار العالم يأخذون قبلة المسلمين الأولى ويشردون المسلمين شذر مذر، ويهددون أمن المسلمين الذين يحصون بألف مليون مسلم. أين هذا المليار في هذا العدد القليل. إنهم غثاء كغثاء السيل كما أخبر عنهم الرسول ﷺ، **وعن العلة ترجع إلى أمرين مهمين**:

١ ــ انحراف المسلمين عن منهجهم السليم، وتذوقهم المبادىء، وانتشار معصية الله سبحانه وتعالى في بلاد المسلمين، مما سبب رفع النصر عنهم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[2].

٢ ــ تمزق شمل الأمة الإسلامية من خلال القوميات، فقد نادى العرب بقوميتهم العربية من أجل جذب حفنة من النصارى، ليخرجوا من الصف مليار مسلم في أنحاء العالم، مما جعل المسلمين يتخلون عن قضية العرب التي هي قضية الإسلام. **وما كان العرب لينهزموا أبداً** يوم كان الإسلام يقود المعركة، وما كان اليهود لينتصرون أبداً لولا ضعف المسلمين وبعدهم

---

(١) أبو داود (البيوع) ونصه (سلط الله عليكم ذلًّا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم) عن ابن عمر.

(٢) سورة الأنفال.

عن ربهم. يقول الله عن اليهود ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾[1].

انظر يا أخي كيف وصفهم العليم الحكيم:

١ ــ هم لا يجتمعون أبداً، لكنهم اجتمعوا لتفرق المسلمين.

٢ ــ الجبن ﴿ إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ ﴾ إذاً هم جبناء أذلة.

٣ ــ تفرق قلوبهم في الباطن، والآن يجتمعون من كل بلاد العالم ضد المسلمين بسبب هذه الفرقة بيننا.

خاتمة الفصل: الجهاد في الإسلام وقتال الكفار:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾[2]. الجهاد فريضة شرعها الله سبحانه وتعالى لتطهير هذه الأرض من الفساد، ومن أجل أن يكون الدين كله لله. ولا يمكن لأمة أن تثبت وجودها على هذا الكوكب ما لم ترفع راية الجهاد خفاقة. وقد خاض العالم حربين عالميين خسر فيهما عشرات الملايين من البشر بحثاً عن العزة والكرامة. وهذه الأمة بصفة خاصة لا مكان لها بين الأمم إلا بالجهاد الخالص لدين الله سبحانه، فقد قامت على الجهاد، وأهم مقوماتها وخصائصها الجهاد، وهو عنصر بقائها، لا سيما في عصر القوة المادية البحتة، حيث لا مكان فيه للروحانيات في هذا العصر المتخلف معنويًّا وخلقيًّا، لذلك أمر الله سبحانه وتعالى بقتال الكفار والمنافقين على حد سواء.

والمنافقون وإن كانوا يتعاطفون في الظاهر مع المسلمين، لكنهم العدو

---

(١) سورة الحشر.

(٢) سورة التحريم.

اللدود المندس في قلب الأمة الإسلامية، ينتظرون نقطة الضعف في الأمة فينطلقون انطلاق السهم من الرمية، كما هو ديدنهم في كل هجمة شرسة ضد الإسلام وأمته.

وشر هؤلاء المنافقين أبناء الجلدة من العلمانيين وغيرهم، الذين يحملون الهوية الإسلامية، والألقاب الإسلامية، أسماؤهم أحمد وعبد الرحمن وسيف الدين.. إلخ، وصفاتهم صفات الذئاب الجائعة المتعطشة لدماء المسلمين، فهم أخطر على الإسلام من أبي جهل وأبي لهب ونابليون وهولاكو وغيرهم. هؤلاء حذرنا منهم الرسول ﷺ في حديث طويل رواه حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: (كان الناس يسألون الرسول ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت يا رسول الله كنا في جاهلية وشر فجاء الله بهذا الخير، فهل بعده من شر؟ قال: نعم، قال فقلت: وهل بعده من خير؟ قال: نعم وفيه دخن، قال فقلت: وهل بعده من شر؟ قال: نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها، قال قلت: صفهم لنا يا رسول الله، قال: قوم من جلدتنا ولا يتكلمون بألسنتنا)[١]. هؤلاء هم الذين يعايشوننا اليوم من أبناء المسلمين، يهدمون من دينهم ومجدهم ما لا يستطيعه كافر مهما كان حاقداً، يستخدمون وسائل الإعلام والنشر وكل الوسائل لحرف المسلمين عن دينهم ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾[٢]. ولقد تطاول شرهم، وعظم أمرهم في هذه الأيام، خصوصاً في بلاد العرب التي نكبت على أيديهم في عصرنا الحاضر أكثر من نكبتها بالصليبيين والتتر.

مكانة الجهاد في الإسلام:

أعظم الأعمال في هذا الدين هو الجهاد، فهو ذروة سنام الإسلام كما

---

(١) البخاري ومسلم.

(٢) سورة الحشر.

جاء في الحديث (وذورة سنامه الجهاد)[1]. أي أن آخر مطلب للمسلم ينتهي إليه هو الجهاد. كيف لا وفيه يقدم دمه وماله وروحه ابتغاء مرضاة خالقه سبحانه، ولا أغلى من دم الإنسان وروحه.

كما أن في الجهاد تحقيق البيعة التي أبرمها المسلم مع ربه سبحانه في قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ﴾[2]. فقد أشارت هذه الآية الكريمة إلى توثيق هذا البيع بعد ذكر أركانه الأربعة:

١ ــ البائع وهو المؤمن.

٢ ــ المشتري وهو الله سبحانه.

٣ ــ السلعة وهي النفس والمال.

٤ ــ الثمن وهو الجنة.

ثم بين سبحانه أنه وعد من الله ووعده لا يتخلف أبداً، وأن هذا البيع موثق في الكتب السماوية، التوراة والإنجيل والقرآن. لما نزلت هذه الآية استبشر المسلمون وفرحوا، (وقال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه: يا رسول الله مالنا إن قتلنا في سبيل الله؟ قال ﷺ: الجنة، قال ابن رواحة رضي الله عنه: يا رسول الله ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل)[3]. ويقول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح (إن في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض أعدها الله للمجاهدين في سبيله)[4]. وأخبر

---

(١) أحمد والترمذي والحاكم وابن ماجه والبيهقي، انظر صحيح الجامع رقم ٥٠١٢.
(٢) سورة التوبة.
(٣) رواه أحمد م ٣ ص ٣٤.
(٤) في الصحيحين.

الرسول ﷺ أن كل مجروح في الإسلام يأتي يوم القيامة وجرحه يدمي، الريح ريح المسك، واللون لون الدم)[1].

فانظر يا أخي هذه الكرامة من الله تعالى للجريح لما كانت رائحة الدم مكروهة تحولت إلى رائحة مسك، فالجهاد في سبيل الله بنية خالصة هو أفضل الأعمال المقربة إلى الله سبحانه، لذلك الشهداء الذين يقتلون في سبيل الله أحياء في قبورهم كما أخبر سبحانه: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[2]. وجاء في الحديث في معنى هذه الآية (إن أرواحهم في حواصل طير خضر تغدو وتروح في الجنة)[3] وهذا الكرم من الله تعالى للشهداء قبل يوم القيامة، أما جزاء الآخرة فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين، ذلك لأنهم قدموا أغلى ما يملكون لحماية دين الله سبحانه.

وأفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر. وأفضل الشهداء حمزة رضي الله عنه، ورجل جاء إلى سلطان جائر فأمره ونهاه فقتله، لما في الصراحة في الحق من فضل. والدعوة إلى الله سبحانه نوع عظيم من أنواع الجهاد لأنها تفتح الطريق إلى الجنة لهؤلاء الكفار، والصبر على الأذى وما يلاقيه المؤمنون من فتنة في سبيل دعوتهم نوع من الجهاد، ويحتسب أجره عند الله مع الصبر على البلاء.

وبذل الأموال من أجل تجهيز الغزاة وشراء الأسلحة والذخيرة للجهاد أمر مطلوب على الأمة الإسلامية حيث إنه مال الله بيد هؤلاء الناس، وهم مستخلفون فيه فيجب الإنفاق منه، لذلك يقدم الله سبحانه الجهاد بالمال على النفس في كثير من الأحيان لأهمية المال وسعة منفعته. ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾

---

(١) في صحيحي البخاري ومسلم.
(٢) سورة آل عمران.
(٣) مسلم كتاب الإمارة وابن ماجه كتاب الجهاد.

تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴿١١﴾ ﴾[1]. وقد أخبر سبحانه عن سعة مضاعفة أجر الإنفاق في سبيله فقال سبحانه: ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ﴾[2]. وهذه المضاعفة خاصة بالإنفاق في سبيل الله تعالى.

كما أمر سبحانه عباده المؤمنين بالاستعداد لأعداء الإسلام بالجند والعتاد، فقال سبحانه: ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾[3]. فإذا فرطت الأمة الاسلامية بهذا الواجب العظيم، ولم تستعد لعدوها فهي آثمة، مما قد يضطرها إلى الاستعانة بعدوها كما ذكرنا سابقاً. والأمة الحية هي التي تتخذ من أيام الرخاء والسلم سبيلاً إلى تقوية جيشها وتحصين حدودها قبل أن يهاجمها العدو على غرة وهي في غفلة ونوم عميق، كما حدث لدول الخليج العربي في أزمتها الأخيرة، مما أدى إلى اعتمادها على ألد أعدائها، وهذا مخطط من مخططات العدو حتى يلجئها إلى نفسه فيملي عليها رغباته من منطلق القوة، وهي تقبل ذلك من منطلق الضعف.

وقد أخبر سبحانه في الآية السابقة ﴿ وأعدوا لهم ﴾ أن عدو الله هو عدوهم فلا فرق بين عدو الله وعدو الأمة الإسلامية، ولا يمكن أن يكون هناك عدو لله كافر بالله ويكون صديقاً للمسلمين، فلا دولة صديقة إلا الدولة الإسلامية المطبقة لهذا الدين، كما أخبر سبحانه عن ذلك في آية أخرى ﴿ لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ﴾[4]. إذاً عدو الله الكافر هو عدو لنا نحن المسلمين.

* * *

---

(١) سورة الصف.

(٢) سورة البقرة.

(٣) سورة الأنفال.

(٤) سورة الممتحنة.

الفصل الرابع
في تنظيم السلم والحرب
بين المسلمين والكافرين

لم يكن الإسلام يوماً من الأيام متعطشاً إلى إراقة الدماء، وما كان ذلك مبدأ من مبادىء هذا الدين. إنما هي الشيوعية التي لا تقوم إلا بقوة الحديد والنار، والتي لا يعبر صانعوها إلا على بحار من الدماء والجماجم والدمار، كما فعلت في بخارى وسمرقند وأفغانستان وغيرها، وتشهد بذلك مجاهل سيبريا.

وكذلك من سار في فلكها من الطواغيت ومصاصي دماء البشر السفاحين في كل العالم، حتى في كثير من البلاد العربية المنكوبة بالدخلاء الذين غُسلت أدمغتهم هناك، وبدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار.

ونحن هنا لن نتحدث عن هذا الأمر بإسهاب، فقد كفى الله المؤمنين القتال وسقطت الشيوعية، ومن يسير في فلكها، وجاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون. لكننا حين نتحدث عن الإسلام، الدين الحق، وعن موقفه من عدوه الكافر نقول إن دين الإسلام جاء مسالماً للحياة، معترفاً بالفطرة المتفاوتة، والطبائع البشرية، لا يغفل شيئاً منها، فهادن القوم، وعاملهم باللين، حتى إذا وقفوا من دين الله موقف العداء، شرع القتال ليفتح الطريق للدعوة، لتسير في الأرض بحرية كاملة، وحطم كل الحواجز التي تقف في

طريق الدعوة. ثم بعد ذلك ألزم الناس بالدخول فيه بعدما اتضحت الرؤية لذي عينين.

وذلك لا يتعارض مع قوله سبحانه: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾[1]، فظاهر الآية لا غبار عليه في شرعية القتال لإدخال الناس في دين الله ولو قسراً، ما دام قد تبين الرشد من الغي، وحينئذ تكون (لا) هنا نافية لا ناهية، أي لا يعتبر الإلزام بهذا الدين إكراهاً لأنه قد تبين الرشد من الغي، والإكراه إنما يكون حينما لا يتضح الأمر. فالإلزام بأمور مجهولة النتائج يعتبر إكراهاً، أما إذا تبين الرشد من الغي فليس إكراهاً. ومن هنا ندرك خطأ بعض الكتاب المسلمين الذين اعتبروا الجهاد في الإسلام دفاعاً فقط، فقد أدى رأيهم هذا إلى أمور أهمها:

١ ــ وضعوا الإسلام في قفص الإتهام، فصاروا يدافعون عن الإسلام بذلة وهوان، وكأن الإسلام في شرعية الجهاد قد أخطأ. ولا يمكن ذلك فهو تشريع من حكيم خبير، وليس الإسلام ذليلاً حتى يحتاج إلى هذا الاعتذار.

٢ ــ اتهموا خيار الأمة الذين جهزوا الجيوش فور وفاته ﷺ لفتح الأمصار ونشر الإسلام. بل قد سيروا جيوشاً جهزها الرسول ﷺ في حياته، مثل جيش أسامة بن زيد، جهزه الرسول ﷺ ومات قبل سيره، فسيره أبو بكر رضي الله عنه.

٣ ــ أدى هذا الاختيار إلى الحيرة فيما فعله الرسول ﷺ في حياته من تجهيز الجيوش لهذا الأمر، مثل غزوة مؤتة، وجيش أسامة بن زيد إلى بلاد الشام، وهي بعيدة عن المدينة، وهذا نص واضح من فعله ﷺ يدل على شرعية الجهاد ابتداءً.

٤ ــ التشكيك في آخر ما نزل في أمر الجهاد، وما استقر عليه الأمر في

---

(١) سورة البقرة.

آخر مرحلة لنزول القرآن في آيات الجهاد، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾[1]، ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٌ﴾[2] أي كفر.

٥ ـ على كل، هذا الرأي يدل على ضعف الشخصية الإسلامية لدى كثير من الكتاب، وخشية منهم من اتهام الإسلام بهذا الأمر، أو حرصاً منهم على كسب الكفار للدخول بهذا الدين، أبرزوا هذا الرأي، وهو ضعف في شخصيتهم، فالتقوا مع الطاعنين بالإسلام في منتصف الطريق.

والحق أن تعاليم هذا الدين يجب أن تتميز بشخصية قوية، وحينئذ لا يهمنا أيهتدي هؤلاء الناس أم لا، فالمنهج يقول لنا: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾[3]. وهذه الطريقة هي منهج كثير من الناس، خصوصاً بعض الدعاة الحريصين على دخول الناس في هذا الدين ولو بطريقة تنازلية، حتى لربما لا يبقى في هذا الدين سوى رموز بسبب هذا الذوبان الشديد في العالم الكافر لهدف دخولهم في الإسلام.

إذاً يا أخي، الجهاد في الإسلام هجوم لمصلحة البشرية، كالدواء المر يفرضه الطبيب على المريض من أجل شفاء المريض. وذلك لا يضر الإسلام أن ينتشر بالسيف، ما دام الناس يجهلون مصلحته، فإن طريق الجنة محفوف بالمكاره.

والآن بعد هذه الجولة نعود إلى صلب الموضوع فنقول: الإسلام وضع نظاماً للحرب، ونظاماً للسلم، والجهاد في الإسلام على ثلاثة أضرب:

١ ـ جهاد الدفاع: وهذا له حدود، فحينما يندحر العدو ويرجع إلى مواقعه، ونطمئن على حدود الدولة الإسلامية، نوقف هذه الحرب، ونكتفي

---

(١) سورة البقرة.
(٢) سورة الأنفال.
(٣) سورة الكهف.

باسترجاع حقوق الدولة الإسلامية، ما لم تكن للدولة الإسلامية قوة بحيث تعطي العدو درساً يؤدبه فلا يفكر في انتهاك حدود الدولة الإسلامية أبداً. وهذا النوع من الجهاد فرض عين على كل المسلمين، لا يؤخذ فيه رأي أحد من الناس، حتى الوالدين، لا يستشارون بهذا الأمر، لأنه كسائر الواجبات العينية التي تلزم كلًّا بعينه، فلا يعذر أحد بتركه.

٢ ــ النوع الثاني: الهجوم على العدو، وإلزامه بهذا الدين القويم، لمصلحته التي يجهلها، وهو يلزم فيه النفير، لكنه فرض كفاية على المسلمين، فإذا قام به من يكفي سقط عن بقية المسلمين، والذي يقوم به هو أفضل المسلمين.

٣ ــ حينما يستعين أحد من المسلمين بإخوانهم المجاورين أو غير المجاورين، فالنصرة واجبة هنا في حدود، بحيث لا يكون هناك عهد وهدنة مع هذا العدو، فإن كانت هناك هدنة فلا يلزم ما لم يكن هناك ظلم على الأمة الإسلامية. يقول سبحانه: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾[1] فقد أفادت هذه الآية وجوب نصرة المسلمين المظلومين بشروط:

١ ــ أن يستنصروا بالمسلمين بحيث لا يستطيعون دفع هذا العدو المهاجم.

٢ ــ تكون النصرة في الدين، لا في نظام قبلي أو عرقي أو دم ومصالح مادية.

٣ ــ لا يكون هناك ميثاق بين الأمة المستنصر عليها والمستنصر بها، فإن كان هناك ميثاق فيجب الوفاء به، ما لم يضر هذا الميثاق بحقوق الأمة الإسلامية.

---

(١) سورة الأنفال.

والنصرة هنا تكون للأقرب فالأقرب، فيلزم الأقرب فالأقرب، فإذا كانت الأقرب يسد الحاجة وجبت عليه النصرة، ولم تجب على الأبعد إلا إذا لم يسد الأقرب الحاجة لدفع الكافرين، وتعتبر على هذا الشكل فرض عين. وقد أمر الله سبحانه بقتال الكفار، ويكون البدء بالكفار الأقرب داراً، ثم الذين يلونهم. يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾[1]. وهذا النظام تلزم مراعاته ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾[2]. إذاً قتال الكفار أمر يجب ألا يقف أبداً، لأنه حينما يتوقف يتسلط العدو مستغلاً فرصة ضعف المسلمين كما قال سبحانه: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾[3]، وقال ﷺ: (ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا)[4]. وما أصيبت الأمة الإسلامية في عقر دارها إلا بسبب ترك الجهاد، لأن بالجهاد يدفع الله الفساد ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾[5].

وبالرغم من حرص الإسلام على رفع راية الجهاد، فقد حرم الغدر من المسلمين للكفار، كما كان ﷺ يوصي أصحابه: (اغزوا ولا تغدروا ولا تقتلوا شيخاً ولا طفلاً)[6]. كما نهى عن قتل النساء ﷺ حينما رأى امرأة مقتلوة في بعض مغازيه ﷺ[7]. كما حرم الرسول ﷺ المثلة بالجسد، كذلك أمر باحترام العهود والمواثيق التي يبرمها المسلمون مع عدوهم، فمن أعظم الذنوب نقض العهد كما قال ﷺ في حديث صحيح (ولا نقضوا عهد الله

---

(١) سورة التوبة.
(٢) سورة النساء.
(٣) سورة النساء.
(٤) ابن ماجة كتاب الفتن ب ٢٢.
(٥) سورة البقرة.
(٦) مسلم كتاب الجهاد.
(٧) بخاري كتاب الجهاد، مسلم كتاب الجهاد باب تحريم قتل النساء.

وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوًّا من غيرهم فيأخذ بعض ما في أيديهم)[١]. بل إن الله سبحانه وتعالى، نهى عن نقض العهد مع العدو، إذا فكر هو في نقض العهد، إلا بطريقة واضحة، بحيث يلزم المسلمين إخبار الكفار بما يدل على نقض العهد، فالله تعالى يقول عن هذا الأمر ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾[٢] ومعنى هذه إذا علمت أن عدوك سوف ينقض العهد فانقضه أنت، لكن يجب أن يكون بعد إشعار ووضوح، ويكون هذا الوضوح يستوي فيه القريب والبعيد من عدوك، حتى لا تأخذهم على غرة. ولم يستثن من هذه القاعدة إلا ما حدث يوم فتح مكة، فقد أخفى الرسول ﷺ الخبر مراعاة لحرمة مكة، حتى لا تستعد قريش للقتال فيؤدي إلى سفك الدماء في الحرم وهو محرم لم يؤذن به لأحد سوى الرسول ﷺ ساعة الفتح، وهي الساعة التي يقول عنها الرسول ﷺ (وإنما أحلت لي ساعة من نهار وإنها ساعتي هذه)[٣].

إذاً لا يجوز للأمة الإسلامية أن تخدع عدوها بنقض الهدنة إلا بعد إعلام واضح، أما ما حدث لبني قريظة والنضير من يهود المدينة الذين نقض الرسول ﷺ معهم العهد فذلك له اعتبار خاص لأن العهد قد انتهى بحربهم للرسول ﷺ.

ويجوز نقض هذه الهدنة إذا اعتدى العدو على حلفاء الأمة الإسلامية، كما كان منه ﷺ يوم استنصر به حليفه عمرو بن سالم الخزاعي ضد قريش في مكة فقال ﷺ (نصرت يا عمرو بن سالم).

متى يجوز للأمة الإسلامية أن تعقد الهدنة مع الكفار:

الأصل في هذا الأمر هو الصلابة والشدة، بحيث لا تهين الأمة

---

(١) أبو داود بنحوه كتاب الفتن.
(٢) سورة الأنفال.
(٣) في الصحيحين.

الإسلامية ولا تلين مع عدوها أبداً، كما قال سبحانه: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾[1]. فقد أفادت هذه الآية أن العدو إذا ظفرنا به في ساعة الحرب ألا نرحمه أبداً، بل نشرده، أي نقطعه تقطيعاً. وفي قراءة سبعي ﴿فَشَرِّذْ﴾ بالذال المعجمة، أي فرق من الشرود وهو الهروب، أي مزقهم حتى يتفرقوا خوفاً من سيوف المسلمين. ولا يجوز للأمة الإسلامية في أيام عزتها أن تلين أو تستكين لعدوها أو تطلب الهدنة إلا في ظروف معينة أهمها:

١ ـ أن تحتاج الأمة الإسلامية إلى فترة تقوي نفسها، كما فعل الرسول ﷺ مع اليهود في المدينة والحديبية.

٢ ـ أو يكون لدى العدو رغبة في اعتناق هذا الدين بحيث يعطى هذه الفرصة ليفهم الأمر، ويجب الحذر في مثل هذه الحال، حتى لا يخدع المسلمون من قبل عدوهم حينما يطلب الهدنة.

أما شروط الهدنة فهي:

١ ـ أن يطلبها العدو نفسه، بحيث يشعر بالضعف والذلة، ولا يجوز أن تكون بطلب من المسلمين إلا في الظروف السابقة ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾[2] فالله تعالى يقول: ﴿جَنَحُوا۟﴾ أي مالوا.

٢ ـ ألا تكون الفرصة للعدو يستعد والأمة الإسلامية في نوم عميق، كما هو الواقع في كثير من الفرص التي ضاعت على هذه الأمة، وهي تتذوق المبادىء والعدو يسلح نفسه.

٣ ـ ألا تكون دليلاً على الذلة وضعف الأمة الإسلامية، كما قال

---

(١) سورة الأنفال.

(٢) سورة الأنفال.

سبحانه ﴿ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾، ومن هنا يطمع الطامعون، فلا يجوز طلب الهدنة والمسلمون في قوة ومنعة من أمرهم، ولو طلب ذلك العدو.

ولما كانت المسألة يخشى منها الخدعة قال سبحانه: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي إن كانت هناك خدعة فسوف يكفيك شرهم ربك، اعتمد عليه. وذلك كله بعد أخذ الحيطة والحذر من العدو المتربص. ومن هنا ندرك معنى الآيتين، فلا تعارض لأن الجواز ﴿ فَٱجْنَحْ ﴾ عند طلبهم ذلك، والنهي ﴿ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ ﴾ في حال القوة، خصوصاً إذا كان دليل ذلة ووهن فلا تهنوا. وعلى كل فطلب السلم دائماً مذلة، لا يجوز إلا عند الضرورة الملحة.

إذاً يكون الإسلام هو الذي وضع أحسن نظام للحرب والسلم والهدنة، وما على الأمة الإسلامية إلا الأخذ بهذه الأسس التي تكفل لها سعادة الدنيا والآخرة. ولا نصر للأمة الإسلامية إلا إذا التزمت بهذه القواعد الأساسية لنظام الحرب والسلم، مع ما ينضم إلى ذلك من تربية جيش إسلامي مدرب على حمل السلاح، بعدما يدرب على خشية الله سبحانه، بحيث يُشعر أنه يجند نفسه دفاعاً عن دين الله تعالى، والذود عن حياضه، لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

أما ما أصيبت به الأمة الإسلامية في عهدها الحاضر من تخلف في التقنية والصناعة، وتخلف في التسليح والتدريب، فالإسلام غير مسئول عنه أبداً لأنه خطأ أمة لا خطأ منهج. لذلك نشاهد كيف تأخرت أمتنا في عالم الصناعة والإنتاج، فصارت تستورد أبسط إنتاج العالم الكافر، فضلاً عن أهم الأمور.

ولربما أدى هذا التخلف إلى سوء ظن بالإسلام، فظن بعض الجهال أنه هو سبب التخلف، وغفلوا عن أيام الإسلام الأولى حينما كان مطبقاً في دولة الإسلام، فكانت الأمة مثلاً يحتذى في تقدمها الصناعي والعسكري، والمسلمون هم أول من صنع الساعة الدقاقة. نسوا بدراً وحطين والزلاقة

وغيرها. إذن الذنب هو ذنب من أعرضوا عن دين الله فأصيبوا بهذا التخلف المرير، ولا يُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، وما صلح أولها إلا بالتدريب والاستعداد لقتال الكفار، وحمل السلاح وصناعته.

أما في مجال الحرب فقد تعثرت هذه الأمة بسبب إعراضها عن دين الله تعالى، مما أدى إلى توقف الفتوحات الإسلامية المرتقبة، وضاع من بلاد المسلمين كثير، يوماً بعد يوم. ففي كل يوم يفقد المسلمون جزءاً من أرضهم النفيسة التي ما قامت إلا على جماجم سلفنا الصالح، فقد قدم المسلمون لفتح الشام خمسة وعشرين ألف صحابي رضي الله عنهم. ضاعت الأندلس، وضاعت بخارى وسمرقند والتركستان وكشمير وفلسطين وغيرها، والبقية صار الكثير منها تحت السيطرة الكافرة، وصار المسلمون أقليات بالرغم من كثرتهم. أما السيطرة الفكرية، فكل بلاد المسلمين مستعمرة فكريًّا واقتصاديًّا، وهي ما يسمى في عصرنا بالحرب الباردة، وهي نار تلظى، والحقيقة أنها حرب حارة ملتهبة كادت أن تحرق الأخضر واليابس لولا أن الله سلم. نسأل الله أن يحمي الأمة الإسلامية من شرها.

أما حينما نتحدث عن بلاد العرب، وهي المهد الأول للإسلام ومنطلقه ومهوى أفئدة المسلمين وقبلتهم، ومبعث الأنبياء صلى الله عليهم وسلم، ومنزل الكتب السماوية، فإننا نأسف كثيراً لما أصاب هذه الأمة بالرغم من أصالتها من جانب، ومن الجانب الآخر أهمية رسالتها، ومكانتها القيادية في هذه الحياة.

فبلاد العرب قد ابتليت في أكثر أحيانها وكثير منها بولاة ظلمة، أصيبوا بالتخمة الدينية، واغتروا بمجدهم التليد، وتغنوا بأمجاد الآباء والأجداد، ونسوا واقعهم المرير، وأصيبوا بعدم الاستقرار، وابتلوا بالثورات الداخلية والحزبيات، وانتحال المبادىء المنحرفة حتى سقطوا من عين الله.

فهم كما قال عنهم سيد قطب رحمه الله (العرب أرباب شجاعة عريقة

لهم، كانت شجاعتهم في حروب داخلية مريرة مثل داحس والغبراء. فلما جاء الإسلام وجهها إلى فتوحات لنشر الإسلام فرفرفت راية الإسلام على أكثر المعمورة. فلما نضب الإسلام من قلوبهم عادت تلك الشجاعة كسابقها ثورات داخلية). انتهى كلامه رحمه الله.

أخي تصور هذه الحقيقة لترى الأمر واضحاً. فكم ثورة قامت في بلاد العرب في السنوات الأخيرة. كم ثورة قامت في العراق وسوريا وغيرهما. ما نتائج هذه الثورات والانقلابات، فقد استهلكت ممتلكات الأمم، وقتلت الأبرياء، وشغلتهم عن الجهاد في سبيل الله، بل حتى عن الدفاع عن أرض الإسلام، فلما تسلط عليهم عدو هزيل تافه انهزموا أمامه بعد أن استنفذوا ثرواتهم وخيراتهم، وقتلوا خيار أمتهم والمصلحين فيها.

أما موقفهم من شعوبهم المسكينة المعذبة، فلم تصب أمة بمثل ما أصيبت به تلك الشعوب المنكوبة. فقد تحولت السجون التي يجب أن تكون للجامحين إلى معتقلات للأبرياء في زنزانات ضيقة لا تعيش فيها الحيوانات، استعملت فيها كل وسائل التعذيب والإهانة، لا لذنب إلا أن يقولوا ربنا الله ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾[1]. فكم نصب من المشانق التي أعدت لتعذيب المؤمنين على مرأى من السفاحين وهم يتمتعون بتعذيب المؤمنين. اقرأ ما فعله طاغوت مصر في أيام عنفوانه، وما يجري في السجن الحربي، وماذا فعل بالمؤمنين الأبرياء الذين يطالبون بتطبيق شرعه سبحانه ويدافعون عن حقوق المستضعفين. ماذا فعلوا بحسن البنا، وعبد القادر عودة، وسيد قطب، وحسن الهضيبي وغيرهم ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾[2]، ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ

(١) سورة البروج.

(٢) سورة إبراهيم.

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ (١).

ولقد كان من آثار الاستذلال والإهانة لهذه الشعوب، أن نشأت في هذه الفترة العصيبة أمة ضعيفة من هذه الأمم المستذلة، لا تستطيع الدفاع عن أرضها ودينها وكرامتها، لما شاهدته من استذلال لعلمائها ومصلحيها، كما قال الشاعر:

أبادوا الجياد فلا تعجبوا إذا أبدت الخيل إجفالها

إذاً يا أخي لا تعجب وأنت ترى هذا الجيل الذي نشأ في هذه الفترة العصيبة من فترات التاريخ التي استذلت فيها الأمة أن تراه خانعاً ذليلاً، فقد ربيت هذه الشعوب على الخوف والإذلال، ولربما تركع لعدوها بعد ذلك، ويكون أمرهم كأمر بني إسرائيل، حينما أخرجهم موسى من مصر وأنقذهم من فرعون، فرفضوا دخول الأراضي المقدسة خوفاً من العمالقة وقالوا لموسى ﷺ ﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٢)، ثم انتهى بهم الأمر إلى قولهم: ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾. وبقي ذلك الجيل خائفاً بعد استعباد فرعون لهم حتى حكم الله عليهم بالفناء جميعاً وأخرج من أصلابهم جيلاً جديداً لم يعرف الذلة والمهانة، قال سبحانه: ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ (٣)، وفي هذه الفترة انتهى الجيل الأول وجاء جيل جديد.

وشباب اليوم الذي سلطت عليهم الأضواء والتجسس يتابعون تحركاتهم وسكناتهم ونشاطهم يمثلون هذا الجانب الذليل، وقد يقتلهم الهلع والذعر فلا يستطيعون الدفاع عن دينهم وأمتهم، فتضيع الأمة وتذهب ريحها بسبب الذلة والمهانة. لذا ننصح خيار هؤلاء القادة ألا يذلوهم، فهم عتاد

---

(١) سورة آل عمران.

(٢) سورة المائدة.

(٣) سورة المائدة.

الأمة، ورجال مستقبلها، ودرعها الحصين بعد الله سبحانه، كما هو منهج الأمم الحية في تربية جيلها.

وما كانت الأمة الحية تربي شبابها على هذه الكيفية الخاطئة، بل تربيهم حسب متطلبات حياتها وحاجاتها. تربيهم على الحرية ليخرجوا أحراراً، لكنها تبالغ في هذه الحرية فتتعدى بها حدود المعقول فيخرج متفلتاً عن القيود والروحانية. لكن دين الإسلام وسط بين طرفي نقيض، فلا هو يقدس الروح ويهمل الجسد ولا العكس، بل يتوازن في هذا الأمر ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾[1].

إذاً ما يحدث في هذه الأمة الكريمة، من ذلة ومهانة وهزيمة، كل ذلك تحت مسئولية القادة الذين كانوا هم السبب في ضعف الأمة الإسلامية. وإننا ندعو شباب الأمة الإسلامية ألا يستكينوا ولا يضعفوا، فهم الأعلون والله معهم.

خاتمة الباب:

وبعد، فإننا ندعوا العالم إلى أن يفهم حقيقة هذا الدين فهماً يجعله مميزاً من بين الملل والأفكار والأديان، يفهمه منهج حياة متكاملة، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة. نريد من هذا العالم أن يفهم منهج الإسلام في دعوة البشر إليه، ثم إلزامهم باعتناقه إجباريًّا، باعتباره الدين الحق من جانب، ومن جانب آخر هو العلاج الناجح لمشكلة العالم، فهو يهدي للتي هي أقوم، ولا سعادة إلا من خلاله.

والدواء المر يتناوله الإنسان، يبحث فيه عن الشفاء، ولربما يجبر على تناوله لمصلحته هو. والقتال في الإسلام لإدخال الناس فيه هو الحكمة، لأن

---

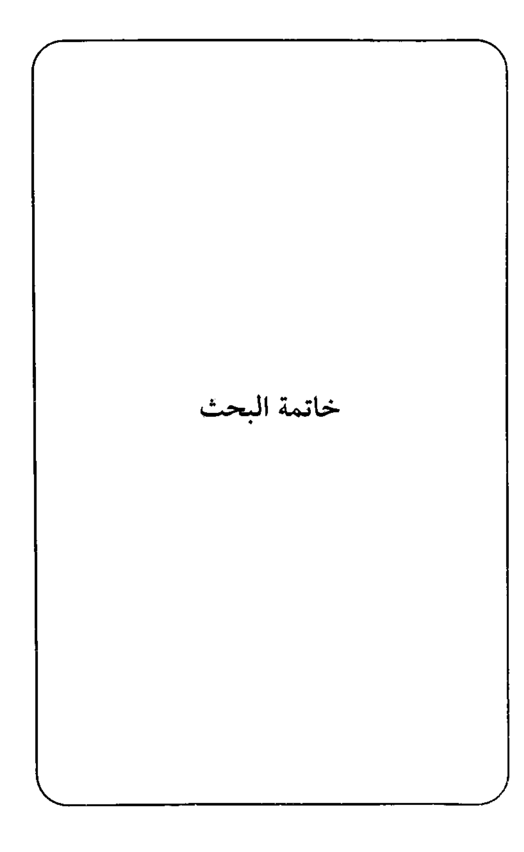
(١) سورة الشعراء.

الناس جميعاً بحاجة إليه ولا تصلح أمورهم بدونه أبداً، وإلا فسوف تتعقد الحياة، ويختلط حابلها بنابلها، ويتسلط الكفار على هذه الأمة، لأن القاعدة من لم يَغزُ يُغزىٰ.

أما العلاقة بين المؤمنين والكافرين فغير ممكنة، لأن بينهما كما بين المشرق والمغرب ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾[1]، ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[2]. فليس الخلاف جزئيًّا، وليست المصالح مادية، لكنها إسلام وكفر، خلاف عريق أصيل بين عباد الرحمن وعباد الطاغوت ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ﴾[3]. ويخطىء كثيراً الذين يستسهلون الفوارق بين المسلمين والكفار، ويظنون أن النصارى إخوان للمسلمين في سبيل محاربة الشيوعية، أو أن الفارق بين المسلمين واليهود فارق عرقي فقط، أو أن العلاقة بين المسلم العربي والنصراني العربي فارقها بسيط، ما دام الوطن واحداً، أو الجنس واحداً. كل هذه أخطاء لها ما بعدها في تقييم البشر، وتقريب الأباعد، لا - لا ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾[4] هنا تكون الولاية الحق، أما إذا اختلف الدين فهي العداوة والبغضاء لأقرب الناس منا. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾[5]. أية صلة تبقى بعد هذا الأسلوب، عدو لكم فاحذروهم. إنها عداوة الدين التي لا تقبل الجدل ولا التنازل بحال من الأحوال. حتى الزوجة التي هي الفراش الدافىء والسكن تعتبر عدوًّا إذا اختلف الدين. وحتى الولد الذي هو فلذة الكبد عدو عند اختلاف الدين. إذاً كيف يكون البعيد قريباً حينما يختلف الدين.

* * *

(١) سورة الحشر. (٢) سورة القلم.
(٣) سورة النساء. (٤) سورة المائدة.
(٥) سورة التغابن.



خاتمة البحث

خاتمة البحث

أخي المسلم، وبعد هذا الحديث الذي احتوى على شيء من الإسهاب والتفصيل في موضوع هام جدًّا يتعلق بكل العلاقات البشرية بين الإنسان والإنسان على كل المستويات. مستوى الأقارب مع بعضهم، والذين تربطهم وشائج وثيقة وعواطف فطرية لا مناص منها، ثم علاقات أخرى محدثة لكنها سريعة التلاحم كالعلاقات الزوجية، أو علاقات الجوار.

ثم تتلوها علاقة روحانية لها أهميتها البالغة في غرس المحبة بين الأخوة الذين يربطهم دين خالد لا يقبل النسخ ولا الانحلال. وأخيراً علاقات إنسانية بحتة ترجع إلى أصل واحد لكنها متأثرة بالعقيدة والدين، حتى صارت علاقة اللحم والدم والتراب لا وزن لها ولا قيمة.

بعد هذا كله أدركنا جميعاً أن أقوى هذه العلاقات وأهمها وأضمنها، هي علاقة الدين، التي فرقت بين الأمم ووحدت بينهم، فحطمت كل الحواجز السياسية والجغرافية والطبيعية، وربطت بين أجزاء هذا العالم المترامي الأطراف برباط وثيق، وعلاقة متينة. فهم وإن فرقتهم الديار يلتقون على مستوى رفيع، قبلتهم واحدة، ودينهم واحد، ونبيهم واحد، وكتابهم واحد. يحن بعضهم إلى بعض، ويتألم أقصاهم لأدناهم. فهم أخوة في العقيدة، وأحباء في ذات الله. إذا تألم جزء من هذه الأمة في شرق العالم، تألم له الجزء الآخر في غربه. جسد واحد، وبنيان واحد، يشكل كل عضو منه غصناً في شجرة واحدة، تخضر جميعاً وتذبل جميعاً، حينما تكون

أسباب الاخضرار والذبول، تستقي تلك الدوحة من عروق ضاربة في أعماق الأرض أصلها ثابت وفرعها في السماء.

ولقد كان للتربية القرآنية لهذا المجتمع الأثر العظيم، فقد رباه تربية سليمة بعيدة عن العنصرية والتمييز والأنانية وحب الذات، والتواكل والضعف، فأنشأ أمة كريمة متآلفة متحابة، لا يشعر أحدهم بالانفصال عن أخيه وحبيبه مهما نأت بهم الديار، وفرقتهم الأماكن.

ولقد حاول الأعداء في القريب والبعيد تشتيت الشمل، واصطناع روابط عرقية وشعوبية وإقليمية لتكون بديلاً عن هذه الرابطة المتينة، ليسهل القضاء على الأمة المتفرقة، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، وأن تكون في هذه الأمة أسس الأصالة والقيادة والريادة، بناءاً على فطرة سليمة، وبيئة طاهرة، وتنزيل يتلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، بالرغم من الجهد الكبير الذي يبذله أعداء البشرية في إذلال هذه الأمة، وتفتيت قوتها، فقد بذلوا المستحيل لكي لا تكون هذه الأمة، فشجعوا القوميات، ونموا العنصريات، بعدما اندس المنافقون وسط الصف، ابتداءً من ابن سبأ اليهودي، إلى يومنا هذا. لكن المجتمع المسلم بفطرته النقية يرفض أي جسم دخيل يريد أن يذيب هذه الأمة العريقة في حضارات ملفقة من الشرق والغرب. وهذه الأمة وإن ابتليت اليوم بأعداء من الداخل يطعنون الأمة خفية باسم الإصلاح وهم المفسدون، وآخرين من الخارج أزعجهم عز الإسلام وظهوره في عالم كله يحاربه، بل يزيد إقبال المسلمين على دينهم بمقدار ما يوجه إليه من نقد.

وحسبنا دليلاً على هذا الأمر ما يحدث في دنيانا اليوم. كل الطاقات توجه اليوم في نقد الإسلام، ولم يبق بيد المصلحين سوى المسجد الذي صار أعداؤنا ينازعوننا إياه ليطمسوا معالم هذا النور. فوضعت كل العقبات في طريق الداعية، حتى أن الداعية اليوم كأنه يسير في وحل يخشى الانزلاق،

تحسب عليه أنفاسه، ويؤول قوله خلاف ما يريد، حيث المباحث والاستخبارات وغيرها.

والدعاة وأرباب المساجد اليوم هم أكثر من يحاسب، والقادة لا يخافون اليوم إلا منهم. والعجيب أن هذا الواقع في حياة ظهرت فيها العلمانية التي تزعم أن الدين في المسجد فقط. فأين حرية المسلم داخل المسجد. فقد سيطروا على الإعلام، والكتاب، والصحافة، والإذاعة، والتلفاز، والرأي العام، والبرلمان، وغيرها. وهم الآن يريدون أن ينتزعوا حتى المسجد من الدعاة، فلا يبقى بأيديهم أية وسيلة إعلامية. إذاً هي ردة، لا علمانية فقط.

ردة لأنها تعتبر الإسلام هو مصدر تخلفها، بل وتخاف أن يتحرك الإسلام لأنهم يعتقدون بقرارة أنفسهم أهلية هذا الدين لقيادة الحياة، ولو تحرك الدين الحق لسقطت عروش وقيادات لا تحصى، لأن هذا الدين يرفض كل حكم لا ينطلق من حكم الله. أما القرآن الكريم فهو منهج رباني كريم، محفوظ بحفظ الله سبحانه، لا يمكن لأحد أن يناله بسوء، أو يغير حرفاً من حروفه، أو يحول بين الأمة ودستورها. فقد جربت قوانين وأنظمة ودساتير متعددة، فلم تغن شيئاً لأنها ما جاءت من عند الله، وهي غريبة كل الغربة عن هذا الجسم السليم، فلن تزيده هذه الأنظمة إلا تعقيداً وفساداً. ولربما يدرك العالم في هذه الظروف حاجته إلى هذا المنهج القويم، فيرجع إليه كنظام حياة وإن لم يعتنق الإسلام، حيث إن هذا الدين كل تعاليمه لمصلحة البشر عامة، والظروف الراهنة سوف تضطر هذا العالم إلى هذه العودة.

ولا بد للحياة الاجتماعية السليمة المنتظمة من منهج رباني يقودها ويصلح شئونها كافة، وليس ذلك إلا القرآن، حيث نسخت كل الكتب السماوية، ولم يبق دستور سماوي سوى القرآن يحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه. وإذا كانت الحياة اليوم تشتكي من هذا التفكك الاجتماعي في

كل جزئياته، فإن السر من وراء ذلك هو الإعراض عن خُلق القرآن كما يلاحظ فيما يأتي:

١ ـ انتشار العقوق للوالدين حيث قدم كثير من الشباب، الذين اندفعوا مع زوجاتهم، قدموا زوجاتهم على الأمهات، حتى رأينا من تحولت أمه خادمة عند زوجته، يؤثرها عليها، ويلين مع الزوجة، ويقسوا مع الأم بالرغم من عظم حقها، وقد نسى كل الخدمات الجبارة التي قدمتها مصداقاً للحديث: (وبر زوجته وعق أمه وأدنى صديقه وجفا أباه)[1].

٢ ـ فسدت كثيراً من العلاقات الزوجية وأعيت القضاة مشاكلها المعقدة، وانتشر الطلاق وتعليق الزوجات وما يسمى بإسقاط الحقوق وهو محرم. وتسلطت بعض الزوجات على أزواجهن وطالبنهم بنفقات باهظة، وصارت النساء تسابق الزمن على الموضات الحديثة، وتبذير الأموال حيث غابت كثير من تعاليم القرآن عن المجتمع، وضاع حق الرحم في كثير من الأحيان، وانتشرت القطيعة بسبب أطماع مادية تافهة، إما لميراث خلفه ميت، أو غلة وقف لا يستحق شيئاً من هذا التنافس. حتى إنها لتمر الأشهر والسنون على ذوي الرحم الواحد لا يعرف أحدهم الآخر. وانتشر التدابر بين المسلمين، والتقاطع والهجران، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا. أما الجيران فلا يكاد يعرف أحدهم الآخر، في شقق متقابلة، وحي واحد لأن بعضاً منهم لا يعرف صاحبه عن طريق المسجد الذي هو الملتقى اليومي، ويكون فيه التعارف والأخوة والوئام. فلو أن القرآن حكم هذه الحياة بنظامه الرتيب، وحكمه العادل لكون من أشتات العالم أمة واحدة مهيبة الجانب موفورة القوة.

---

(١) الترمذي كتاب الفتن باب ما جاء في علامة حلول المسخ والخسف.

وبعد نقول:

﴿ ۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ ﴾[1]. ألم يأن لعلماء المسلمين أن يبينوا للناس الطريق السوي، وقد أخذ الله عليهم العهد والميثاق أن يبينوا للناس الطريق، وهم ورثة الأنبياء، فإن كثيراً من الناس اليوم يجهل بديهيات الدين.

ألم يأن لحكام العالم الإسلامي قادتهم أن يسوسوا هذه الرعية بشرع الله سبحانه، وألا يبغوا بدلاً بكتاب الله سبحانه، ففيه نبأ ما قبلهم وخبر من بعدهم، وهو الفصل وليس بالهزل، ما تركه من جبار إلا قصمه الله. ألم يعلموا أن ما أصاب هذه الشعوب من تمرد وتخلف إنما هو بسبب الإعراض عن شرع الله تعالى. ألم يعلموا أن هذه الشعوب لا تقاد إلا بشرع الله تعالى، الذي يملك القلوب ويسيطر عليها. وأن تخديرهم بالترف واللهو واللعب والمتاع لا يطول، فقد تستيقظ هذه الشعوب بعد أن تسأم هذا الترف، ثم تغضب لربها، وحينئذ تكون صعبة المراس. أما حكمهم بقوة الحديد والنار فغير ممكن أبداً، لأن الإيمان أقوى من قوة الحديد والنار. إذاً هي لا تحكم إلا بهذا الدين وبالكتاب الذي يخاطب ضمائرها، ويحرسها في غيبة القانون. فلا بد إذاً من تربية الشعوب على الدين الحق.

ألم يأن للشعوب الإسلامية المؤمنة بهذا الكتاب العظيم، الذي هو مصدر هدايتها وعزتها، أن تعود إلى حكم الله سبحانه وتعالى في كل صغيرة وكبيرة من أمرها، إذا اختلفت تتحاكم إليه، وإذا تنازعت في أمر ترده إليه، ذلك خير وأحسن تأويلا.

لقد آن الأوان لهذه الشعوب بعد غيبة طويلة، ونقلة بعيدة، أن ترجع إلى هذا الدستور العظيم، والمنهج القويم، دراسة وحفظاً وتفهماً وتدبراً

---

(١) سورة الحديد.

وعملاً وتحكيماً في كل أمر من أمورها، بعد هذه التجارب البعيدة المدى التي من خلالها أدركت ألا حكم إلا لله، وأن هذه الأفكار البراقة، والأنظمة المصطنعة كلها قد باءت بالفشل والبوار، وليس ثمة أمامها إلا طريق واحدة، ومنهج واحد مجرب على مر العصور والأيام لم يتغير، ولم يتأثر بالحضارات الأخرى، ولم يتعارض مع ما فيها من خير، ولم يصطدم في قضية علمية موثوقة، بل هو الذي يسبقها ويبارك ما فيها، فهو تبيان لكل شيء.

فإن بحثت عن القضايا السياسية وجدت فيه المنهج القويم للحاكم المسلم الذي يريد الخير لنفسه ولرعيته بحيث يقودها إلى طريق التقدم والنجاح، وإن بحثت عن قضية اجتماعية تصلح أحوال الأمة وتضبط توازنها فلن تجدها إلا في هذا الكتاب المحكم. وإن أعيت الأنظمة الاقتصادية علماء الاقتصاد والفكر، فلن يجدوا حلها إلا في هذا القرآن العظيم. وهكذا كل مناحي الحياة، لا تستقر أمورها، ولا تحل مشاكلها، إلا من خلال هذا القرآن، حيث إنه وحده هو الذي يهدي للتي هي أقوم.

أما قوانين البشر، وآراء الرجال فهي قاصرة قصر صانعيها، حيث إنهم بشر لهم عواطف وأذواق وميول يختلف بعضهم فيه عن بعض. أما القرآن العظيم فقد تكلم به من يعلم ما كان وما سيكون، وما هو كائن إلى يوم القيامة. لذلك نجد أن أصحاب هذه القوانين يجددونها كل فترة، ويرقعون ويضيفون ويحذفون منها ما عفى عليها الزمن، ولكنها ما زالت قاصرة وستظل قاصرة عن سد الفراغ الذي تركه القرآن حينما نُحّي عن منصة هذا العالم المعذب بأيدي حكامه.

إنك تلاحظ يا أخي حفظك الله وأنت تتابع أخبار هذا العالم وهو ينحدر بسرعة مذهلة رهيبة في أخلاقه وسلوكه وتصرفاته كيف تنحدر معه قوانينه وأنظمته، وهي مجبرة بهذا الانحدار حتى تواكب العصر. حتى لقد سمعنا بأمور غير معقولة، صارت قانوناً اليوم وإليك بعض الأمثلة:

١ ــ فسدت فطرة بعض بني آدم وتمتعوا بالشذوذ الجنسي وزواج الذكر بالذكر، وبالرغم من أن هذه فطرة شاذة لا يقرها عقل ولا قانون أبداً حتى الحيوان، فلم نر يوماً حماراً ينزو على حمار ولا كلباً ولا قرداً وهي من أخس أنواع الحيوان. لكنه وجد في بني آدم حينما انحرف عن الفطرة. وهذه ليست هي المشكلة، فهذا الانحراف منذ عهد قوم لوط، لكن المشكلة هي أنه صار هناك قانون يحمي هذا الشذوذ. ففي نظام دولة عظيمة، كانت تسمى في يوم من الأيام أم العالم، أباح قانونها الشذوذ الجنسي، بالرغم من تطور عقليتها المادية، لكنهم عما أنذروا معرضون.

٢ ــ مثال آخر الربا: خلاف المصلحة العامة لكل الأمم، وهو في نظر الإسلام أيضاً حرب لله ولرسوله، وهو امتصاص للدماء والأموال فصار اليوم نظاماً لا تستغني عنه الحياة. والربا في أصله موجود قديماً قبل الإسلام وبعده، كما كان أهل الجاهلية يستعملون حتى الربا المضاعف. لكن المشكلة صارت أعظم من ذلك حيث اعتبر الربا نظاماً اقتصاديًّا في نظر هذه الحضارة، لا تستغني عنه الحياة. وهذه هي المشكلة العويصة، فجاءت القوانين الوضعية تنص على أنه نظام اقتصادي ضروري في بناء الحياة، لا أنه نظام شاذ منحرف يمكن تركه أو محاربته بأي طريق.

٣ ــ أمر ثالث، تظهر خطورة الزنى اليوم، وهو بطبيعته انحراف جنسي له مغرياته وجاذبيته الفطرية، وهو موجود منذ عصور قديمة، لكنه يعتبر انحرافاً عن الفطرة السليمة. حتى في الجاهلية فقد استغربت هند زوج أبي سفيان رضي الله عنهما حينما بايعت الرسول ﷺ واشترط شروطاً منها (ولا يزنين) فقالت وهي لم تعرف الإسلام: (أو تزني الحرة)، فقد استغربت الزنى من الحرة، لكنه صار في بعض دول الإسلام اليوم انحرافاً منظماً كما يقولون عنه. صار الزنى ميولاً معترفاً فيه من عدة جهات رسمية، تضع له تسعيرات منظمة، وعليه حراسة، وله أطباء يراقبون انتشار الأمراض من خلاله، إلى غير ذلك، وربما أن القانون يعترف فيه بدعوى تنظيم هذا الانحراف.

وساعدت كل وسائل التقنية على انتشار الزنى، وجميع وسائل الإعلام، إلا ما رحم ربي، تدعو إليه بطريقتها الخاصة. وهكذا نجد كيف تنحدر هذه القوانين بمقدار انحراف البشرية، بل لربما تنحدر البشرية درجة واحدة لتنحدر القوانين وراءها درجتين احتياطاً للمستقبل القريب المتوقع.

لكن لو حكم القرآن هذا العالم، لما أقر هذا الفساد أبداً، ولأوجد حلولاً كافية لعلاج هذه الأدواء المستعصية قبل انتشارها وبعد انتشارها، وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر.

أخي في الله، إني أسألك بالله أن تعيد النظر في تطبيق هذا الكتاب العظيم في حياتك البيتية ومجتمعك، لترى الفرق البعيد بينك وبين القرآن ومنهجه في كثير من الأحيان. أما مشاكل العصر ومستجداته، فلن تعدم حلًّا لمشاكلها في هذا القرآن العظيم، بشرط أن يحكم القرآن في كل صغيرة وكبيرة.

وأني واثق كل الثقة، بإذنه سبحانه، أن هذا العالم سوف يعود في القريب العاجل إن شاء الله إلى حكم ربه تعالى، وجعل القرآن دستوره الوحيد طوعاً أو كرهاً. ولسوف يأتي اليوم الذي يدخل فيه هذا الدين كل بيت شعر ومدر بعز عزيز وذل ذليل. عز يعز الله به أهل طاعته، وذل يذل به أهل معصيته، كما ورد ذلك في الحديث عنه ﷺ. لكن ذلك يحتاج إلى تضحية وبذل جهد من الأمة الإسلامية، ورجال الفكر الذين يدركون ثقل المسئولية وعظمة الواجب.

ونحن منتظرون بإذن الله سبحانه أن تتساقط آخر معاقل الوثنية والإلحاد، كما سقط الكثير منها تحت أقدام المسلمين، بالرغم من ضعف الهمة، وقلة العمل، ولكن الله غالب على أمره ومظهر دينه ومعز رسوله. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على خاتم

المرسلين، نبي الرحمة وخير البرية، محمد ﷺ، والله المستعان وعليه التكلان.

انتهى في يوم الخميس الموافق ٦/٦/١٤١٢ هـ.

الموافق ١٢ ديسمبر لعام ١٩٩١ م.

* * *

نهاية
شكر وعرفان

وبعد، فلقد بذلت جهداً قدر إمكاني في إخراج هذا البحث إلى حيز الوجود، وهو جهد متواضع، وحسبي فيه أني بذلته محاولة في أمر يهمني كثيراً، وهو أني أتحسر كثيراً على ما تعيشه أمتي من تخلف في كثير من أوضاعها الاجتماعية، مما أدى إلى تعقد الحياة بسبب بعدها عن المنهج الصحيح، وهي تظن أنها تحسن صنعاً، وأن هذا الخطأ إنما جاء بسبب أخذها بهذا الدين، فحاولت قدر جهدي أن أوضح السبيل قدر الاستطاعة. فإن كان صواباً فمن الله، وإن كانت هناك أخطاء فمني ومن الشيطان، واستغفر الله من الخطأ والزلل.

وسوف يلاحظ المتتبع لهذا البحث أنه يغلب عليه الأسلوب الإنشائي، والحقيقة أن العنوان يفرض نفسه بهذا الأسلوب الأدبي، لأن الأسلوب العلمي قد تكرر في مثل هذا الموضوع، فأحببت أن آتي بجديد، إضافة إلى ضعف الهمة وضيق الوقت.

ولقد أحضرت المراجع اللازمة لهذا البحث لكن لم احتج إلى الكثير منها، اللهم في أمور محدودة، لاختياري الأسلوب الأدبي الإنشائي كما أشرت إلى ذلك.

ولا يسعني في ختام البحث إلا أن أتوجه بالشكر والعرفان لدولة باكستان التي تحتضن مثلي، وبصفة خاصة جامعة البنجاب، التي أتاحت لي

هذه الفرصة التي اعتبرها حسنة من حسناتها، وبالذات قسم اللغة العربية، الذي هو موضع اهتمام الجامعة. فلقد ضعفت همتي وتوقفت بسبب أشغال لعلها تهم الدعوة إلى الله لمدة ستة عشرة عاماً منذ أنهيت الماجستير في جامع الأزهر عام ١٣٩٥ هـ.

وأخص بالثناء أستاذي وأخي الكريم الدكتور ظهور أحمد أظهر رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة، فهو الذي شجعني على إنجاز هذا البحث من خلال مقابلات تشرفت بها ومكالمات هاتفية متواصلة، فقد كان يحثني على إنجاز هذا البحث، ويواصل ويتابع، حتى انتهى بفضل الله سبحانه، فله الفضل تعالى أولاً وآخراً، والله المستعان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

عبد الله الحمد الجلالي

مراجع البحث

١ ـ القرآن الكريم.
٢ ـ صحيح البخاري: الإمام البخاري.
٣ ـ صحيح مسلم: الإمام مسلم.
٤ ـ فتح الباري: ابن حجر.
٥ ـ العدة شرح العمدة: ابن دقيق العيد.
٦ ـ عمدة الأحكام.
٧ ـ تفسير القرطبي: الإمام القرطبي.
٨ ـ تفسير أبي السعود: أبو السعود.
٩ ـ تفسير المنار: الشيخ محمد رشيد رضا.
١٠ ـ تفسير الألوسي روح المعاني: الألوسي.
١١ ـ تفسير القرآن العظيم: الإمام ابن كثير.
١٢ ـ أيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري.
١٣ ـ فتح القدير: الشوكاني.
١٤ ـ في ظلال القرآن: سيد قطب.
١٥ ـ شبهات حول الإسلام: محمد قطب.
١٦ ـ رسائل ومجلات: متنوعة.
١٧ ـ المغني في الفقه: ابن قدامة.
١٨ ـ المعجم المفهرس.
١٩ ـ مفتاح كنوز السنة.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
[مقدمة الرسالة]	٥ ـ ٢٢
□ مقدمة في فضل القرآن	١٠
* التحدي بالقرآن الكريم	١١
* القرآن منهج حياة متكامل	١٢
* القرآن منهج حكم	١٣
* القرآن منهج اقتصاد	١٥
* القرآن منهج أخلاق وفضيلة	١٧
* القرآن منهج سلوك للمسلم	١٧
* القرآن وأثره في نشر اللغة العربية	١٠
[الباب الأول: في صلة الرحم]	٢٣ ـ ٤٠
□ مقدمة الباب	٢٥
* أسباب ضعف هذه العاطفة عند غير المسلمين	٢٦
□ الفصل لأول: علاقة الآباء بالأبناء والعكس	٢٩ ـ ٣١
* الأبوان الكافران	٢٩
□ الفصل الثاني: حقوق ذوي الأرحام	٣٢ ـ ٣٣
□ الفصل الثالث: خطر العقوق والقطيعة	٣٤ ـ ٣٦
□ الفصل الرابع: المواريث وتوزيعها حسب القرابة	٣٧ ـ ٣٨
□ الفصل الخامس: الغرامات التي يتحملها الأقارب بسبب القرابة	٣٩ ـ ٤٠

الموضوع	الصفحة

[الباب الثاني: في العلاقات الزوجية] .... ٤١ ـ ٩١
□ مقدمة الباب .... ٤٣ ـ ٤٥
□ الفصل الأول: مكانة الزواج في الإسلام .... ٤٦ ـ ٤٨
□ الفصل الثاني: في تفضيل الذكور على الإناث .... ٤٩ ـ ٥٣
* فتنة المساواة ٥١
□ الفصل الثالث: في عشرة النساء .... ٥٤ ـ ٦٨
* العشرة الزوجية ٥٩
* الحقوق الزوجية ٦١
* واجبات الزوج ٦٢
* واجب الزوجة في حياتها الاجتماعية ٦٤
□ الفصل الرابع: الإصلاح بين الزوجين وحل المشاكل الزوجية . ٦٩ ـ ٧٢
□ الفصل الخامس: إنهاء العلاقات الزوجية .... ٧٤ ـ ٧٥
* نظرة الإسلام إلى الطلاق ٧٤
* الطلاق رحمة بالمرأة ٧٥
□ الفصل السادس: تعدد الزوجات .... ٧٦ ـ ٩٢
* مقدمة ٧٦
* التعدد لمصلحة المرأة ٧٧
* التعدد هو السنة ٧٩
* أدلة السنية ٧٩
* إنكاره ردة عن الإسلام ٨٠
* خطر محاربة التعدد ٨٠
* سؤال منحرف ٨٣
* أما الطلاق ٨٤
* لماذا كان بيد الرجل ٨٥
* سورة الطلاق وما فيها من الفرج ٨٨

الموضوع	الصفحة

□ خاتمة الباب .... ٨٩ ـ ٩٢
* أهمية الطلاق ٩١
[الباب الثالث: في العلاقات بين الأحرار والأرقاء] .... ٩٣ ـ ١٢٥
□ مقدمة الباب .... ٩٥ ـ ١٠٢
* الرق قبل الإسلام ٩٧
* الرق عند الرومان ٩٨
* الرقيق في حضارة اليوم ٩٩
* الرقيقات في الإسلام ١٠١
□ الفصل الأول: موقف الإسلام من الرق .... ١٠٣ ـ ١٠٧
* مؤاخاة الإسلام بين الأحرار والعبيد ١٠٤
□ الفصل الثاني: في مصادر الرق وحرص الإسلام على تحرير الأرقاء .... ١٠٨ ـ ١١٤
* مصادر الرق ١٠٨
* حرص الإسلام على تحرير الأرقاء ١١٠
* أما الرقيقات ١١١
□ الفصل الثالث: حقوق الأرقاء ووجوب الإحسان إليهم ... ١١٥ ـ ١١٧
□ الفصل الرابع: في التفرقة العنصرية .... ١١٨ ـ ١٢٥
* موقف الإسلام من هذه التفرقة ١١٩
* التفرقة العنصرية اليوم ١٢٢
[الباب الرابع: في العلاقات بين المسلمين] .... ١٢٧ ـ ١٧٣
□ مقدمة الباب .... ١٢٩ ـ ١٣٣
□ الفصل الأول: حقوق المسلم على المسلم .... ١٣٤ ـ ١٤٥
* أهم واجبات المسلم على أخيه ١٣٤
□ الفصل الثاني: في حل المشاكل التي تحدث بين المسلمين ١٤١ ـ ١٤٦
* درس من الواقع ١٤٦

□ الفصل الثالث: العبادات مصدر أخوة بين المسلمين ..... ١٤٧ ـ ١٥١
□ الفصل الرابع: أثر المعاملات في تقوية أواصر المحبة .... ١٥٢ ـ ١٥٩
□ الفصل الخامس: سلوك المسلم وأثره في غرس المحبة ... ١٦٠ ـ ١٦٤
□ الفصل السادس: في العلاقات المالية بين المسلمين ..... ١٦٥ ـ ١٧٣
* المال: مورده ومصدره وطريقة تشغيله ١٦٦
* نصيحة للدعاة ١٦٩
* وأخيراً نقول ١٧١
* أما مصادر المال ١٧١
* وبعد ١٧٣
[الباب الخامس: في العلاقات الإنسانية] ..... ١٧٥ ـ ٢٢٨
□ مقدمة الباب ..... ١٧٧ ـ ١٧٨
□ الفصل الأول ..... ١٧٥ ـ ١٨٣
* حقوق الإنسان ١٧٩
* منظمة حقوق الإنسان ١٨٠
□ الفصل الثاني: في العلاقات الفردية بين المسلم والكافر .. ١٨٤ ـ ١٩٥
□ الفصل الثالث: في العلاقات الدولية بين المسلمين والكفار ١٩٦ ـ ٢١٥
* التعامل مع الكفار في مصالح مشتركة ١٩٩
* اتخاذهم خدم داخل البيوت ١٩٩
* اتخاذهم مربين للمسلمين ٢٠٠
* اتخاذهم بطانة وعاملين وموظفين ٢٠٠
* الاستعانة بهم ضد المسلمين ٢٠١
* الاستعانة بهم ضد الكفار ٢٠٣
* درس من الواقع ٢٠٦
* موقف الإسلام من الكفار عموماً ٢٠٦
* مراحل تأريخ الإسلام ٢٠٧

الموضوع	الصفحة
* من هنا ندرك	٢٠٩
* خاتمة الفصل: الجهاد في الإسلام وقتال الكفار	٢١١
* مكانة الجهاد في الإسلام	٢١٢
□ الفصل الرابع: في تنظيم السلم والحرب بين المسلمين والكافرين	٢١٦ ـ ٢٢٨
* متى يجوز للأمة الإسلامية أن تعقد الهدنة مع الكفار	٢٢١
* شروط الهدنة	٢٢٢
□ خاتمة الباب	٢٢٧ ـ ٢٢٨
[خاتمة البحث]	٢٣٠ ـ ٢٤٠
* وبعد نقول	٢٣٥
□ شكر وعرفان	٢٤٠
□ مراجع البحث	٢٤٢
□ فهرس المحتويات	٢٤٣